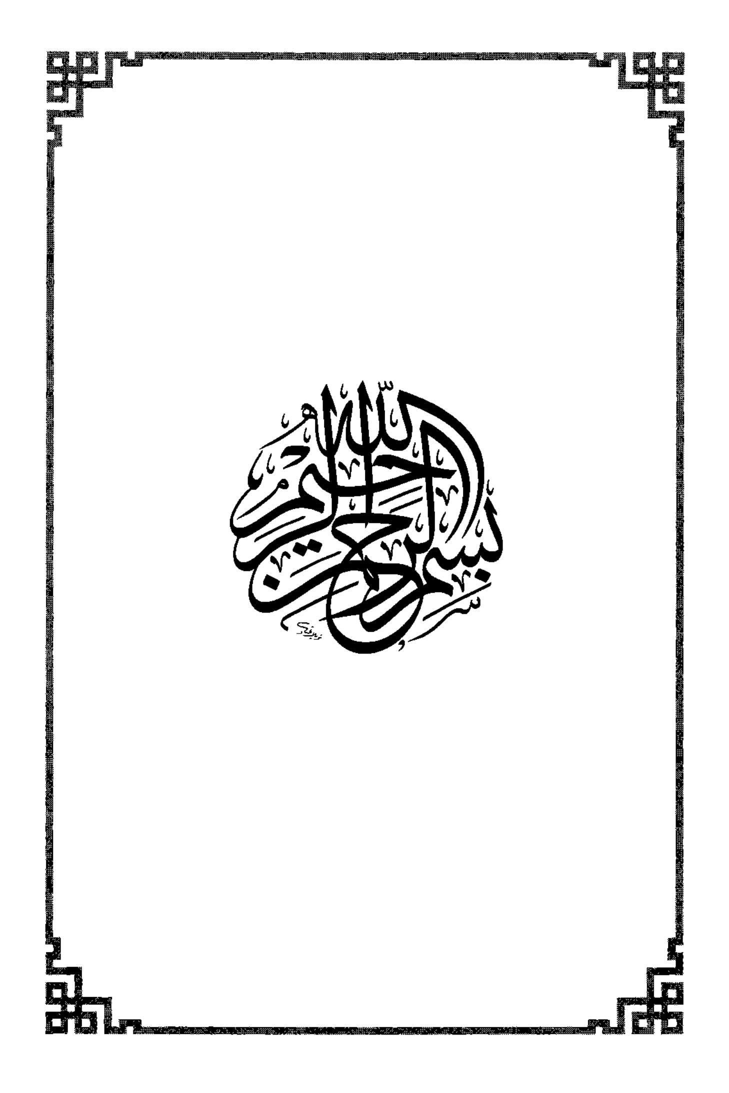
المسلمون في الهند

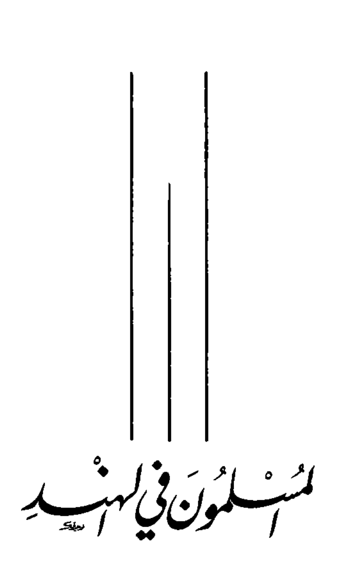
تأليف

أبي الحسن علي الحسني الندوي

دار ابن كثير

دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم


المُسْلِمُونَ في الهِنْدِ

الطبعة الأولى
الخاصة بدار ابن كثير
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

وزارة الإعلام - مديرية الرقابة
رقم الموافقة ٤٥٦٨٤ تاريخ ٧/ ٩/ ١٩٩٩

أشرف على طباعة هذا الكتاب
تلميذ المؤلف
السيد عبد الماجد الغوري



دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب : ٣١١ - تلفون : ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي
ص.ب ١١٣/٦٣١٨ - تلفون ٨١٧٨٥٧ - ٠٣/٢٠٤٤٥٩

مقدمة الطبعة الثالثة

بقلم الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وبعد؛ فهذه طبعة جديدة لكتاب «المسلمون في الهند» لفضيلة أستاذنا الجليل السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، وهي طبعة أوسع وأشمل من سابقتها، فقد اشتملت على معلومات زائدة ومواد علمية جديدة.

لقد وضع المؤلف ـ حفظه الله ـ هذا الكتاب من أحاديثه التي نشرها بدار الإذاعة الهندية العربية بدلهي الجديدة قبل أكثر من عشر سنوات ، وكانت تنير جوانب دينية وعلمية وحضارية من حياة المسلمين في هذه الربوع الواسعة البعيدة عن مهد الإسلام، والتي حكمها المسلمون سبعة قرون قبل تسلط الاستعمار الإنجليزي عليها.

سبعة قرون لم تكن مدة قصيرة حتى تمر بدون أن تترك على

صفحات هذه الأرض آثاراً عظيمة باقية في مجالات مختلفة من حياتها.

لقد امتازت الأمة الإسلامية في الهند بميزتين بارزتين، أولاهما: أنها حافظت على الشخصية الدينية الأساسية التي نشأت عليها بتأثير التعاليم الإسلامية التي غذتها بها مدارسها الدينية المنتشرة في طول البلاد وعرضها وبتأثير الدعوة الدينية التي كان يقوم بها رجال العزيمة والعاطفة الإسلامية المشرقة عبر التاريخ السابق، وأخراهما: أنها ساهمت في بناء البلاد وترقيتها اجتماعياً وأدبياً ومدنياً، وشاركت في زيادة الثروة الفكرية والأدبية فيها، وبذلك كله أصبحت صورة الهند صورة مزدانة بنماذج رائعة من الامتزاج الثقافي والعقلي وظهور الصورة الإسلامية الممتازة فيها، ونشأت للمسلمين من خلال ذلك شخصية إسلامية متميزة، فيها القوة والأصالة والغيرة والاعتزاز.

يختار المؤلف ـ حفظه الله ـ منها صوراً يعرضها في هذا الكتاب، وهو بذلك هدية ممتعة من مسلمي الهند إلى غيرهم فيها صورتهم الواقعية.

ويجد مجمعنا الإسلامي العلمي نفسه سعيداً بتقديم هذه الهدية إلى القارىء العربي بعد زيادات عديدة ومفيدة قام بها فضيلة المؤلف ـ حفظه الله ـ في مرحلتين من طبعات الكتاب في

مواد الكتاب ومعلوماته ، وإضافة موضوعات جديدة إليه هي :

(١) الحركة العلمية القديمة في الهند ـ مراكزها ومزاياها .

(٢) مزايا منهج التعليم القديم .

(٣) شخصية المسلم الهندي ـ مقوماتها ومصادرها .

(٤) الأحوال الشخصية الإسلامية في الهند .

(٥) الاضطرابات الطائفية وأثرها على المسلمين .

ولقد نقل هذا الكتاب إلى عدد من اللغات الكبيرة ، نشر المجمع الإسلامي العلمي منها التراجم الإنجليزية والأردية بالإضافة إلى نصه العربي هذا ، وهذه طبعة ثالثة يصدرها المجمع من طبعات الكتاب. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

٢٢/ ٤/ ١٤٠٧هـ

٢٥/ ١٢/ ١٩٨٦م

محمد الرابع الحسني الندوي

أمين المجمع الإسلامي العلمي

مقدمة المؤلف

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد:

كنت في رحلتي في الشرق الأوسط[١] أواجه سؤالاً كان يتكرر ويوجه في كل مجلس وفي كل مناسبة: ما عدد المسلمين في الهند؟ فأجيب أنهم أربعون مليوناً[٢] ، وهناك يندهش الناس ويندفع بعضهم قائلاً: يا سلام أربعون مليوناً! فلولا ثقتهم بالضيف ولولا الجد في الجواب ، لسارعوا إلى التكذيب أو الشك على الأقل ، لأنهم ما كانوا ينتظرون بعد ما سمعوا عن موجات الهجرة الكبيرة وعدد النازحين الضخم ، أن المسلمين

---

(١) كانت هذه الرحلة التي شملت السعودية ومصر والسودان وسوريا وفلسطين سنة ١٩٥١ م.

(٢) ويقدر الآن عددهم ما بين خمسين مليوناً وستين مليوناً ، ويرى بعض أهل الخبرة أنهم أكثر من ذلك.

سيكونون مليوناً واحداً فضلاً عن أربعين مليوناً ، إذاً فلا غرابة في استغرابهم.

لقد كانت هذه مفاجأة لا تفارقني أينما حللت ونزلت ، مفاجأة للطرفين ، مفاجأة للسائلين عن عدد المسلمين في الهند ، ومفاجأة للمجيب لاستغرابهم ، وهناك مفاجآت أخرى فيما يتصل بالمسلمين في الهند ، فالذين كانوا يعرفون أن في الهند عدداً كبيراً من المسلمين ـ على قلة هؤلاء ـ كانوا يعتقدون أن المسلمين لا شأن لهم في هذا القطر العظيم ، وليست لهم حضارة خاصة ، ولا ثقافة واسعة ، ولا آداب سامية ، ولا مؤسسات علمية ، ولا نشاط ولا إنتاج في العلم والأدب ، إنما هم كالرعاع أو أمة قد أفلست في كل مقومات الحياة ، وفي كل ما تعتز به أمة من علم وأدب ، ودين واجتماع ، وأخلاق ومروءة.

بل قد كان بعض الإخوة يسأل: هل في الهند مساجد ، هل فيها مدارس دينية ، هل عندكم علماء ، هل يوجد هناك من يحسن أن يقرأ القرآن؟ هل هناك من يفهم العربية؟ أسئلة تدل على أن معلومات إخوتنا العرب عن المسلمين في الهند ضئيلة جداً ، وتدل كذلك على أنه قد أثير نقع كبير حول المسلمين في الهند، وتدل كذلك على تقصير علماء الهند في القيام بمهمة التعريف بهذا القطر العظيم ، وبهذه الأمة الإسلامية العظيمة التي مثلت

دوراً رائعاً في تاريخ الإسلام وتاريخ العلم العام ، وأضافت ثروة ذات قيمة عظيمة إلى مكتبة الإسلام العامة ، وأتحفتها بطرف غالية تتجمل بها المكتبة العربية ، وتزدهر بها على سعتها وغناها ، وتفردت ببعض العلوم الإسلامية التي كانت ولا تزال فيها الهند زعيمة العالم الإسلامي وحاملة لوائها عدة قرون ، كعلم الحديث والفقه وأصوله ، في القديم والسيرة النبوية وعلم الكلام والدعوة إلى الإسلام ، في هذا العصر.

وأنجبت الهند رجالاً شهد لهم علماء العرب بالفضل ، وعكفوا على كتبهم ومؤلفاتهم ينقلون ويقتبسون ويستدلون ويحتجون ، وقد أنجبت كذلك علماء يندر نظيرهم في الذكاء ، وخصوبة الفكر والابتكار العلمي ، وأنجبت كذلك فضلاء لا يضارعون في كثرة المؤلفات والإنتاج ، وقد أنتجت من الملوك رجالاً يتفردون في حسن سياستهم وتنظيمهم الدولة ، وحسن القوانين العادلة ، وفي فضائلهم الخلقية ، والعلمية والعملية ، والجمع بين الدين والدنيا.

ولا تزال الهند مأهولة بشعب مسلم قوي في دينه ، غني في علمه وبرجاله ، مخصب في عقله ، متوقد الذهن نشيط مصمم على الإقامة في وطنه الذي خدمه ألف سنة ، وأغناه في العلم والحضارة ، والدين والاجتماع ، وكان من صانعيه.

إن من الجفاء أن تبقى هذه البلاد الغنية برجالها وأعمالها

وماضيها وحاضرها مجهولة عند أصدقائها في الخارج ، مطمورة في صفحات التاريخ ، ولكن التبعة في ذلك على أبنائها قبل أن تكون على أصدقائها ، لأنهم فرطوا في تقديم هذه البلاد ، وما تمتاز به من فضل وعلم وحياة ونشاط ، إلى الناطقين بلغة الضاد ، وانطووا على نفوسهم وعاشوا في العزلة عن العالم.

ولكنني إذا ذكرت أبناء الهند بالتقصير في جنب بلادهم الأم ، فإني أعتذر إلى روح مؤرخ الهند الكبير الذي خلف لأبناء البلاد العربية مكتبة كاملة في تاريخ الهند ووصفها ، وقام وحده بما تقوم به المجامع العلمية في أوربا ، برجالها وعدتها ، ألا وهو المرحوم العلامة السيد عبد الحي الحسني مدير ندوة العلماء الأسبق (١٣٤١هـ ـ ١٩٢٣م) الذي ألف في تراجم أعيان الهند كتابه «نزهة الخواطر» في ثمانية مجلدات كبار ، تشتمل على نحو خمسة آلاف ترجمة[١] ، وفي تاريخ الهند العلمي والتعليمي «عوارف المعارف» الذي أصدره المجمع العلمي العربي بدمشق باسم «الثقافة الإسلامية في الهند»[٢] وفي خطط الهند وآثارها

(١) ظهرت طبعتان من هذا الكتاب الجليل في ثمانية أجزاء ، أصدرتها دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد ، الهند.

(٢) صدرت الطبعة الثانية مزيدة منقحة مع ذيل وتكملة من المجمع سنة ١٩٨٤ م.

كتابه «جنة المشرق»[١] فإنه قد قضى ما عليه وزاد ، جزاه الله عن المسلمين في الهند خير ما يجزي العاملين المخلصين .

أراني قد قسوت بعض الشيء مع إخوتي الكرام في الأقطار العربية العزيزة الذين لم تمكنهم شؤونهم الخاصة من دراسة تاريخ الهند وخاصة المسلمين غابرهم وحاضرهم ، فإني ـ والحق يقال ـ وجدت فيهم عدداً لا يستهان به من المتتبعين لأحوال الهند والمطلعين على آثارها الإسلامية[٢] ، الذين لا يزالون يشيدون بفضلها في بعض العلوم الإسلامية ، وحراستها لأمانة الحديث الشريف بعد ما ركدت ريحه في البلاد العربية ، وقد رأيت حرصاً كبيراً في كل بلد عربي على معرفة الهند ، وتطلعاً إلى إخوتهم المسلمين في الهند ، وعناية خاصة بشؤونهم وانجذاباً إليهم بحكم الدين والثقافة الإسلامية ،

---

(١) صدر هذا الكتاب من دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد سنة ١٣٩٢هـ ١٩٧٢ م باسم «الهند في العهد الإسلامي» لأنه أدل على موضوع الكتاب وأقرب إلى الذوق العصري ، ونقل إلى الانجليزية باسم India During Muslim Rule .

(٢) صدر حديثاً كتاب «الإسلام في الهند» لصاحب الفضيلة الدكتور عبد المنعم النمر (وزير الأوقاف في مصر سابقاً)، وهو أول كتاب يصدر في الشرق العربي مؤسساً على دراسة ومعرفة وإخلاص ، ويسد عوزاً كبيراً في المكتبة العربية .

وبسبب ما عرف به المسلمون في الهند قديماً وحديثاً من الغيرة على الإسلام ، والتعصب للعلوم الإسلامية العربية ، والحرص على الجامعة الإسلامية .

ذلك يدفعني إلى أن أقدم إلى إخوتي في الشرق العربي هذا الكتاب ، يتحدث عن الهند وعن إخوتهم فيها قديماً وحديثاً ، ويتناول هذا الحديث نواحي شتى في الحياة العلمية والاجتماعية والدينية ، وعما أضافه المسلمون إلى ثروة الهند منذ دخولها وما أدخلوا عليها من إصلاحات وتجديدات في مختلف نواحي الحياة ، وعما أنتجه المسلمون في الهند في العلوم الإسلامية وما زادوا إلى تراثها ، ومن نبغ فيها من العلماء الكبار والمؤلفين العظام ، وعن مظاهر نشاط المسلمين العلمي والديني ، ومراكزه الكبيرة في العصر الحاضر ، وعن خصائص هذا الشعب وطبيعته وشخصيته وعن ماضيه وحاضره ، وعن قضاياه الرئيسية ومشكلاته ، عسى أن يكون حلقة ـ ظلت مفقودة زمناً طويلاً ـ في سلسلة تنوير الرأي العام والتزويد بالمعلومات الصحيحة ، وفي سبيل التعارف الإسلامي .

ويحملني على تقديم هذا الكتاب أيضاً أننا نلاحظ أن كثيراً من أقطاب السياسة والثقافة ورجالات العالم الإسلامي والشرق العربي يزورون هذه البلاد كل عام ويقضون فيها ما شاء الله من الوقت ، ولا يهمهم أن يتصلوا بإخوتهم المسلمين ـ الذين

أسهموا في بناء الحضارة والثقافة الإسلاميتين العربيتين بسخاء وجدارة ـ وأن يعرفوا أوضاعهم السياسية والثقافية والدينية وما يمثلونه أو يستطيعون أن يمثلوه من دور في حضارة هذه البلاد وحضارة العالم ، وما لهم من قضايا ومشكلات يعالجونها ، كأنها بلاد ـ كأوربا واليابان ـ ليس فيها شعب مسلم ، وينصرفون إلى بلادهم لا يعرفون عن الشعب الإسلامي في الهند إلا معلومات ضئيلة سطحية مبعثرة ، وقد يعرفون عن البوذيين والجينيين أكثر مما يعرفونه عن المسلمين الذين يشاركونهم في العقيدة والثقافة والحضارة ، والذين كانوا بناة الهند الجديدة وصانعيها ، والذين هم من أغنى شعوب العالم علماً وإنتاجاً وحكماً وإدارة وآثاراً ومخلفات ، ولا يزالون مصدر قوة وأمل .

إلى هؤلاء وأولئك جميعاً أقدم هذا الكتاب ، وبالله التوفيق .

المجمع الإسلامي العلمي
ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)
أبو الحسن علي الحسني الندوي

سلخ ذي الحجة الحرام ١٣٧٩هـ

تقديم الكتاب

للأستاذ علي الطنطاوي ـ رحمه الله ـ

ماطَلْتُ الناشر بهذه المقدمة ثلاثين يوماً ، أبتغي بها ساعة صفاء وإلهام ، فلما ضاق الوقت ، وبدأ الطبع ، كتبتها على عجل في ثلاثين دقيقة .

كنت أريد أن أجعلها صفحات من الفن البارع الأصيل ، فجاءت سطوراً من الذهن الخامد الكليل .

وكنت أريد أن أودعها خلاصة ذكرياتي عن الهند وأن أصب فيها كل ما في نفسي لأخي وسميّي أبي الحسن ، ولكنها صادفت أيام الانتخابات ، التي جاءت بها هذه الثورة ، وما تتابع عليَّ من مشاغل ومشاكل ، أرهقت جسدي ، وأتعبت قلبي ، وفرقت المُجْتَمِع من فكري ، وأثقلت القلم في يدي ، فحرن عليَّ وقد كان العهد به أن يجري جريان فرس السباق ، وكبا في أول

الحلبة ، وقد كان (ولا فخر) سباقاً إلى الغاية ، فعدت وكأني من العيّ لم أسوِّد به من قبل صحيفة ، ولم أخط به سطراً.

فيا أخي أبا الحسن ، ويا إخوتي القراء ، معذرة.

ويا رب غفراً.

ومثل أبي الحسن لا يحتاج إلى أن يقدم كتابه إلى القراء أحد ، إن اسمه عليه يغنيه عن كل تنويه به ، ولكنه أراد أن يوليني هذا الشرف ، وأن يقرن اسم العليَّيْن معاً باسم المسلمين في الهند ، دليلاً من الأدلة على أن الإسلام يجمع الإخوان ، وإن تفرقت بهم البلدان ، وإن كان هذا الأمر لا يحتاج إلى دليل.

ولقد كنت أعجب حين أقرأ لأبي الحسن ، فأجد لرجل من الهند هذا الأسلوب البليغ ، وهذه الأصالة وهذا الطبع ، ثم زال العجب لما ظهر السبب ، وعلمت أن أبا الحسن عربي صريح صحيح النسب كالأصبهاني مؤلف الأغاني ، والأبيوردي الشاعر ، وهما قرشيان أمويان ، والفيروزأبادي صاحب القاموس ، وإن خبر عربيته متواتر مستفيض في الهند ، فمن هنا جاء هذا البيان الذي قَلَّ نظيره في هذه الأيام.

وقد يشتغل غير العربي بعلوم العربية ، حتى يكون إماماً فيها ، في اللغة والنحو والصرف والاشتقاق ، وفي سعة الرواية ، بل إن أكثر علماء العربية كانوا (في الواقع) من غير

العرب ، ولكن من النادر أن يكون فيهم من له مثل هذا (الذوق الأدبي) الذي تعرفه لأبي الحسن. فلو لم تثبت عربيته بصحة النسب ، لثبتت بأصالة الأدب.

وإن كان الدليل على ذوق الأديب اختياره ، فحسب القراء أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية ، لنتخير واحداً منها نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام ، وذهب كل واحد من أعضاء اللجنة ، وكلهم من الأدباء ، يبحث ويفتش ، فعدنا جميعاً وقد وجدنا أن أجود كتب المختارات المدرسية ، وأجمعها لفنون القول وألوان البيان ، مختارات أبي الحسن.

ولقد كنت أتمنى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه ، إلى فضاء الحرية ، وإلى ضياء النهار ، فلا نقتصر في الاختيار ، على (وصف الكتاب) للجاحظ ، وهو جمل مترادفة ، لا تؤلف بينها فكرة جامعة ، ولا يمدّها روح ، ولا تخالطها حياة ، وعلى ألاعيب ابن العميد ، وغلاظات الصاحب ، وهندسات القاضي الفاضل ، فننفر التلاميذ من الأدب ، ونكرهه إليهم ، وكنا نقول لهم إن البيان الحق عند غير هؤلاء ، وأن أبا حيان التوحيدي أكتب من الجاحظ ، وإن كان الجاحظ أوسع رواية ، وأكثر علماً ، وأشد تصرفاً في فنون القول ، وأكبر أستاذية ، وأن الحسن البصري

أبلغ منهما ، وأن ابن السماك أبلغ من الحسن البصري[١] .

وإن النظر فيما كتب الغزالي في الإحياء ، وابن خلدون في المقدمة ، وابن الجوزي في الصيد ، وابن هشام في السيرة ، بل والشافعي في الأم ، والسرخسي في المبسوط ، أجدى على التلميذ وأنفع له في التأدب ، من قراءة حماقات الصاحب ، ومَخرَقات الحريري وابن الأثير .

وكتبت في ذلك مراراً ، فما التفت إلى ذلك أحد ، فيئست منه ، حتى وجدت كتاب أبي الحسن ، فإذا هو قد نفض كتب الأدب والتاريخ نفضاً ، وحرثها حرثاً ، فاستخرج جواهرها ، فأودعها كتابه .

ولست أقول أني أنا صاحب الفكرة ، أو أنه أخذها مني . . لا ، ولعله (وهذا ما أرجحه) ما قرأ شيئاً مما كتبت أنا ولا غيري في هذا الموضوع ، ولكنه الذوق الأدبي المرهف ، والطبع العربي الأصيل .

وأبو الحسن أستاذ في فنون كثيرة ، في الكتابة ، وفي البحث ، وفي التاريخ ، وفي الدعوة ، وفي الفقه والنزاهة

---

(١) قد تبدو هذه الأحكام غريبة على من ألف التقليد في الأدب وعكف عليه ، ولكنها حق ، كما أن من الحق أن أبا تمام أشعر من المتنبي وأعظم .

والتخلق بأخلاق العلماء ، وهو فرع كرم من أصل كريم ، أبوه مؤرخ الإسلام في الهند ، وأخوه من صدور الأطباء والعلماء ، وأسرته أسرة شرف وعلم ، وهو أحد أركان ندوة العلماء ، وإليها نسبته. وندوة العلماء ، أجلّ من أن نمر بها مرّاً ، ولا بد من وقفة عليها ، لنعرف بها من لا يعرفها من القراء.

ولقد رحلت من سنوات رحلة قطعت فيها في الذهاب والإياب أكثر من ثلاثين ألف كيل ، مشيت فيها من دمشق إلى سورابايا (في آخر جزيرة جاوا) ودخلت فيها كثيراً من المدن الكبار ، فما رأيت في ذلك كله موضعاً تمنيت من إعجابي به ، أن أقيم فيه ، إلا مدرسة الندوة ، في لكنو.

وما أدري لِمَ شبهت لكنو بدمشق ، وأحسست وأنا فيها كأني في بلدي ، أمن أنهرها ، وكثرة بساتينها؟ أم لأني أحسست فيها من كرم أبي الحسن كأني في موطني ، وبين أهلي؟

ولقد كانت كلكته أول ما زرنا من بلاد الهند ، مررنا بها في طريقنا إلى الشرق الأقصى ، وفي عودتنا منه ، وكلكتا مدينة عظيمة ، ربما كانت خامسة مدن الأرض ، كثرة سكان ، لأن فيها كما قالوا خمسة آلاف ألف ، وخمسمئة ألف ، ولكنها بلدة كئيبة قديمة ، وخرجنا منها فقطعنا عرض الهند إلى بومباي ، وبومباي من أجمل بلاد الدنيا وأكبرها ، لها ساحل متعرج يدخل فيه البر في البحر ، والبحر في البر ، فلا ترى إلا رأساً بارزاً أو خليجاً

والجاً ، أو برزخاً معترضاً ، وعلى الساحل جبل قائم ، يلبس حلة من غرائب الأشجار ، وعلى ذروته حديقة معلقة ومقبرة مغلقة هي إحدى عجائب الزمان لأنها لقوم من مجوس الفرس ، لا يدفنون أمواتهم مثلنا ولا يحرقونهم كالهندوس ، بل يعرضونهم للطير والحيوانات تأكل لحومهم حتى تذهب بها كلها.

وفي بومباي العمارات الكبار التي تجمع الجمال والجلال. وقد رجعنا منها إلى دهلي ، ودهلي مدينة عظيمة يحس من يدخلها أنه في بلدة إسلامية ، من كثرة مساجدها وقبابها ، وفيها المسجد الجامع ، وهو من أعظم مساجد الأرض اليوم ، وأمامه القلعة الحمراء ، وهي درة من درر العمران على الأرض ، بناها شاهجهان باني (تاج محل) أجمل أبنية الدنيا بلا جدال.

فما أحببت من ذلك كله بلداً ، ولا من بلدان جاوا (جنة الأرض) ، مثلما أحببت لكنو.

وكنا كلما دخلنا في رحلتنا بلداً ، نجد من يستقبلنا فيه ويدلّنا ، وكنا نرقب أن نجد في (لكنو) من الرعاية والعناية ، ما لم نجده في غيرها ، لأنها بلد الصديق أبي الحسن ، فنزلنا من الطيارة مطمئنين (وكنا اثنين أنا والأستاذ الدليل بركة العصر الشيخ أمجد الزهاوي شيخ علماء العراق) ، فتلفَّتنا فلم نرَ أحداً ، فضاق صدر الشيخ فطمأنته ، وكان الركاب قليلاً ، فتمت

(المعاملات) في نصف ساعة ، ورحنا إلى السيارة لتحملنا إلى البلد ، وما رأينا أبا الحسن ولا أحداً من جماعته ، فغضب الشيخ وحرت أنا ماذا أصنع ، لأني لا أعرف (ولا الشيخ يعرف) كيف نخاطبهم ، فعمدت إلى الإشارة وهي لسان من ليس له لسان ، ولغة الخرس جميعاً في كل عصر ، وقرنَّا بها الكلمة التي تفهم في كل مكان كلمة (أوتيل) ، ففهموا منا وأشاروا إلى السيارة.

واخترقت السيارة البلدة ، ثم خرجت منها ، وصرنا بين البساتين فشككت وأعدت على جاري في السيارة كلمة (الأوتيل) وقلبت كفي إشارة السؤال ، فهز رأسه ورطن بما لم أفهم ، وأشار إلى قدام ، ففهمت أن الفندق أمامي.

ووقفت السيارة في مكتب الشركة وكان في فندق فخم ضخم ، من أفخم وأضخم ما رأيت من الفنادق ، اسمه فندق كارلتون ، وله أجنحة طويلة تظللها بواسق أشجار الهند ، تقفز عليها القرود من كل نوع ، تلعب وتتقلب وتخطف ما تصل إليه من الطعام ، وهم لا يمسونها لأنهم يحرمون قتل الحيوان ، تطل غرفه على بحر من الخضرة ، فيه الأشجار الكبيرة المزهرة ، التي لا نعرف مثلها في بلادنا ، وكل غرفة منها بمقدار شقة من دار ، فيها الفرش الغالي ، والأثاث الثمين ، وفي كل غرفة مرافقها كلها ، فنزلنا فيه ، ولكنا كنا فيه كالمسجونين ظلماً ، لا نعرف

ماذا نصنع ، ولا ندري أين نتوجه ، ولا نجد من نسأله عن أبي الحسن .

وهطلت الأمطار ، لا كالأمطار التي نعرفها في بلادنا ، ولكنها قِرب تنصب ، وسماء تتفتح ، فتضع في دقائق ، ما لا تضعه أمطارنا في ساعة ، واستمرت إلى الليل ، ثم وصلت الليل بالنهار ، والنهار الثاني بالليل ، والليل الثاني بالنهار . ولبثنا على ذلك ثلاثة أيام ، ونحن محبوسون في قصر أنيق جميل المنظر ، بارع البنيان ، ولكنه كان علينا سجناً ، والسجن لا يُحب مهما كانت حاله ، وضاق صدر الشيخ حتى فكر في السفر ، ولم أجد بدّاً من أن أذهب تحت هذا المطر ، فأبحث عن مخرج . .

وركبت سيارة أجرة وجدتها في الفندق . وقلت له : إلى ندوة العلماء ، فلم يفهم عني ، فقلت بمقدار ما أعرف من اللفظ الإنكليزي : إني أريد مدرسة إسلامية ، فلم أفلح في إفهامه ، فأشرت إليه أن يمشي ، فمشى وجعل يدور في الشوارع والعداد يسجل وهو يلتفت إليَّ فأشير إليه أن يمشي ، لعلِّي أرى من أتوسم فيه أنه مسلم فأسأله ، وقد كان ذاك ، فوجدت شاباً وقفت السيارة وسألته ، فأجابني ، واسترشدته فأرشدني .

وما قلت له : السلام عليكم ، وقال وعليكم السلام ورحمة الله ، وما علمت أنه مسلم ، حتى شعرت بمثل ما يشعر به الغريق ، وجد من ينتشله من الماء ، والمختنق وجد الهواء ،

وفرح هو بي فرح الأخ يلقى أخاه بعد طول الغياب ، وهذه هي أخوة الإسلام ، التي عقدها الله ، فلا تقوى على حلها يد بشر. وحدثني أنهم كانوا يتوقعون قدومنا بالقطار ، فكانوا يخرجون كل يوم إلى المحطة فإذا لم يجدونا رجعوا ، ما توقعوا أن نجيء في الطيارة.

ومشى بي ، في شارع رحب ، على كتف نهر عظيم ، يقابله من هناك شارع آخر ، وكانت الأمطار قد انقطعت فجأة كما هطلت فجأة ، فنظرت ، فإذا على الجانبين منظر من أمتع ما خلق الله ، حتى انتهينا إلى أرض منبسطة خضراء ، في وسطها بناء جميل ، كأنه قصر من قصور الأشجار المزهرة والمثمرة ، والسواقي الجارية ، قال: هذه هي المدرسة ندوة العلماء ، وتلك الأبنية تبع لها ، وهذه الأرض كلها ملكها.

فدخلت فوجدت الأستاذ أبا الحسن ، فلما رآني ، وثب هو وتلاميذه إليَّ يسلمون عليَّ ويكلمونني ، وكلهم يحسن العربية كلاماً وقراءة ، حتى الصغار منهم ، ولقد وجدت طفلاً اسمه عبد المحسن ، لا يكاد يحسن النطق بلسان قومه ، وهو يحسن مع ذلك لسان القرآن ، ولعله قد كبر الآن وغدا من طلبة العلم فبلغوه ، وبلغوا الأستاذ أحمد الرابع دليلي في لكنو ، سلامي.

وشعرت كأني في مدرسة شرعية من مدارس دمشق ، وتيقنت لما رأيت مناهج الدرس ، وكتب الطلاب ، أن القوم ماشون على

الجادة ، فليس عندهم تفرنج (جامعة عليكره) التي صارت كواحدة من جامعات أوربة ، وليس عندهم جمود (مدرسة ديوبند) وهي أزهر الهند ، ولكنهم يأخذون بالنافع من ثقافة الغرب ، مع الحفاظ على ثقافة الإسلام ، كالدار القائمة على السفح ، تترفع عن وخامة السهل ، وتنزل عن وعورة الجبل ، وخير الأمور الوسط .

وكنت أقرأ أسماء هؤلاء الأعلام ، سليمان الندوي أعلم علماء السيرة في هذا العصر ، وأحد أعاظم المؤلفين فيها على مدى العصور ، ومسعود الندوي رحمه الله ، وأبي الحسن الندوي ، وتلاميذه ، محمد الندوي ، اجتباء الندوي ، فكنت أظن أنهم أبناء أسرة واحدة ، ثم علمت أنهم إنما ينتسبون إلى الندوة ، وإنها هي أسرتهم وأن صلة العلم والأدب أقرب فيهم من صلة القرابة والنسب .

* * *

عشت في الندوة أياماً ، ذقت فيها متعة النظر ، بمنظر نهرها وبساتينها ، وراحة الأعصاب ، وبهدوئها وسكونها ، ولذة التفكير ، بالرجوع إلى مكتبتها ، وعَبَبْتُ السعادة عباً بصحبة هؤلاء الأخوة الكرام ، المسلمين حقاً ، الطيبين المخلصين ، الذين أحسست وأنا معهم كأني رجعت إلى التاريخ ، فعشت مع

المسلمين في الصدر الأول: أساتذة الدار وطلابها.

وقلت، هاهنا المقيل، فيا ليتني أحطُّ هاهنا الرحال، ويا ليتني أعيش هنا، وماذا أبتغي فوق ما أجد فيها؟ وهل بعد هذا المنظر الجميل، وهذه المكتبة الحافلة، وهؤلاء الصحب الأخيار، وهل بعد جوار أبي الحسن في بلده، متعة تبتغى أو نعمة تطلب؟

إن في الندوة لذات الدنيا، وحسن ثواب الآخرة إن شاء الله، والذين يعرفون أبا الحسن كثيرون، ولكنهم رأوه في سياحاته، فعرفوه من أدبه وكتبه ومحاضراته، أما أنا فعرفته في بلده فعرفت كيف يكون برّ الصديق، وعطف الأخ، وكرم المضيف.

* * *

وأنا أكتب هذه المقدمة وأدفعها إلى المطبعة وما يعلم أبو الحسن ماذا أقول فيها، ولو اطلع عليها قبل نشرها، لما تركني أمدحه صادقاً بما هو فيه، لأن ما في طبعه من الحياء، يمنعه من قبول الثناء.

* * *

وبعد فأنا أكرر الاعتذار، فما هذا الذي كنت أنوي أن أقوله

ولكن هذه المقدمة جاءت كما قلت في أزمة شتتت فكري ، فلم أقدر على أكثر من هذا الكلام المشتت .

ولا يضر أبا الحسن ألاَّ تكون مقدمة كتابه العظيم ، عظيمة مثله ، وما ينفعه وجودها ، ولا يضره عدمها ، ولكنه طلب فلم أملك إلاَّ الإجابة .

ومن فاته أن يستمتع وينتفع بما كتبت هنا ، فسيجد المتعة كلها والنفع كله فيما كتب المؤلف في الكتاب .

دمشق ، رجب سنة ١٣٨١ هـ

علي الطنطاوي

دور المسلمين في حضارة الهند

سأتحدث في هذا المقال عما حمله المسلمون إلى هذه البلاد مع دخولهم كدعاة مرشدين ، أو غزاة مجاهدين ، أو ملوك فاتحين ، أو علماء محققين ، من خيرات وحسنات وتحف وطرف ، وعن بعض ما أضافوه إلى ثروتها الدينية والعلمية والخلقية والاجتماعية والصناعية والمدنية في عهدهم الطويل الجميل الزاهر .

دخل المسلمون في هذه البلاد حيناً بدافع ديني مجرد من كل مصلحة ومنفعة ليحملوا إلى أهلها رسالة الإسلام الرحيمة العادلة ، وليخرجوا الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، وليضعوا عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، كما فعل أولئك الدعاة المخلصون الذين ارتمى في أحضانهم مئات ألوف من الأشقياء والمعذبين ، وأحبوهم أكثر من آبائهم وأولادهم كالسيد علي الهجويري ، والشيخ معين الدين الأجميري ، والسيد علي بن الشهاب الهمداني الكشميري .

ودخلوها حيناً آخر كغزاة فاتحين ، وملوك طامحين ، كالسلطان محمود الغزنوي ، وشهاب الدين محمد الغوري ، وظهير الدين بابر التيموري مثلاً ، كانوا مؤسسي دولة عظيمة ازدهرت مدة طويلة ، وخدمت البلاد ، وتقدمت بها في نواحي الحياة المختلفة .

وكان كل من هؤلاء وأولئك مصمماً على الإقامة في البلاد ، أو على الاتصال بها اتصالاً مباشراً مستمراً ، يعتقد أن الأرض لله يورثها من يشاء ، و أن كل ما كان لله من أرض وبلاد فهو للمسلم عن طريق الخلافة والوصاية العالمية التي كلف بها المسلمون ، فكانوا ينظرون إلى هذه البلاد كوطن ، ومدفن ، ومسكن ، لا يبغون عنها حولاً ، فكانوا يخدمونها بكل ما أوتوه من ذكاء ونبوغ ، وقوى ومواهب ، وكانوا يعتقدون أن كل ما يضيفونه إلى ثروتها ، إنما يضيفونه إلى ثروتهم ، ويحسنون إلى أنفسهم وأجيالهم القادمة ، لأنهم أهل البلاد وأمة المستقبل ، فكان نظرهم إلى البلاد يختلف بطبيعة الحال عن نظر الأوربيين المستعمرين ، الذين يجلبون خيراتها إلى بلادهم الخاصة ، ويحلبون البلاد كبقرة مستعارة لا تقيم عندهم ، ولا يجدون من بعد إليها سبيلاً ، وذلك سر عناية المسلمين بهذه البلاد ، وحرصهم على تقدمها ورفاهيتها .

دخل المسلمون في الهند وهي تعتز بحضارة أصيلة عريقة في

القدم ، وفلسفة عميقة ، وعلوم رياضية دقيقة ، وخيرات عظيمة من حبوب وثمار وفواكه ، ومواد خامة ، ولكنها كانت ـ على كل ذلك ـ تعيش منذ قرون في عزلة عن العالم ، قد فصلتها عن بقية الإنسانية الجبال في جانب ، والبحار في جانب آخر ، وكان آخر من دخلها من العالم المتمدن هو الإسكندر الكبير.

وهكذا انطوت هذه الأمة العظيمة على نفسها ، وعاشت قروناً طويلة في عالم محدود محصور ، لا تستورد شيئاً من الأفكار والديانات ، والنظم والصنائع والعلوم من الخارج ، ولا تصدر إليه شيئاً.

دخل المسلمون الهند وهم أرقى أمة في الشرق ، بل في العالم المتمدن المعمور في ذلك العهد ، يحملون ديناً جديداً ، سائغاً معقولاً ، سهلاً سمحاً ، وعلوماً اختمرت وتوسعت ، وحضارة تهذبت ورقت حواشيها ، يحملون معهم محصول عقول كبيرة كثيرة ، ونتاج حضارات متنوعة متعددة ، يجمعون بين سلامة ذوق العرب ، ولطافة حس الفرس ، وفروسية الترك ، وكانوا يحملون للهند وأهلها غرائب كثيرة وطرفاً غالية.

وكان أغرب ما كانوا يحملون في الدين ، توحيد الإسلام النقي ، الذي لا يرى الوساطة بين العبد وربه في العبادة والدعاء ، ولا يعترف بالآلهة والمظاهر والظلال وحلول الله ـ جل وعلا ـ في بعض البشر وظهوره فيهم ، ويؤمن بالإله الواحد

الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، له الخلق والأمر ، وله الكبرياء في السموات والأرض.

يقول الباحث الهندي المعروف (K.M.Paikkar) وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية في عقلية الشعب الهندي ، ودياناته:

من الواضح المقرر أن تأثير الإسلام في الديانة الهندوكية كان عميقاً في هذا العهد (الإسلامي) ، أن فكرة عبادة الله في الهنادك ، مدينة الإسلام ، أن قادة الفكر والدين في هذا العصر وإن سموا آلهتهم بأسماء شتى قد دعوا إلى عبادة الله ، وصرحوا بأن الإله واحد ، وهو يستحق العبادة ، ومنه تطلب النجاة والسعادة ، وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلامي كديانة (Bhagti) ودعوة «كبير داس»[١][٢].

أما في الاجتماع فكان أعجب ما حمله المسلمون معهم هي المساواة الإنسانية التي لم يكن للهند عهد بها ، فلا نظام طبقات ، ولا منبوذ ، ولا نجس بالولادة ، ولا جاهل يحرم عليه

(١) شاعر متصوف ينتقد المجتمع الهندي ويدعو إلى الإصلاح ، اختلف الناس في ديانته.

(٢) A Survey of Indian History p.132

التعليم ، ولا تقسيم أيد للحرف والصناعات ، يعيشون معاً ويأكلون جميعاً ، ويتعلمون سواء ، ويختارون ما يشاؤون من الحرف والصناعات ، وقد كانت صدمة عنيفة للذهن الهندي ، والمجتمع الهندي ، ولكن لا شك أنها أفادت الهند كثيراً ، ولطفت من شدة النظام الطبقي السائد ، وكان باعثاً قوياً على رد الفعل ضد النظام الطبقي ، وحافزاً للدعاة إلى الإصلاح الاجتماعي ، ولنسخ اللمس المنبوذ.

وقد قرر هذه الحقيقة التاريخية جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند سابقاً إذ قال:

«إن دخول الغزاة الذين جاؤوا من شمال غرب الهند ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند ، إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي ، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند ، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ويعيشون فيها ، أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً ، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندي المساواة ، والتمتع بالحقوق الإنسانية»[١].

وكانت الهدية الثالثة احترام المرأة والاعتراف بحقوقها

---

(١) Discovery of India p.p.335 -526

وكرامتها ، كعضو محترم من أعضاء الأسرة الإنسانية وشقيقة الرجل ، وعظمة هذه الهدية في بلاد كانت السيدات يحرقن أنفسهن بالنار على وفاة أزواجهن ، ولا يرين ولا يرى المجتمع لهن حقاً في الحياة بعد الأزواج، أقول: إن عظمة هذه الهدية في مثل هذه البلاد واضحة لا تحتاج إلى تعليق.

وقام الملوك ورجال الحكم المسلمون بدورهم في إصلاح الطقوس والعادات المتبعة في الهند، وخاصة إصلاح تقليد ما يسمى «ستي» وهو إحراق الأرملة نفسها أثناء عملية إحراق جثمان زوجها الميت ، وذلك بدون أن يلحقوا بالمعتقدات الدينية والطقوس الهندية أي إساءة ، أو انتهاك حرمة ، فكتب الرحالة الشهير الدكتور برنير الذي زار الهند في عهد شاهجهان:

«لقد هبط عدد حوادث «ستي» نسبياً ، لأن المسلمين الذين يحكمون هذه البلاد يبذلون أقصى جهدهم للقضاء على هذا التقليد الوحشي ، ولو أنهم لم يسنوا أي قانون لمنع هذه الحادثة من الوقوع ، لأنهم لا يهدفون في نظام حكمهم إلى التدخل في شؤون الهنادك الدينية ، بل إنهم يسمحون لهم بالقيام بأداء واجباتهم الدينية وطقوسهم ، ويوفرون لهم كل حرية ، لكنهم يحاولون إيقاف تقليد «ستي» بطرق غير مباشرة ، فلا تستطيع أي امرأة أن تقدم نفسها لـ«ستي» إلا بإذن من حاكم الولاية ، أما الحاكم فإنه لا يسمح لها به إلا إذا تأكد أنها لن تمتنع عن عزمها

بأي حال من الأحوال ، ويحاول حاكم الولاية إقناع المرأة وحملها على العدول عن إرادتها ، وينفرها ، ويوعدها ، ويمنيها كذلك ، وعندما تخفق هذه المحاولات ، ولا تثمر عملية الإقناع والوعيد يرسلها إلى حرمه ، لكي تنضم إلى عقيلات الحرم ، فتقلع عن إرادتها ، بإقناعهن ، ولكن رغم جميع هذه التدابير لا تزال حوادث «ستي» تحدث بكثرة ، وخاصة في مناطق الرجالات ، والأماكن الخاضعة لنفوذهم ، حيث لا يحكم المسلمون»[1] .

نقل المسلمون إلى الهند علوماً جديدة كذلك ، من أجلها وأنفعها ـ إذا تركنا العلوم الإسلامية التي لا تتوقع من الهند ـ علم التاريخ ، فقد كانت البلاد فقيرة في التاريخ ، ليس في مكتبتها كتاب تاريخ بالمعنى الصحيح ، إنما هنالك صحف دينية أو ملاحم مقصورة على حرب ، أو عهد ، مثل «مهابهارت» أو«رامائن» أما المسلمون فقد كونوا في التاريخ مكتبة هائلة من أوسع المكتبات التاريخية في العالم ، ولنظرة في كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة السيد عبد الحي الحسني ، تخبر بما كان بهم من نشاط غريب ، وإنتاج ضخم في تاريخ الهند ، وفي تاريخ الأمم .

---

(١) رحلة الدكتور برنير ، ج٢ ص١٧٢ .

قال غوستاف لوبون في «حضارة الهند»:

«لا يوجد تاريخ للهند القديمة ، فلا تضم كتبهم حوادث تاريخية كلياً ، وكذلك لا يمكن الوصول إلى نتيجة بدراسة أبنيتهم وآثارهم التاريخية ، فإنها لا تلقي الضوء ، لأنه لا يتجاوز عهد أقدم بناية لهم القرن الثالث قبل الميلاد ، وعلاوة على بضعة كتب دينية دفنت فيها بعض حوادث تاريخية ، كأساطير وقصص ، يعسر جداً معرفة أحوال الهند القديمة ، كما يعسر معرفة أحوال جزيرة «اتلانطس» الخيالية التي ذكرها أفلاطون أنها دمرت في انقلاب أرضي.

ثم قال بعد أن حدث أن ويدا ، ورامائن ، ومهابهارت ، تلقي بعض الضوء على أحوال هذه البلاد:

«فالحق أن دور الهند التاريخي لم يبدأ إلا بعد المغازي الإسلامية في القرن الحادي عشر بفضل مؤرخي المسلمين».

وقد اكتسبت الهند من المسلمين بصفة عامة توسعاً في الخيال ، وجدة في التفكير ، ومعاني جديدة في الأدب والشعر ، لم تكن تخطر على بال ، لولا عملية التوليد العقلي ، والتلقيح الفكري والأدبي ، وكان مما منح المسلمون الهند هذه اللغة الجميلة الواسعة التي أصبحت لغة التفاهم ، ولغة العلم

في الهند ، التي عرفت بكثرة اللغات واللهجات ، أعني لغة أردو .

وكان تأثير المسلمين في المدنية والصناعة وأساليب الحياة أبرز وأقوى منه في نواح أخرى ، فقد أدخلوا في هذه البلاد حياة جديدة تختلف عن الحياة القديمة في هذا القطر ، كما تختلف الحياة في أوربا اليوم عن الحياة في القرون الوسطى .

وإذا أردنا أن نعرف ما أضافه المسلمون إلى ثروة هذه البلاد ومدنيتها ، يجب علينا أن نستعرض الهند وثروتها ، ومدنيتها وحاصلاتها ، ومرافقها ومستوى المعيشة فيها قبل أن يتمكن المسلمون من بناء مدنية جديدة ، وإقامة حضارة هندية إسلامية ، وإتحاف هذه البلاد بما عرفوه وألفوه من مرافق الحياة ورقائق المدنية ، وقد ترك لنا مؤسس الدولة المغولية العظمى ظهير الدين محمد بابر (٨٨٨ ـ ٩٣٩هـ) صورة واضحة عن مدنية الهند ، وثروتها الطبيعية والصناعية ، والمستوى الذي كانت عليه هذه البلاد عند غزوه لها ، ولا يخفى أن اليد الإسلامية الصناع الحاذقة ظلت تشتغل مدة قبل الهجوم المغولي ، يقول بابر في مذكراته[١] :

---

(١) كتبها بابر في اللغة التركية في أسلوب أدبي رفيع ، ونقلها إلى الفارسية الأديب التركي والشاعر الكبير قائد قواد الدولة المغولية=

«لا وجود للخيل العتاق ، ولا يوجد من الفواكه العنب والبطيخ ، والأثمار الطيبة ، الثلج مفقود ، والماء البارد قليل نادر ، والحمام لا يوجد ، والمدارس لا يعرفها أهل الهند ، والمشكاوات والشموع لا وجود لها ، وكذلك الفوانيس ، ويستعملون مكانها خشبة ذات ثلاثة أرجل تحمل إحدى أرجلها حديدة مركبة بها ، وفي الرجل الثانية فتيلة ضعيفة ، وفي يدها اليمنى قرع (دباء) له ثقب صغير ينزل منه الزيت على الفتيلة ، وبهذه المشكاة الوسخة يستعين الملوك والأمراء عند الحاجة في الليل.

أما الحدائق والأبنية فلا توجد فيها عيون متدفقة ومياه جارية ، ولا تتمتع هذه الأبنية بالنظافة والهواء والتناسب ، وأكثر أفراد الشعب يمشون حفاة ويكنسون بخرقة ، والنساء يتزرن بالإزار يلقين طرفاً منه على الرأس[١].

ومعلقاً على ما سجله المؤسس الكبير لأعظم حكومة في الهند من ملاحظات وانطباعات عن هذه البلاد ، يقول جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند في كتابه (Discovery of India) :

«من خلال التاريخ الذي ألفه بابر ، نرى فقر الحضارة الذي

= الأمير عبد الرحيم بيرم خان ، وطبعت في بمبئى (الهند).

(١) «توزك بابري» مذكرات ظهير الدين بابر ، الترجمة الفارسية.

كان مسيطراً على الهند الشمالية ، ومرجع ذلك التدهور الذي كان نتيجة هجوم تيمور ، وبسبب أن كثيراً من العلماء والفنانين والصناع نزحوا من شمال الهند إلى جنوبها ، ومن أسباب هذا الانحطاط أن منابع الإبداع والابتكار في أهل الهند قد نضبت ، يقول بابر : «إن البلاد ليست فقيرة في وجود الصناع الحاذقين ، ولكن اختراعات أهل الهند تخلو من الذكاء والفطانة» إن سقوط الحضارة الهندية في شمال الهند واضح لا خفاء فيه ، إن العقائد المرسومة والمجتمع المتزمت قد منعا عن الإصلاح الاجتماعي والتقدم»[١] .

كانت البلاد ـ رغم خصبها وغناها ـ قليلة الفواكه والثمار ، وأكثرها برية لم تلق العناية اللازمة ، حتى جاء المغول وهم أصحاب ذوق رفيع ، وأبناء بلاد كثيرة الفواكه والأثمار ، فأدخلوا عليها ثماراً جديدة وفواكه كثيرة ، يعرفها المستقصي من كتاب «توزك بابري» و«توزك جهانكيري» وقاموا بعملية التلقيح والتهذيب لبعض الثمار الهندية ، حتى جاء أشهى وألذ وألطف ، كما كان الشأن مع «المانجو» أشهر فواكه الهند وألذها وأفضلها ، فلم يكن يوجد منه إلا ما ينبت بالبذر ، فلقحوه حتى جاء ما يسمونه في الهند «قلمي» وكان منه أنواع في العهد الأخير ، لعلها تزيد على مئة نوع .

---

(١) الجزء الأول ص٥١٠ (Discovery of India) .

كذلك كان إنتاجهم عظيماً في صناعة القماش والمنسوجات وقد كان أغلب لباس أهل الهند الكرباس والقطن الثخين العادي والصوف الخام.

وقد أنشأ ملك كجرات السلطان محمود بن محمد الكجراتي المشهور باسم محمود بيكره (م ٩١٧هـ) مصانع كثيرة للنسج والوشي والتطريز والنحت، ومصنوعات العاج والمنسوجات الحريرية، وصناعة الورق، وقد كان السلطان محمود هذا ملكاً عمرانياً كبيراً، أحدث نشاطاً صناعياً وزراعياً وتجارياً منقطع النظير في تاريخ ذلك العصر، يقول مؤرخ الهند العلامة السيد عبد الحي الحسني في ترجمته في «نزهة الخواطر»:

«ومن مكارمه قيامه بتعمير البلاد وتأسيس المساجد والمدارس والخوانق، وتكثير الزراعة، وغرس الأشجار المثمرة، وإنشاء الحدائق والبساتين، وتحريض الناس على ذلك، وإعانتهم بحفر الآبار وإجراء العيون، ولذلك أقبل عليه الناس إقبالاً كلياً، ووفد عليه البناؤون والمعمارون وأهل الحرف والصنائع من بلاد العجم، فقاموا بحرفهم وصنائعهم، فصارت كجرات رياضاً مخضرة بكثرة الحياض والآبار والحدائق والزروع والفواكه الطيبة، وصارت بلاد كجرات متجرة تجلب منها الثياب الرفيعة إلى بلاد أخرى، وذلك كله لميل سلطانها

محمود شاه إلى ما يصلح به الملك والدولة ويترفه به رعاياه»[١] .

وكذلك فعل «أكبر» وأنشأ معامل كبيرة للنسيج ، وقد كانت لهم إصلاحات دقيقة عظيمة التأثير في تعيين الضرائب على حسب الأراضي ، ومساحة العقارات والمزارع وتنظيمها وتشريعات مضبوطة ، وتنظيم المالية وإصلاح نظام النقود ، لم يكن للحكومات الهندية السابقة عهد بها ، قد كان لشير شاه السوري الملك المقنن والإداري العبقري فضل التقدم والابتكار ، وتبعه «أكبر» .

وكذلك كان للحكومات الإسلامية فضل في تربية الحيوانات واقتنائها ، وترقية نسلها وتربية أجسامها ، يظهر ذلك في مذكرات جهانكير «توزك جهانكيري» وكتب التاريخ مثل «آئين أكبري» .

أما تأسيس المستشفيات (المارستانات) ودور العجزة ، والحدائق العامة والمنتزهات ، والترع الكبيرة والبرك العظيمة ، فقد كان من محاسن الدول الإسلامية التي لم تسبق إليها ، وفي كتاب «جنة المشرق» وهي «خطط الهند»[٢] للعلامة عبد الحي

---

(١) «نزهة الخواطر» الجزء الرابع ، ترجمة السلطان محمود بن محمد الكجراتي ص٣٤٥ .

(٢) طبع الكتاب باسم «الهند في العهد الإسلامي» ، (لأنه أدل على =

الحسني قائمة طويلة بأسماء المستشفيات والمؤسسات الخيرية ، والمشاريع المدنية التي نشأت في عصور الدول الإسلامية المختلفة .

وكذلك الشوارع الطويلة التي تجمع بين شرق الهند وغربها ، وتمتد على طول الهند وعرضها ، كانت من إنشاء الملوك المسلمين ، اشتهر منها الشارع الطويل الذي أنشأه شير شاه السوري من سنار كاؤن أقصى بلاد بنغال (في باكستان الشرقية)[١] إلى ماء نيلاب من أرض السند(في باكستان الغربية) مساحته اثنتان وثلاثون وثمانمئة وأربعة آلاف (٤٨٣٢ كم) وأسس في كل ثلاثة كيلو مترات رباطاً ، ورتب هناك مائدتين ، مائدة للمسلمين ومائدة للهنادك ، وأسس مسجداً على كل ثلاثة كيلو مترات ، ووظف مؤذناً ومقرئاً وإماماً في كل مسجد ، وعين في كل رباط فرسين للبريد ، فكان يرفع إليه أخبار نيلاب إلى أقصى بلاد بنغال كل يوم ، وغرس الأشجار المثمرة بجانبي الشارع ليستظل بها المسافر ويأكل منها .

وعلاوة على ذلك فقد كان مما أدخله المسلمون ونقلوه من الخارج إلى الهند: النظافة الزائدة ، والأناقة في كل شيء ،

= موضوع الكتاب) من دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر آباد .

(١) بنغلاديش حالياً .

والظرافة في المأكل والمشرب ، والبناء والاجتماع ، والاحتفاظ بأصول الصحة ، وتهوية البيوت وتنويرها ، والتأنق في الأواني ، فقد كان أهل الهند ـ ولا يزال كثير منهم ـ يأكلون على أوراق الشجر ، خصوصاً في الولائم الكبيرة ، وقد أحدث المسلمون انقلاباً عظيماً في المجتمع ، وفي الحياة المنزلية ، وفي نظام تأثيث البيوت .

وكذلك أدخلوا فناً معمارياً جديداً يمتاز بالمتانة والدقة ، والرقة والجمال والتناسب ، والفخامة ، والتهوية والتنوير ، ولا يزال «تاج محل» آية في الهندسة والبناء ، وذكرى عهد المسلمين الزاهر ، ودليلا ناطقاً على ما بلغوا إليه من رقة الذوق ولطافة الحس ، والإبداع في الفن .

وقد اعترف جواهر لال نهرو في كتابه «العثور على الهند» (Discovery of India) بتأثير المسلمين الواسع العميق في العقلية الهندية وفي المجتمع الهندي ، وتأثيرهم في حضارة هذه البلاد ، يقول :

«إن دخول الإسلام والشعوب المختلفة في الهند التي حملت معها أفكاراً طريفة وأساليب مختلفة للحياة ، قد أثرت في عقيدتها وأثرت في هيئتها الاجتماعية ، إن الفتح الأجنبي ـ على علاته وما فيه من مساوىء ـ لا يخلو من فائدة ، وهي أنه يوسع

أفق الشعب المفتوح الفكري ، ويضطره إلى الخروج من الحصار الفكري الذي أقامه حوله ، وبذلك يبدأ أفراده يفهمون أن الدنيا أوسع وأكثر اختلافاً وتنوعاً مما كانوا يتصورون ويعتقدون ، وهكذا أثر الفتح الأفغاني في الهند ، وظهرت تطورات كثيرة في حياتها ، وكانت هذه التطورات أكثر وأعمق بعد دخول المغول في الهند ، لأنهم كانوا أكثر ثقافة وأرقى من الأفغان ، وقد نشروا في الهند الأناقة التي كانت من خصائص إيران»[1] .

وقد اعترف بذلك أحد قادة حركة التحرير في الهند ورئيس المؤتمر الوطني سابقاً (Pattabhai Sita Ramayya) في خطبته التي ألقاها في حفلة المؤتمر الوطني الهندي في «جي بور» فقال :

«إن المسلمين أغنوا ثقافتنا ، إنهم قووا إرادتنا ، وقربوا أجزاء البلاد البعيدة بعضها إلى بعض ، لقد كان تأثيرهم عميقاً في آداب البلاد وحياتها الاجتماعية»[2] .

الخدمات الطبية :

وكان من فضل المسلمين وحكوماتهم المتتالية على الهند أن نالت هذه البلاد المكانة المرموقة في العالم المتمدن والراقي ، فجنت البلاد فوائد كثيرة في مجال العلم والطبيعة ، منها ذلك

(١) الجزء الأول ص٥١١ (Discovery of India).

(٢) خطبة المؤتمر الهندي الوطني.

النظام الطبي والمعالجة الذي كان أرقى نظام للطب في ذلك العصر قبل انتشار الطب الجديد ، وكان هذا الطب الذي كان منظماً ومدوناً واسع الانتشار في معظم أنحاء العالم يعرف بالطب اليوناني ، ولكن يصح أن يسمى باسم «الطب العربي» وكانت إيران والعراق وتركستان في عهود رقيها من مراكز هذا العلم ، وهي التي أنجبت أعلاماً في هذا العلم ونوابغه في القرون الوسطى ، وجذبت الهند أفواجاً من رجالات هذا العلم وحاملي لوائه ، حين انتهت إليهم روايات التشجيع المادي الذي كان يناله العلماء ورجال الفن من البلاط الهندي ، وبدأ هذا الاتجاه في القرن السابع للهجرة ، واستمر إلى القرن الثاني عشر تقريباً ، فوصل هذا الفن ذروته وكماله في الهند بفضل جهود الحكماء المجتهدين في الفن ، والضيوف الحذاق ، وتلامذتهم الراسخين في العلم ، والأطباء العباقرة وانهماكهم العميق وعكوفهم على خدمة فنهم ، وسمة خدمة الخلق فيهم ، فانكمش أمام العلم سائر طرق العلاج القديمة ، ولم يخل بلد ولا قرية من الأطباء اليونانيين.

وقد كان هذا الطب رخيصاً كذلك كما كان ميسراً في متناول يد الجميع وملائماً لطقس الهند ومناخها وطبيعة الهنود ، وكان مع ذلك أرقى طريقة للعلاج في ذلك العصر وأوسعها ، فنال قبولاً عاماً في مدة يسيرة ، وانتشر بسرعة ، فأدى خدمة جليلة

وإسعافاً طبياً ذا قيمة كبيرة بالنسبة لسكان هذه البلاد الذين كان يغلب عليهم الفقر وقلة الوسائل بصفة عامة[١] ، وقد استفاض أطباء الهند في الفن ونوعوه ووسعوه ، وكانت دلهي ولكهنؤ مركزين رئيسيين في آخر العهد الإسلامي ، وأصبحت الهند الآن المركز الوحيد لهذا الطب ، ويرجع إليها فضل بقائه ووجوده .

يقول الدكتور هنتر الذي يعتبر من كبار الحاقدين على الشعب الإسلامي الهندي وعواطفه الإسلامية :

«إن المسلمين قد أنشؤوا مستعمرات في جنوب الهند ، الأراضي التي أحبوها وعمروها ، وإذا قيض لسائح أن يتجول في هذه المنطقة استرعى انتباهه البرك التي يسقى بها الزرع ، والمساجد والرباطات والأحواض والزوايا التي أنشؤوها في غابات موحشة لم يكن بها عمران .

وقد ظل المسلمون ينشرون دينهم نادراً بالسيف وغالباً بتأثير عاطفتين قويتين أن الهنادك لم يسمحوا للشعوب القديمة التي كانت تسكن عند منبع الكنج بالدخول في مجتمعهم ، أما المسلمون فقد قدموا جميع الحقوق الإنسانية لطبقة البراهمة والمنبوذين سواء بسواء ، إن هؤلاء الدعاة المتحمسين أعلنوا في

(١) راجع كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» للتفصيل في الموضوع ، ومعرفة أسماء الأطباء المشهورين وخدماتهم.

كل مكان أن كل واحد يجب عليه أن يخضع لله الواحد العلي ، وأن البشر كلهم سواء عنده ، لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى ، وأن الله قد خلقهم كذرات التراب»[١].

وقد ذكر مؤرخ الهند الكبير المشهور بمؤلفاته السائرة وكتبه المقررة في الجامعات «جادو ناتها سركار» في مقالاته بالإنجليزية التي ظهرت في مجلة كلكته «الهند الواعية» بعنوان «الإسلام في الهند» عشراً من هبات الإسلام للشعب الهندي ، منها ما تقدم في مقالنا والذي زاده هذا المؤرخ الكبير ونذكره هنا: الأولى: صلة الهند بالعالم الخارجي. والثانية: وجود الوحدة السياسية والوحدة في اللباس والحضارة خصوصاً في الطبقات الراقية. والثالثة: وجود لغة رسمية إدارية وأسلوب من النثر الفني الذي ساهم في تهذيبه وترقيته المسلمون والهنادك. والرابعة: تقدم لغات إقليمية في ظل الحكومة المركزية لوجود السلام والرفاهية في البلاد ، وازدهار آدابها وانتشارها. والخامسة: تجديد التجارة عن طريق البحار التي كانت توقفت وفقدت منذ مدة طويلة ، والتي كان يقوم بها أهل الجنوب في الزمن القديم. والسادسة: إنشاء بحرية للهند.

ونختم هذه المقالة الوجيزة بكلمة لكاتب عصري فاضل وهو

(١) مسلمو الهند (W.W. Hunter our India Muslims).

يقول في كتابه N.C.Mehta I.C.S.: Indian Civilization and Islam «الحضارة الهندية والإسلام»:

«إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلاً من نور قد انجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الإنسانية في عصر مالت فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلي، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية، لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة، شأنه في الأقطار الأخرى، لقد كان من سوء الحظ أن ظل تاريخ الإسلام في هذا القطر مرتبطاً بالحكومة فبقيت حقيقة الإسلام في حجاب، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مختفية عن الأنظار».



تـراث العلماء المسلمين العلمي في الهند(١)
وعنايتهم باللغَة العَربيّة

كان المسلمون في الهند أوفياء لوطنهم ، لا يتشاغلون عن خدمته والتقدم به في ميادين العلم والصناعة والمدنية ، أوفياء لدينهم وثقافتهم الإسلامية العربية ، لا يتخلفون عن ركبها ولا ينقطعون عنها ، وقد نراهم في بعض فترات التاريخ في مقدمة القافلة ومأخذ الزمام.

---

(١) اقتصرنا في هذا الفصل على الحديث عن أهم المؤلفات التي ألفت في الهند قبل التقسيم وما ألفت في الهند خاصة بعد التقسيم، ولم نتعرض لذكر المؤلفات التي ألفت ونشرت في باكستان والتي تستحق أن ينوه بها بعد قيام باكستان لأن معلوماتنا عنها محدودة ، وفي باكستان من العلماء والكتاب من يستطيع أن يضطلع بعملية التعريف والإشادة والتنويه ، وأهل البيت أدرى بما فيه.

إن الجمع بين الثقافتين اللتين تتناقضان كثيراً وتلتقيان قليلاً ، وإن الوفاء لوطنين ـ مادي وروحي ـ مهمة عسيرة ، لا نعرف شعباً من شعوب الإسلام كلف نفسه بها ثم نجح نجاح مسلمي الهند.

إن مؤلفات المسلمين في الهند في العلوم الإسلامية لا تحصى كثرة ، وذلك موضوع كتاب كبير ، ككتاب الفهرست لابن النديم ، أو كشف الظنون للجلبي ، وجولة في كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» تدل على مركز الهند العلمي وقسط علمائها ومؤلفيها في حركة التأليف والنشر ، وأقتصر هنا على الكتب التي تخطت شهرتها الهند وسارت بها الركبان ، واحتفى بها علماء الغرب ، وأخص منها أولاً ما ألف باللغة العربية.

من هذه الكتب العالمية ، كتاب «العباب الزاخر» للإمام حسن بن محمد الصغاني اللاهوري ، من رجال القرن السابع الهجري ، الذي عد من مراجع اللغة العربية ، وغرر كتبها ، وقد اعتنى بها أئمة اللغة قديماً وحديثاً ، واعترفوا له بالدقة والإتقان وغزارة المادة ، واعترفوا لصاحبه بالفضل والإمامة في هذا الشأن ، قال السيوطي : إنه كان حامل لواء اللغة ، وقال الذهبي : إن إليه المنتهى في اللغة ، وقال الدمياطي : إنه كان إماماً في اللغة والفقه والحديث ، وكذلك كتابه «مشارق الأنوار» في الحديث

من الكتب المشهورة المقبولة في العالم الإسلامي ، وقد ظل مدة طويلة من كتب التدريس .

ومنها «كنز العمال»[١] للشيخ علي بن حسام الدين المتقي البرهانفوري (م ٩٧٥هـ) وهو ترتيب «جمع الجوامع» للسيوطي[٢] ، وهو من الكتب التي انتفع بها علماء الحديث كثيراً ، واعترفوا لصاحبه بمجهود عظيم وفر عليهم وقتاً كبيراً وأغناهم عن مراجعات كثيرة ، قال الشيخ أبو الحسن البكري الشافعي من أئمة العلم في الحجاز في القرن العاشر : «إن للسيوطي منة على العالمين وللمتقي منة عليه» .

ومنها كتاب «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار» للشيخ محمد طاهر الفتي[٣] (م ٩٨٦ هـ) قال العلامة

---

(١) قد طبع هذا الكتاب للمرة الأولى في دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، ونال قبولاً عاماً في العالم الإسلامي .

(٢) إن «جمع الجوامع» أوفى مجموعة للأحاديث والروايات ، وخزانة كبيرة لها، ولم يراع المؤلف في هذا الكتاب أي ترتيب فقهي أو معنوي ، فإذا كان الحديث قولياً فلا بد في البحث عنه من رعاية الكلمات البدائية ، وإذا كان فعلياً فلا بد لمعرفته من معرفة اسم الراوي ، وقد رتب العلامة علي المتقي ذلك باعتبار الأبواب والفصول ، وجعله أوسع فائدة وأعمها .

(٣) «فتن» : تقع في كجرات ، ولا تزال بلدة عامرة ، تقع على بعد =

السيد عبد الحي الحسني في «نزهة الخواطر»: جمع فيه المؤلف كل غريب الحديث وما ألف فيه، فجاء كالشرح للصحاح الستة، وهو كتاب متفق على قبوله بين أهل العلم منذ ظهر في الوجود، وله منة عظيمة بذلك العمل على أهل العلم، وكذلك كتابه «تذكرة الموضوعات» من الكتب السائرة المتداولة في الموضوع.

ومنها «الفتاوى الهندية» التي تعتبر من المراجع الفقهية الكبرى التي عليها العمدة في كثير من الأقطار الإسلامية التي تحكم بالفقه الحنفي، يقول صاحب «الثقافة الإسلامية في الهند»:

«أما الفتاوى العالمكيرية ويسمونها الفتاوى الهندية فهي من أجلها وأنفعها(أجل الفتاوى والمجاميع) في كثرة المسائل وسهولة العبارة، وحل العقد، وهي التي اشتهرت في بلاد العرب والشام ومصر القاهرة بالفتاوى الهندية، وهي في ستة مجلدات كبار رتبوها على ترتيب الهداية، واقتصروا فيها على

= ٦٨ ميلاً من «أحمد آباد» في شمال غربها، وتذكر في كتب التاريخ القديمة باسم «انهلوارد» وبالعربية تذكر باسم «نهزواله»، وكانت عاصمة ذات نفوذ كبير لحكومة قوية في القرن الخامس الهجري لكجرات، فتحها السلطان محمود الغزنوي في عام ٤١٦هـ، وفتحها السلطان قطب الدين أيبك من جديد في عام ٥٩٢هـ.

ظاهر الرواية ، ولم يلتفتوا إلى النوادر إلا إذا لم يجدوا جواب المسألة في ظاهر الرواية ، أو وجدوا جواب النوادر موسوماً بعلامة الفتوى ، ونقلوا كل عبارة معزوة إلى كتابها ولم يغيروا إلا لداعي الضرورة ، وقد ولى السلطان أورنك زيب عالمكير التيموري (أنار الله برهانه) الشيخ نظام الدين البرهانفوري ، في أوائل سلطنته تدوينها باستخدام الفقهاء الحنفية ، وبذل على تدوينها مئتي ألف روبية[١] .

وقد ذكر المؤلف أربعة وعشرين رجلاً من كبار علماء الهند في ذلك العصر ساهموا في تدوينها ، وكان أربعة منهم وهم القاضي محمد حسين الجونفري المحتسب ، والشيخ علي أكبر الحسيني أسد الله خاني ، والشيخ حامد بن أبي الحامد الجونفوري ، والمفتي محمد أكرم الحنفي اللاهوري ، قد تولوا أرباعها ، لكل واحد منهم الإشراف على ربع الكتاب .

ومنها كتاب «مسلم الثبوت» في أصول الفقه للعلامة محب الله بن عبد الشكور الحنفي البهاري المتوفى (١١١٩هـ) وقد رزق القبول العظيم في الأوساط العلمية المدرسية في الهند وبلاد الإسلام ، وتناوله كبار العلماء في عصورهم بالتدريس والشرح ،

---

(١) مئتا ألف روبية هندية تساوي نحو خمسة عشر ألفاً (١٥٠٠٠ من الجنيهات) وقيمتها في هذا العصر أكثر من مئة ألف جنيه.

وكانت له عشرة شروح لكبار الأساتذة الفضلاء في الهند.

ومنها كتاب «كشاف اصطلاحات الفنون» للشيخ محمد أعلى التهانوي من رجال القرن الثاني عشر، وهو كتاب عظيم النفع، تلقاه المشتغلون بالعلم في بلاد العرب بالقبول، وأثنوا عليه، لأنه كمعجم للمصطلحات العلمية يغني عن مراجعة آلاف من الصفحات ومئات من الكتب، وهذا موضوع لم يكن فيه كتاب كبير على شدة الحاجة إليه، ولا يزال المرجع الوحيد للفضلاء والمؤلفين والباحثين في هذا الشأن.

وفي هذا الموضوع كتاب آخر وهو «جامع العلوم» المشهور بدستور العلماء في أربعة مجلدات للشيخ عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري من رجال القرن الثاني عشر أيضاً.

ومنها بل من أعظمها كتاب «حجة الله البالغة» للإمام ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) في أسرار أحكام الشريعة وفلسفة التشريع الإسلامي وهو كتاب مبتكر في موضوعه لا يوجد له نظير في المكتبة العربية على سعتها، وقد أجله علماء هذا الموضوع وأعيد طبعه في مصر مراراً[١].

ومما يجب الإشارة إليه أن هذا الكتاب يتسم بنصاعة العربية

---

(١) اقرأ مزاياه وخلاصة ما جاء فيه في كتاب المؤلف «الإمام الدهلوي»، في سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع دار ابن كثير دمشق.

وقوة العبارة وانسجامها وبعدها عن السجع البارد وتقليد أسلوب الحريري الذي كان متفشياً في عصره ومصره ، وقلما نجا منه مؤلف وكاتب في القرون الأخيرة، وهو يعد بحق المثال الثاني للنثر الطبعي السلسال والتعبير العلمي العامر بعد مقدمة ابن خلدون في عصور انحطاط العربية وغلبة العجمة والصناعة على الكتاب والمؤلفين في العالم الإسلامي .

ومنها كتاب «تاج العروس في شرح القاموس» للسيد مرتضى بن محمد البلكرامي المشهور بالزبيدي (م ١٢٠٥ هـ) الذي هو أشهر من أن يعرف ، وهو مكتبة لغوية علمية عظيمة في عشرة مجلدات كبار ، وقد اشتهر أمر هذا الكتاب في حياة صاحبه فاستكتب منه الخليفة العثماني نسخة ، وسلطان دارفور نسخة ، وملك المغرب نسخة ، وطلب منه أمير اللواء محمد بيك أبو الذهب نسخة وجعلها في مكتبة مسجده الذي أنشأه بالقرب من الأزهر ، وبذل في تحصيله ألف ريال .

وقد نبغ في الهند في القرن الرابع عشر الهجري مؤلفون فاقوا في العالم الإسلامي كله في سرعة التأليف وكثرة المؤلفات وضخامة الإنتاج، وكان كل واحد منهم مجمعاً علمياً نشيطاً ، وقد قام بعضهم شخصياً بما لا تقوم به مجامع علمية في أكثر الأحيان ، فالأمير صديق حسن بن أولاد حسن القنوجي أمير بهوبال (م١٣٠٧هـ) يبلغ عدد مؤلفاته اثنين وعشرين ومئتي كتاب

(٢٢٢) منها ستة وخمسون (٥٦) كتاباً في اللغة العربية ، وفيها كتب كبار ذات قيمة علمية ، منها «فتح البيان في مقاصد القرآن» في عشرة مجلدات كبار ، وأبجد العلوم ، والتاج المكلل ، والبلغة في أصول اللغة ، والعلم الخفاق من علم الاشتقاق .

ويبلغ عدد مؤلفات علامة الهند فخر المتأخرين الشيخ عبد الحي بن عبد الحليم اللكهنوي (م١٣٠٤هـ) مئة وعشرة كتب (١١٠) منها ستة وثمانون (٨٦) كتاباً بالعربية ، من أشهرها وأجملها «السعاية في شرح شرح الوقاية» و«مصباح الدجى» و«التعليق الممجد» و«ظفر الأماني» ، ولا يزال كتابه «الفوائد البهية» عمدة المؤلفين في تراجم علماء المذهب الحنفي ومرجعهم الكبير .

ويبلغ عدد مؤلفات المصلح الكبير والمربي الشهير مولانا أشرف علي التهانوي(م١٣٦٢هـ) تسع مئة وعشرة (٩١٠) منها الصغير ، والكبير ، منها ثلاثة عشر كتاباً بالعربية .

وللعلامة محمود حسن خان التونكي (م١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م) كتاب عظيم سماه «معجم المصنفين» هو كدائرة معارف في هذا الموضوع في نحو ستين مجلداً ، تحتوي على عشرين ألفاً من الصفحات وعلى تراجم أربعين ألفاً من المصنفين ، وناهيك من سعة الكتاب واستقصائه أن فيه تراجم ألفين من المؤلفين كلهم يسمون أحمد ، وقد لخص في كتابه نحو ألف وخمسمئة من

الكتب ، وذكر كل من ترك بالعربية كتاباً منذ بدأ العهد التأليفي إلى سنة ١٣٥٠هـ وظهرت منه أربعة أجزاء، فقط طبعت في بيروت على نفقة حكومة حيدر آباد .

ومن كبار مؤلفي هذا العصر وكتابه العلامة الدكتور السيد سليمان الندوي (م١٣٧٣هـ)، الذي خلّف مكتبة كبيرة من مؤلفاته في السيرة النبوية والشريعة الإسلامية والتاريخ والأدب، ومجموع ما طبع يبلغ نحو ستة آلاف صفحة غير مقالاته وشذراته التي يكتبها في مجلة «معارف» التي تعتبر أرقى مجلة علمية في الهند ، وأجوبته وفتاواه العلمية ، وهو يستحق أن يعد من كبار المؤلفين في الهند والمحققين الباحثين في الشرق .

ومن كبار المؤلفين أيضاً الذين عرفوا بالاقتدار على التأليف وسيلان القلم وغزارة المادة وسعة المعلومات ، العلامة مناظر أحسن الكيلاني (م١٣٧٥هـ) صاحب «النبي الخاتم» و«تدوين الحديث» و«نظام الإسلام الاقتصادي» و«نظام التعليم والتربية» وغيرها ، وقد خلف مكتبة عامرة من مؤلفاته .

وقد عرف علماء الهند بشغفهم بالعلوم الدينية وانتهت إليهم رئاسة التدريس والتأليف في فنون الحديث وشرح متونه ومجاميعه ، وسلمت زعامتهم في هذا الموضوع في العهد الأخير حتى قال العلامة السيد رشيد رضا منشىء مجلة «المنار» في مقدمة «مفتاح كنوز السنة» :

«لولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر ، لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق ، فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة».

ولعلماء الهند في هذا العصر مؤلفات جليلة في فنون الحديث وشروح لأمهات كتبه تلقاها العلماء بالقبول ، منها «عون المعبود في شرح سنن أبي داود» للشيخ محمد أشرف الديانوي[١] ، و«بذل المجهود في شرح سنن أبي داود»[٢] للشيخ خليل أحمد السهارنفوري ، و«تحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي» للعلامة عبد الرحمن المباركفوري ، و«فتح الملهم في شرح

---

(١) ألف هذا الكتاب بتوجيه وإرشاد المحدث والعالم الكبير لولاية «بهار» الهندية الشيخ شمس الحق الديانوي أحد كبار تلامذة العلامة نذير حسين المحدث الدهلوي ، وكان الشيخ قد بدأ أولاً بشرح سنن أبي داود شرحاً بسيطاً مطولاً باسم «غاية المقصود» ولكنه لم يكمل الشرح فلم ينشر إلا الجزء الأول منه ، ثم أكمله تلميذه الشيخ محمد أشرف بإشارة منه فيما بعد.

(٢) طبع هذا الكتاب أولاً على الحجر في سهارنفور وفي سنة ١٣٤٢ هـ ثم أعيد طبعه في مطبعة ندوة العلماء وفي مصر سنة ١٣٩٢ هـ بعد أن نظر فيه تلميذ المؤلف النابغة ومساعده في التأليف المحدث العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

صحيح مسلم» للشيخ شبير أحمد الديوبندي ولم يكمل ، و«أوجز المسالك إلى شرح موطأ الإمام مالك» للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، و«فيض الباري» إفادات للعلامة أنور شاه الكشميري على صحيح البخاري ، لا تزال عمدة ومرجعاً لطلبة هذا الفن الشريف وعلمائه ، و«مرعاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح» لشيخ الحديث مولانا عبيد الله المباركفوري، قد ظهرت منه أربعة أجزاء بعد.

ويعد كتاب «آثار السنن» للعلامة ظهير أحسن النيموي[١] في تأييد المذهب الحنفي، والنقد في الحديث ، كتاباً عالياً وزيادة عظيمة وافية بين مؤلفات الهنود في علم الحديث ، ومن سوء الحظ لم يتم هذا التأليف ، لأن عمر الشيخ لم يساعده ، ولو تم هذا الكتاب لكان خدمة جليلة علمية في تأييد وجهة النظر الحنفية والنقد في الحديث.

ومن الكتب التي اعتنى بها العلماء في الأقطار الإسلامية وعدوها من خيرة ما كتب في الموضوع ، كتاب في التفسير

---

(١) كان العلامة ظهير أحسن من كبار تلامذة فخر المتأخرين العلامة عبد الحي بن عبد الحليم اللكهنوي ، وكان العلامة أنور شاه الكشميري يقول: «لم تنجب الهند محدثاً بمرتبته منذ ثلاثة قرون».

للقاضي ثناء الله الباني بتي ، وهو «التفسير المظهري» ويعتبر من أفضل ما كتبه علماء المذهب الحنفي في التفسير في العهد الأخير ، وطبع في الهند على الحجر في عدة مجلدات كبار ، وكتاب «إظهار الحق» و «إزالة الأوهام» للشيخ رحمة الله الكيرانوي (م١٣٠٩ هـ) وهما فصل الخطاب ، والخطيب في المحراب ، في نقد التوراة والإنجيل والرد على النصرانية ، ولا يزال الكتاب الأول فريداً في موضوعه منقطع النظير في مقصده.

و«فقه اللسان» للقاضي كرامة حسين الكنتوري (م١٣٣٥هـ) يدل على رسوخه في الفلسفة اللغوية وعلم اللغة والاشتقاق مع كون المؤلف من أصحاب الاختصاص في الفلسفة والحقوق والمشتغلين بالقضاء والوظائف الرسمية.

و«الإمعان في أقسام القرآن» للعلامة حميد الدين الفراهي (م١٣٤٩هـ) و«جمهرة البلاغة» و«رسائل في تفسير سور من القرآن» ، وهي أجزاء من تفسيره المسمى «نظام الفرقان وتأويل القرآن بالقرآن» تدل على عمق فكره ودقة نظره واطلاعه الواسع على التوراة والإنجيل ، وتضلعه من العلوم العربية والبلاغة وأشعار الجاهليين وأساليب بيانهم ، والغوص في المعاني.

ومنها «التفسير الماجدي» للشيخ عبد الماجد الدريابادي يمتاز بالدراسات المقارنة العقائدية والتاريخية والعلمية ،

والاستفادة من المصادر الأجنبية ، وما كتب عما تشترك فيه الصحف السابقة والقرآن من أمكنة وأعلام وحقائق تاريخية وما دلت عليه الآثار والحفريات ، والاحتجاج بكل ذلك على إعجاز القرآن[١] .

ومنها «ترجمان القرآن» في مجلدين لمولانا أبو الكلام آزاد ، وزير المعارف الأول في الجمهورية الهندية ، وقد كتب في أسلوب أدبي قوي رفيع وإنشاء بليغ ، وفيه بعض بحوث طريفة ونكت لطيفة ولكن الكتاب لم يتم .

ولفضلاء الهند ومؤلفيها كتب في الفارسية في أغراض إسلامية وعلمية تستحق أن تعتبر فريدة في موضوعها ، وبديعة في أسلوبها وتأثيرها ، أو في طرافة بحوثها ، أو غزارة مادتها ، لذلك نقل عدد منها إلى بعض اللغات الإسلامية ، كالعربية والفارسية والتركية ، كرسائل الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي ، ورسائل الإمام يحيى بن شرف الدين المنيري البهاري المعروفة بالمكتوبات في المعارف الإلهية والنكت

---

(١) صدر الكتاب بالنص الإنجليزي في أربعة مجلدات من المجمع الإسلامي العلمي بندوة العلماء ، والنص الأردي ماثل للطبع ، والكتاب يمتاز بسلامة العقيدة وعرض وجهة النظر السنية السليمة ، والدراسات المقارنة .

الشرعية ، و«إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» لشيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي في بحث الخلافة وثبوت خلافة الخلفاء الراشدين، و«الفوز الكبير في أصول التفسير» له، و«تحفة اثنا عشرية» في الرد على الشيعة الإمامية، لولده العلامة عبد العزيز الدهلوي ، و«الصراط المستقيم» في فن التزكية والتصوف ، للسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، و«منصب الإمامة» للشيخ العلامة إسماعيل بن عبد الغني ، كلها بالفارسية.

ولهم تأليفات في العهد الأخير في أردو اعتبرت من أفضل ما ألف في موضوعها ، وأكثرها في السيرة النبوية كـ«سيرة النبي» في ستة مجلدات كبار[١] ، للعلامة شبلي النعماني وتلميذه الأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وهي كدائرة المعارف في السيرة وعلم الكلام والتوحيد ، وللعلامة السيد سليمان الندوي محاضرات في السيرة النبوية ، ألقاها في مدراس ، وطبعت في أردو باسم «خطبات مدراس» وهي من أجمل ما كتب في السيرة[٢]، و«سيرة رحمة للعالمين» للقاضي سليمان المنصور

(١) وقد صدر الجزء السابع أخيراً وهو خاص بالسياسة الشرعية والمعاملات ، وهو صغير الحجم بالنسبة إلى الأجزاء السابقة.

(٢) نقلت هذه المحاضرات إلى العربية ونشرت مراراً باسم «الرسالة المحمدية» تعريب: الأستاذ محمد ناظم الندوي. طبع بعناية السيد عبد الماجد الغوري في دار ابن كثير دمشق.

فوري ، في ثلاثة مجلدات من أعظم كتب السيرة تأثيراً ، و«النبي الخاتم» للشيخ مناظر أحسن الكيلاني ، من أكثرها استنباطات ونكتاً لطيفة ، و«الفاروق» للعلامة شبلي النعماني في سيرة أمير المؤمنين عمر ، و«شعر العجم» له ، في تاريخ الشعر الفارسي ونقده ، ومؤلفات العالم الرباني مولانا محمد قاسم النانوتوي في علم الكلام وفضل الإسلام ، وإثبات بعض عقائده وأحكامه .

ولم يزل شعار المسلمين في الهند منذ العهد الأول الاعتناء الكامل باللغة العربية ، والتعصب لها ، وقد حافظوا عليها كلغة التأليف والعلم ، وكان فيها شعراء مفلقون ، كالقاضي عبد المقتدر الكندي الدهلوي (م٧٩١هـ) والشيخ أحمد بن محمد التهانيسري (م٨٣٠هـ) والشيخ غلام علي آزاد البلكرامي ، صاحب «السبع السيارة» (م١٣٠٠هـ) والمفتي صدر الدين الدهلوي (م١٢٨٥هـ) والشيخ فيض الحسن السهانفوري (م١٣٠٤هـ) والشيخ ذو الفقار علي الديوبندي (م١٣٢٢هـ) وأدباء محققون كالعلامة عبد العزيز الميمني ، والشيخ أبي عبد الله محمد السورتي .

ولا يزال المسلمون متمسكين باللغة العربية يدرسون أمهات كتبها في مدارسهم التي يسمونها «المدارس العربية» ويؤلفون ويكتبون فيها ، وقد أصدروا في فترات مجلات وصحفاً عربية تدل على عنايتهم بهذه اللغة ونشرها وإحيائها ، منها مجلة

«البيان» الشهرية التي كانت تصدر من لكهنؤ ، وكان الشيخ عبد الله عمادي والأستاذ عبد الرزاق المليح آبادي الندوي في إدارة تحريرها ، ومنها صحيفة «الجامعة» الأسبوعية التي كانت تصدر من «كلكتا» وكان رئيس تحريرها مولانا أبو الكلام آزاد رئيس المؤتمر الوطني بعد ، ووزير المعارف في الحكومة الهندية بعد ذلك، ومنها مجلة «الضياء» الشهرية التي كانت تصدر من ندوة العلماء لكهنؤ ، ونالت إعجاباً وتقديراً في الأوساط العلمية والأدبية في البلاد العربية ، منشئها المرحوم الأستاذ مسعود عالم الندوي ، ولا تزال مجلة «البعث الإسلامي» لسان حال الدعوة الإسلامية ورائد الفكر الإسلامي تصدر من ندوة العلماء ، وصحيفة «الرائد» الندوية الأسبوعية ينشئها طلبة دار العلوم ويكتبون فيها ، وجريدة «الكفاح» التي تصدرها جمعية علماء الهند من دهلي ، وجريدة «الدعوة»[1] التي تصدرها الجماعة الإسلامية ، و«صوت الجامعة» التي تصدرها الجامعة السلفية ، ببنارس ، و«دعوة الحق» التي كانت تصدر من دار العلوم «ديوبند» وظهرت مكانها الآن «الداعي» .

وقد خرجت دار العلوم التابعة لندوة العلماء طائفة من الكتاب

---

(١) وقد احتجبت منذ حل الجماعة الإسلامية في يوليو ١٩٧٥ م. ولكنها استأنفت صدورها بعد رفع حالة الطوارىء.

البارعين في اللغة العربية ، وأوجدت نشاطاً أدبياً ملحوظاً في الهند ، ومحصولاً ذا قيمة أدبية، لا يجمل لمؤرخ الأدب العربي أن يغفله إذا أراد أن يستوعب الحركة الأدبية في الأقطار الإسلامية ويذكر مدارسها المختلفة.



نوابغ الشعب الهندي الإسلامي

إن مما يدل على نجابة أمة وصلاحيتها للبقاء نبوغ عبقريين فيها في مختلف شعب الحياة وميادينها وأصناف العلم ، والشعب الإسلامي في الهند غني في نوابغ الرجال ، والعبقريين في ضروب الكمال .

قد قامت في الهند دولة إسلامية قوية منذ القرن السادس الهجري ، اجتمع في ظلها نوابغ كل فن ، وأئمة كل علم ، غزا التتار الشرق الإسلامي وأنزلوا على العالم الإسلامي البلاء والشقاء ، وخربت الحواضر الإسلامية ومراكز الحضارة والثقافة في العالم الإسلامي ، وبدت موجات الهجرة والجلاء قوية واسعة في المدن التي كانت فريسة الغارات التترية المغولية ، ونزحت أكثر البيوتات الشريفة والأسر العريقة في العلم والصلاح والشرف تهيم على وجهها في الأرض وتبحث لها عن مأوى تأوي

إليه ، وتعتصم به عن همجية التتر الوحوش ومعرتهم وتلقي به رحلها.

وكانت الهند التي يحكمها المماليك الأقوياء من السلالة التركية هي البلد الوحيد في الشرق التي صمدت للتتار والمغول وردت غاراتهم مرة بعد مرة ، فلجأ إليها في فترات كثيرة عدد من أكرم الأسر وأعرقها في العلم والذكاء والشرف في تركستان وإيران ، وأقام في الهند عشائر كثيرة توارثت العلم والنبوغ والشرف والمناصب الدينية كابراً عن كابر ، وكثرت هذه العشائر في عصر شمس الدين التمش وغياث الدين بلبن وعلاء الدين الخلجي ، يتحدث عنها وعن سبب هجرتها مؤرخ الهند القديم ضياء الدين البرني ، يقول:

«إن هذه الأسر وهؤلاء الأشراف والسادة والعلماء الأجلاء إنما هاجروا في حادثة جنكيز خان الملعون ، كان منها أمراء وقواد وأساتذة كبار وقضاة وشيوخ أجلاء ومربون كبار»[١].

ونبغ في هذه الأسر الكريمة وفيمن أسلم على يدها من الأسر الهندية الكريمة رجال في العلم والدين والإدارة والسياسة ، وكان منهم رجال عز نظيرهم في العالم الإسلامي.

نبغ في الهند في هذا الشعب الإسلامي الهندي ملوك وأمراء

---

(١) راجع تاريخ فيروز شاهي عهد السلطان غياث الدين بلبن.

ووزراء وقادة للجيوش وعلماء ومؤلفون يتجمل بهم تاريخ الإسلام العام، ويكاد يكون كثير منهم العلم المفرد في بعض صفات الكمال ونسيج وحده فيها.

والذي يقرأ سيرة الحاكم العبقري شير شاه السوري (م٩٥٢هـ) ويعرف مآثره في إدارة البلاد ورفاهيتها ومشاريعه العمرانية الضخمة البديعة وقوانينه العادلة وتشريعاته الدقيقة وإنتاجه السريع الضخم ـ وقد ذكرنا بعض ذلك في الفصل السابق ـ ويعرف أن كل ذلك قد تم في خمس سنوات فقط، وهي المدة التي حكم فيها شير شاه، وبعضه يعجز عنه الحكومات الكبيرة المنظمة في آجال طويلة، ولم يستطع كثير من الملوك والحكام الإنجليز على كثرة الوسائل وتقدم المدنية وحدوث الآلات أن يأتوا ببعض ما أتى به هذا الملك العصامي في عصر متخلف في الصناعة والمدنية، يبهر بعظمة هذا الرجل، ويؤمن بعبقريته ويصدق أن هذا الرجل فريد في العصور والأمصار، ويستحق أن يوضع في صف أعاظم الرجال في العالم[1].

والذي يقرأ سيرة السلطان أورنك زيب عالمكير (م١١١٨هـ) وما جمع من فضائل علمية وعملية، ويقرأ تاريخه الحافل بجلائل الأعمال، ويقرأ جهاده المتواصل الذي لم يقطع ولم

---

(١) اقرأ ترجمته في «نزهة الخواطر» المجلد الرابع.

يتوقف يوماً واحداً في خمسين سنة حكم فيها ، وفتوحاته العظيمة وإصلاحاته الكبيرة وتقشفه في الحياة وتحمله للشدائد واستقامته وصلابته ومغامراته في سن عالية[١] ، ويقرأ نظام أوقاته ، ومحافظته على الفرائض والسنن مع إشرافه الدقيق على أوسع مملكة في عصره ، واشتغاله بالعبادات والعلم والمطالعة ، آمن بأن هذا الرجل لا يوجد له نظير في علو الهمة وقوة الإرادة في ملوك العالم ، وأنه خلق من حديد ، وأنه من نوادر رجال العالم في جميع العصور وفي جميع الأجيال.

ومنهم السلطان الفاضل العادل المحدث الفقيه مظفر حليم الكجراتي (م٩٣٢هـ) الذي روى عنه التاريخ من نوادر الإخلاص والإيمان والاحتساب والتقوى والعمل بالعزيمة والعدل والإيثار والحمية في الدين والتبحر في العلم ما يندر وجوده في سير كبار الزهاد والربانيين وكبار المخلصين فضلاً عن الملوك والسلاطين.

يقول مؤرخ «كجرات»:

«حاول ملوك وأمراء «مالوه» قرناً كاملاً تقريباً أن يغزوا إمارات «كجرات» بجيوشهم ، ولكن محاولاتهم كلها باءت

---

(١) عمر أورنك زيب تسعين سنة ولم يزل مرابطاً مناضلاً إلى آخر ساعاته ، وفي كتاب «رجال من التاريخ» للأستاذ الطنطاوي طرف من ترجمته. طبع دار المنار بجدّة.

بالفشل ، ولكن سوء إدارة السلطان محمود الشاه الثاني سلطان «مالوه» أدى إلى انتقال زمام الأمر إلى أيدي وزيره «مندلي رائي» الذي عزل السلطان محمود ، وعكف على محو الشعائر الإسلامية ، ونشر الطقوس والعادات غير الإسلامية ، فتحرك له السلطان مظفر شاه حليم (عليه الرحمة) وثارت حفيظته وحميته ، وكان والياً على «كجرات» فزحف إلى «مالوه» بجيش عرمرم ووصل إلى باب «مالوه» بعد أن قطع مسافة طويلة ، وحاصر البلد ، وخاف «مندلي رائي» أنه ربما لا يستطيع مقاومته أو الصمود له لوحده ، فأغرى «رانا سنجا» بإرسال هدايا نفيسة إليه واستنجده ، ولكنه قبل أن يصل إلى «سارنج بور» وجه السلطان «مظفر حليم» إليه أفواجاً من جيشه العظيم للتصدي له ، فلم يستطع جيش «رانا سانجا» أن يتجاوز هذا الجيش ، وانتصر السلطان وفتح القلعة قبل أن تصل نجدته إلى «مندلي رائي» من المناطق المجاورة.

وجوهر الكلام أنه لما دخل السلطان «مظفر حليم» في القلعة واستعرض رفقته ما تركه ملوك «مالوه» من آثار للنعيم والخزائن ، والثروات الطائلة ، واطلعوا على رخاء تلك المنطقة وخصبها قالوا للسلطان: إن أكثر من ألفي فارس استشهدوا في القتال ، فليس من المناسب أن نتخلى عن هذه البلاد بعد هذه الخسائر الجسيمة ، ونولي إمارتها للملك الذي كان سبباً في

إتلافها ، وانتقال السلطة من يده إلى «مندلي رائي» فلما سمع السلطان مظفر هذا الكلام ، توقف قليلاً ، ثم خرج من القلعة ، وأمر السلطان محمود بأن لا يسمح لأحد من رفقته بالدخول في القلعة ، وألح السلطان محمود كثيراً بأن يمكث السلطان مظفر حليم بضعة أيام في القلعة ويستريح ، لكنه لم يقبل هذا الطلب ، وكشف أخيراً أنه قام بهذا الجهاد لمجرد رضا الله ، وقال: إنه خشي من كلام الأمراء أن يدور بخلده طمع في القلعة ويحبط عمله ، إنه لم يحسن إلى السلطان محمود ، بل إن محموداً نفسه هو الذي أحسن إليه ، بأنه كان سبباً في نيل هذا الشرف العظيم»[(١)] .

والذي استطاع أن يقول في مرض وفاته تحديثاً بنعمة الله :

«ما من حديث رويته عن أستاذي المسند العالي مجد الدين بروايته عن مشايخه إلا وأحفظه وأسنده وأعرف لراويه نسبته ، وثقته ، وأوائل حاله إلى وفاته ، وما من آية إلا وقد منَّ الله علي

---

(١) «ياد أيام (تاريخ كجرات) للعلامة عبد الحي الحسني (أمير ندوة العلماء سابقاً) نقلاً عن «مرآة سكندري» والقصة مبسوطة في تاريخ كجرات للآصفي المعروف بـ«ظفر الواله» والكتاب بالعربية ، وكذلك في كتاب «نزهة الخواطر» ج٤، وهي مروية في ترجمة من كتاب «رجال من التاريخ» للأستاذ علي الطنطاوي.

بحفظها ، وفهم تأويلها ، وأسباب نزولها ، وعلم قراءتها ، وأما الفقه فإني أستحضر منه ما أرجو به مفهوم «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» ولي مدة أشهر أصرف وقتي باستعمال ما عليه الصوفية ، واشتغل بما سنه المشايخ لتزكية الأنفاس عملاً بما قيل «من تشبه بقوم فهو منهم» وها أنا أطمع في شمول بركاتهم متعللاً بعسى ولعل ، وكنت شرعت بقراءة معالم التنزيل وقد قاربت إتمامه إلا أني أرجو أن أختمه في الجنة إن شاء الله تعالى» .

وفاضت روحه وهو يدعو بدعاء سيدنا يوسف ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾»[1] .

هـذا فـي الملـوك ، وأمـا فـي الـوزراء فنجـد مثـل الـوزيـر عماد الدين الكيلاني المشهور بمحمود كاوان (م٨٨٦هـ) الوزير العالم الفاضل الذي جمع بين رئاسة الدين والدنيا ، وطبقت شهرته الآفاق وانفرد في حسن الإدارة وكثرة العبادة ووفور التقوى ، وغزارة العلم ، وبلاغة القلم ، وصناعة الإنشاء ، ومدحه العلامة عبد الرحمن الجامي الشاعر الصوفي المعروف ببيته السائر :

---

(١) اقرأ ترجمته الحافلة في «نزهة الخواطر » ج٤ .

هم جهان را خواجه وهم فقر را ديباجه أوست[١]

آية الفقر ولكن تحت أستار الغنى

ونجد مثل الوزير أبي القاسم عبد العزيز الكجراتي المشهور بآصف خان وزير كجرات المتوفى (٩٦١هـ) العالم الأصولي الفقيه المحدث المدرس القدير الذي أفرد علامة الحجاز شهاب الدين بن حجر المكي رسالة في مناقبه وذكر له فيها من الفضائل العلمية ومكارم الأخلاق والاشتغال بالعبادات ، والأخذ بعوازم الأمور ، ودقائق التقوى ، والعكوف على المطالعة والتدريس ، وتشجيع العلم والعلماء ، والإحسان إليهم ، وحسن الاستقامة ، ما يحير الألباب ويدهش العقول ، ومدحه شعراء الحجاز بقصائدهم ، ورثوه على وفاته رثاء رقيقاً حزيناً[٢] .

ومنهم الأمير الكبير الأديب الشاعر البطل الأعظم صاحب السيف والقلم ، عبد الرحيم بيرم خان الدهلوي ، قائد قواد الحكومة المغولية في الهند (م ١٠٠٥هـ) الذي اضطر مؤرخاً أميناً لا يكيل المدح جزافاً أن يقول في ترجمته :

«كان له من النقاوة التامة والشهامة الكاملة وعلو الهمة والكرم ما لا يمكن وصفه مع المعرفة للأدب ومطالعة كتبه ،

---

(١) إنه سيد من سادات العالم ، وجمال للزهد وزينة للتقوى.

(٢) اقرأ ترجمته في «نزهة الخواطر» المجلد الرابع.

والإشراف على كتب التاريخ ، ومحبة أهل الفضائل ، وكراهة أرباب الرذائل ، والنزاهة والصيانة والميل إلى معالي الأمور حتى لم أجد ممن كان قبله أو بعده[١] من يساويه في مجموع كمالاته»[٢] .

قال عبد الرزاق الخوافي في مآثر الأمراء :

«إنه كان أوحد أبناء العصر في الشهامة والكرم ، ماهراً في اللغات المتنوعة ، من العربية والفارسية والتركية والهندية وغيرها ، وكان يتكلم في كل من تلك الألسنة بغاية الفصاحة والطلاقة ، ويقول الشعر الرقيق البليغ فيها .

وعبد الرحيم من الشعراء المعدودين في اللغة الهندية[٣] ، الذين لهم في تاريخ أدب البلاد مكان مرموق محترم ، ومن فحول شعراء الفارسية .

أظل العالم الإسلامي بعد الغارة المغولية انحطاط في التفكير والتأليف ، وفقد الابتكار والإبداع ، إلا في النادر ، وقد ظهر هذا الانحطاط في شكل واضح بعد القرن الثامن ، وبدأ الإعياء

---

(١) يعني في الأمراء والوزراء .
(٢) «نزهة الخواطر» ص٣١٧ المجلد الخامس .
(٣) هي غير اللغة الأردية ، وهي لغة الهند التي كان يتكلم بها أهل الهند قبل أن تنتشر لغة أردو .

الفكري والاسترخاء الأدبي في أكثر نواحيه ، ولم ينهض إلا أفذاذ كان لهم إنتاج وابتكار ظاهر ، كالعلامة عبد الرحمن بن خلدون ، وعاشت الهند مدة طويلة في عزلة عن هذا الإعياء والعقم ، فقد كانت الهند لبعدها عن الغارات التترية ووقوعها في أقصى الشرق الإسلامي من أقل البلاد تأثراً بالهجوم التتري وويلاته ، وكانت للجوء كبار العلماء وكرام البيوت إليها لا تزال قوية في الحركة العلمية ، وبقي فيها نشاط وإنتاج في العلم والتأليف والتفكير مدة طويلة ، ووجد فيها في فترات كثيرة رجال يستحقون أن يعدوا من نوابغ الإسلام ، ويبدو في مؤلفاتهم وأفكارهم شيء كثير من الابتكار والإبداع والطرافة ، والشذوذ عن الأسلوب المألوف المعروف في ذلك العصر ، كالشيخ شرف الدين أحمد بن يحيى المنيري البهاري (م٧٧٢هـ) صاحب الرسائل البديعة في التربية وحقائق الشريعة ، والشيخ أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦هـ) صاحب «حجة الله البالغة» و«إزالة الخفاء» والشيخ رفيع الدين الدهلوي (م١٢٣٣هـ) صاحب «أسرار المحبة» و«تكميل الأذهان» والشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي (م١٢٤٦هـ) صاحب «العبقات» و«منصب الإمامة» الذين يجد القارىء في رسائلهم ومؤلفاتهم كثيراً من الأفكار الطريفة والتحقيقات الجديدة والاستنباطات اللطيفة التي تخلو عنها كتب أكثر معاصريهم .

أصبحت الهند لأسباب تاريخية طبيعية[١] في العهد الأخير مركزاً للدعوة الدينية القوية والتجديد الإسلامي في العالم الذي تخطى حدود الهند إلى أقطار أخرى ، ووجد فيها دعاة ومجددون من أفضل الدعاة والمجددين الذين عرفهم تاريخ الإسلام في العهد الأخير قوة ودعوة ، ورسوخاً في العلم ، وعمق وتأثير وانتشار رسالة ، وتشبهاً بالدعوة الإسلامية الأولى.

عرفنا منهم الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م١٠٣٤هـ) الذي لقبته الهند بحق «مجدد الألف الثاني» وقد ظهر منه تجديد صلة الشعب الهندي بالإسلام في هذه البلاد ، والانتصار للشريعة وحفظها من تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وإلحاد المتصوفين الوجوديين[٢] ، ومن صرف الحكومة المغولية القوية من اللادينية ، وتلفيق الأديان ، وإيثار البرهمية والوثنية الهندية التي اندفعت إليها بتهور وحماس ، إلى التدين بدين الإسلام واحتضانه ، ولم يكن الملك الصالح المؤمن المجاهد السلطان

(١) شرحنا هذه الأسباب في كتابنا الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الخاص بالإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي طبع دار ابن كثير دمشق.

(٢) الغلاة في عقيدة وحدة الوجود.

أورنك زيب عالمكير إلا ثمرة من ثمرات دعوته وجهاده[١] ، وانتشرت طريقته العلية بواسطة العلامة خالد الشهرزوري الكردي (م١٢٤٢هـ)[٢] في بلاد الروم والعرب والحجاز وبلاد الأكراد وسورية وتركيا انتشاراً لم يعرف لطريقة.

وكان منهم السيد أحمد بن عرفان الشهيد (م١٢٤٦هـ) الذي قام بالدعوة إلى الدين الخالص ، والجهاد في سبيل الله ، وتأسيس الحكومة الشرعية على منهاج الخلافة الراشدة ، ونفخ روح الجهاد والحماسة والتضحية في الهند ، وهبت بجهوده في الهند ريح الإيمان وعادت نفحة من نفحات القرون الأولى ، ولم يعرف مثله في القرون الأخيرة ، في قوة التأثير، وعلو الهمة ، والحمية الدينية ، ولم يعرف مثل جماعته وأتباعه في الصلابة في الدين والاستقامة على الشريعة وحب الجهاد[٣] ، وحسبك

---

(١) تحدثنا عن ذلك قليلاً في رسالة «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها» وفي الجزء الثالث من سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الخاص بالإمام السرهندي.

(٢) راجع كتاب «أصفى الموارد في ترجمة سيدنا خالد» تأليف الشيخ عثمان و«سل الحسام الهندي لنصرة مولانا خالد النقشبندي» تأليف العلامة محمد أمين بن عمر عابدين صاحب (رد المحتار) (م١٢٥٢هـ).

(٣) راجع كتاب المؤلف «إذا هبت ريح الإيمان» طبع بيروت.

ما قال الأمير صديق حسن خان صاحب المؤلفات الشهيرة الكثيرة :

«ولم نعرف ولم يخبر الناس بوجود رجل يضارعه في كماله في الماضي القريب في قطر من أقطار العالم ، والفوائد التي حصلت للخلق من هذه الجماعة المنصورة لا يبلغ معشارها فوائد مصلحين آخرين من شيوخ الأرض وعلمائها[١] .

وقد أصبحت الهند مركزاً في عهدنا للدعوة الدينية العالمية مرة أخرى ، وكان داعيها مولانا محمد إلياس الدهلوي (م١٣٦٣هـ) من أقوى الدعاة الذين عرفهم العالم الإسلامي في العهد الأخير ، ولم نر مثله ـ في البلاد التي عرفناها وزرناها ـ في قوة الإيمان بالغيب ، والاعتماد على الله ، وقوة الدعوة والانقطاع إليها ، والتجرد لها ، والنجاح في مهمته ، وقد انتشر دعاته وجماعاته في العالم الإسلامي ، وهي في نشاط مستمر[٢] ، وغدو ورواح في الأقطار الإسلامية ، وفي أوربا

---

(١) تقصار جنود الأحرار ص١٠٩ ـ ١١٠ .

(٢) قاد هذه الحركة وأشرف عليها بعد وفاته خلفه البر الراشد مولانا محمد يوسف الدهلوي ، وتوفي إلى رحمة الله تعالى(١٣٨٤هـ) ومركزه نظام الدين في دهلي ، وخلفه الشيخ إنعام الحسن ، ولا تزال الحركة تواصل نشاطها الدعوي والتربوي ، وقد انتشر نشاطها في سائر أنحاء العالم الإسلامي تقريباً.

وأمريكا وأفريقيا واليابان ، وقد أشعلت هذه الدعوة مجامر القلوب ، وألهبت جذوة الإيمان في آلاف مؤلفة من المسلمين.

هذه أمثلة قليلة جداً من أعلام الهند ورجالاتها الكثيرين في مختلف ميادين الحياة وأصناف الكمال والنبوغ ، وإن نظرة خاطفة في كتاب «نزهة الخواطر» الذي يتضمن تراجم نحو خمسة آلاف من أعيان الهند ورجالها تدل على غناها وخصبها وإنتاجها وكثرة من نبغ فيها ، ونهض من أرضها ، من أصحاب الفضل والكمال والنبوغ.

ولم تزل ولا تزال خلية الإسلام في الهند تعسل ، والشجرة التي غرستها اليد الكريمة المخلصة وسقاها الصالحون من عباد الله بدموعهم والمجاهدون في سبيل الله بدمائهم في كل عصر ، تثمر وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وكان في الشعب الإسلامي الهندي في كل جيل وفي كل عصر رجال أثبتوا نبوغهم ، ورجاحة عقولهم ، وذكاءهم النادر ، ومواهبهم الفريدة ، وتفوقهم الذهني على الشعوب الأخرى ، وكان فيه ـ بعد استقرار الحكم الإنجليزي في البلاد رغم جهود الحكومة الإنجليزية العظيمة في إخماد جذوة الذكاء وتجفيف منابع الثقافة في هذا الشعب الإسلامي[1] ـ نوابغ في التشريع والقضاء ، وفي الإدارة

(١) اقرأ كتاب (W.W.Hunter our India Mussalmans) لوليم هنتر. =

والحكم ، وفي علوم الرياضة والحساب ، وفي فن التعليم وفلسفته ، وفي السياسة وعلم الاقتصاد ، وفي العلوم الطبيعية والكيمياء ، والأدب الإنجليزي ونقده ، أقر بفضلهم ونبوغهم علماء هذه الفنون في بلاد الإنجليز ، وكان منهم خطباء وكتاب ، ومؤلفون في الإنجليزية ، لا يقلون عن أدبائها وكتابها في الاقتدار على اللغة والتصرف في مناهج الكلام وجمال الأسلوب .

وكان فيه قادة سياسيون ، وزعماء ودستوريون ، وخطباء يوضعون في الصف الأول من القادة السياسيين ، والزعماء والخطباء في هذا العصر .

وكان فيه شعراء وقادة الفكر الذين كانوا أصحاب إبداع وعبقرية في الشعر ، وأصحاب دعوة ورسالة في الفكر ، وتغنى بشعرهم الإسلامي إيران ، وأفغانستان ، وتركيا ، وترجم إلى لغات العالم الإسلامي[١] .

أما الثقافة العربية فلا يزال الشعب الهندي متمسكاً بها ، محافظاً عليها ، منتجاً فيها ، وتدل الآثار والقرائن على تكون مدرسة أدبية خاصة فيها ، في الأدب العربي والكتابة الإسلامية ،

---

(١) ناهيك شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي نبغ في الهند قبل التقسيم ومات ، اقرأ «روائع إقبال» للمؤلف.

تجمع بين البراعة الأدبية والإشراق الروحي ، والإيمان العميق والدعوة الصريحة القوية .

كل ذلك يدل على أن هذا الشعب الإسلامي الهندي ـ الذي يمر بمرحلة عصيبة في حياته ويواجه مشكلات ـ صالح للبقاء ، قائم بالكفاح ، وإنه صاحب شخصية قوية خالدة .



تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية[(١)]

من مظاهر تأثير المسلمين في ثقافة الهند وحضارتها تأثير اللغة العربية ـ التي تخصهم والتي حملوها إلى هذه البلاد ـ في لغات الهند ، ولهجاتها وأدبها وحضارتها.

إن تأثير لغة راقية متمدنة في لغة أخرى ليس بدعاً من الأمور ، ولا حادثاً طريفاً في تاريخ اللغات والثقافات ، ولم تزل الحضارات البشرية في كل طور من أطوار المدنية تتبادل الأفكار والخواطر ، والكلمات وطرق التعبير ، ولم تزل في أخذ وردّ ، وإفادة واستفادة ، وهذه طبيعة الحياة والرقي ، وكل لغة سدت في وجهها أبواب الاستفادة والاستعارة وبقيت متمسكة بتراثها القديم لا تزيد في ثروتها ، ولا تضيف إلى قديمها ، فقد قطعت صلتها عن المدنية وحرمت نفسها الازدهار والتوسع ، وتخلفت

(١) حديث أذيع من الإذاعة الهندية في دهلي القسم العربي.

عن ركب الحياة ، وأصبحت من اللغات الجامدة المحدودة التي لا تسعف الأديب والشاعر ، ولا تقضي حاجة الإنسان الحي المتمدن.

كنت أعتقد أن اللغة العربية تكون جزءاً لا يستهان به من أجزاء لغة «أردو» التي هي مزيج اللغات الأربع: العربية والفارسية والتركية والسنسكريتية ووليدها جميعاً ، ولكني كنت أحدد القضية في الكلمات العربية التي بقيت على شكلها العربي في «أردو» ، وكنت أحدد القضية في أردو التي لها نسب قريب مع اللغة العربية ، ولكن شكراً للقائمين على إدارة الإذاعة الهندية ، إن اقتراحهم لحديث عن موضوع تأثير اللغة العربية في لغات الهند ، أثار في نفسي رغبة في البحث عن هذا الموضوع ، وأعترف أنني استفدت كثيراً ، وصادفتني في هذه الرحلة الممتعة شخصيات متنكرة كانت ترتدي الحلة الوطنية ، فلما بحثت عنها وجدتها عربية خالصة ، وإليكم مذكرة هذه الرحلة الشائقة ، والتعارف اللذيذ ، والبحث المفيد.

كان واجبي قبل أن أبدأ هذه الرحلة أن أتأكد من وجود جهاز السفر ونفقاته ، لأني سأجول في أنحاء الهند ، والبلاد عريضة واسعة فانتقل ذهني إلى كلمة «دام» التي تستعمل في «أردو» وفي الهندية بمعنى النفقة والمال ، فإذا هي مأخوذة من كلمة (درهم) العربية التي كانت تطلق في معنى المال مطلقاً ، فيقال: الدرهم

والدينار ، ثم انتقل ذهني إلى أجزائه وتفاريقه ، فمن تفاريقه الصغيرة «كيرانت» التي لا تزال تستعمل في الأوراق المالية في المقاطعات المتحدة الشمالية الغربية فإذا هي (قيراط) العربية ، وبهذه المناسبة تذكرت كلمة(أشرفي) وهي العملة الذهبية ، التي كانت تستعمل في القديم ، ولا تزال مستعملة في الكلام، وبحثت عنها في التاريخ فرأيت البحار العربي المشهور ابن ماجد أسد البحر يقول في كتابه «الفوائد في أصول البحر والقواعد»: والحادي عشر برسي الأشرف ضارب سكة الأشرفي.

ونزلت ضيفاً في هذه الرحلة عند صديق هندي كريم أكرم وفادتي وأحسن ضيافتي ، وتأنق في صنع الأطعمة واستعرضت مائدته السخية فإذا من أنواع الأطعمة «فيرني» وهو رز مسحوق يطبخ مع اللبن الحليب والسكر ، وكان يقال له في القديم «المهلبية» وبحثت عنه فوجدت محمد الخوارزمي يذكر في الأطعمة التي كانت تهيأ للمرضى «الفراني» وكان يتركب من رغيف يختمر عجينه كان ينقع في اللبن ويضاف إليه السكر.

وكان من أنواع هذه الأطعمة «قلية» ويطلق على إدام إذا كان فيه لحم ومرق وخضر، وأصلها العربي «قلية» بالتشديد ، وهو من قلى يقلي قلياً اللحم وغيره أنضجه، وكان بجوار القلية «كباب» وهو من الكب ، وهو القلب على الوجه ، ويطلق على الطعام الذي يشوى مقلوباً على النار ، وفي المعاجم العربية «كبب:

عمل الكباب» وإن أنس في هذا الصدد فلا أنس «شوربه» التي يراد منها المرق وأصلها (شربة) وهي ما تشرب دفعة واحدة.

وعجبت لما سمعت من مضيفي يطلب النارجيلة على عادة أهل الهند ويأمر الخادم بتهيئة «سلفة» وهو مصطلح من مصطلحات أصحاب النارجيلة، وفكرت فيها وفي أصلها فإذا أصلها عربي، والسلفة في لغة العرب ما يعجل الرجل من الطعام قبل الغداء.

ولما انتهيت من الطعام التفت إلى البيت وأثاثه، فوجدت بدهشة أن كثيراً من أجزائه لها أسماء عربية ولا يعرف الناطقون بها أن أصلها عربي صميم، فأول ما استرعى نظري «الزربية» التي كنت جالساً عليها ويسميها أهل الهند «قالين» فوجدت أن أصله «القالي» وهو الفراش المنسوب إلى (قاليقلا) وكانت مدينة على نهاية المملكة الإسلامية وإليها نسب أبو علي القالي، يقول ياقوت الرومي في معجم البلدان: وتعمل بقاليقلا هذه البسط المسماة بالقالي، اختصروا في النسبة إلى بعض اسمه لثقله.

ومن أثاث البيت ورياشه انتقل فكري إلى من يرجع إليه الفضل في تكون هذا البيت ووجوده بهذا الشكل الظريف، وهو البناء المتواضع فوجدت أنه يسمى في الهندية «راج» وهالني أنها كلمة عربية بتغير حرف واحد، ففي المعاجم العربية: «الراز:

رئيس البنائين ، وأصله رائز كشائت وشائك ، والريازة حرفة الراز» .

ومقدم البنائين والحاذقين منهم يسمى في الهند «مستري» ووجدت أنه محرف من مسطري ، وهو البناء الذي كان يحمل المسطر لتسوية الجدران وتقويمها .

ومن أشغال البنائين والنجارين الخرط والخراط ، يقال : خرط العود ، يعني سواه بالمخرطة وخرط الحديد طوله كالعمود ، ولا يزال مستعملاً في أردو فيقال «خراد» وما هو إلا الخراط لفظاً ومعنىً .

واستعرضت آلات البناء والتصميم فإذا كثير من كلماتها ومصطلحاتها عربي ، فمنها «ساهول» وهو حديد تربط في خيط طويل لتسوية الجدران ، وقد ذكر الخوارزمي آلة في مفاتيح العلوم وسماها شاقول ، ووصفها بقوله «هو ثقل يشد به في طرف حبل يمده سفلاً يحتاج إليه النجارون والبناؤون» .

ومنها «كنى وكونيا» وهو الكونيا ، قال الخوارزمي : «يقدرون بها الزاوية القائمة» .

ورأيت البيت مبيضاً قد جدد تنويره فتذكرت كلمة «قلعي» التي هي في الهند بمعنى التنوير ، ورأيت صاحب لسان العرب يقول :

«والقلعي الرصاص الجيد وقيل هو الشديد البياض ، والقلع اسم معدن الذي ينسب إليه الرصاص الجيد» .

ورأيت رجلاً واقفاً على باب مضيفنا الكريم كالحارس ، فانتقل ذهني إلى كلمة «أحدى» وهو الكسول الذي يكون حلس البيت ، يأكل من غير تعب عيالاً على غيره ، ومصدره رجل مفرد كان يقف على باب الملوك والأغنياء يحرس بيوتهم ، وكان بطبيعة الحال عاطلاً لا شغل له ، ويعيش على رواتبهم وفتات مائدتهم ، ومن هنا نشأت فكرة «أحدى» يعني الرجل الكسول الذي يقضي وقته في البطالة .

ودعاني صديقي إلى الخروج للنزهة والتفرج فوثب فكري إلى كلمة«تماشا» التي يراد منها في الهند وفي كثير من لغاتها المحلية التفرج ، فإذا أصلها «تماشى» وهو المشي مع أصدقاء وزملاء للتفرج والتنزه ، وقد أصبحت مفتوحة على قاعدة الفارسية فيقولون «تمنا» بدل التمني و«تماشا» بدل «التماشي» و«تحاشا» بدل «التحاشي» .

ولا يسع هذا الحديث الوجيز أن يستوعب جميع الكلمات أو نصفها التي تعرفت بها بصفتها كلمات عربية أصيلة صميمة في هذه الرحلة القصيرة ، وجزى الله عن أهل العلم أستاذنا العلامة الكبير الدكتور السيد سليمان الندوي رحمه الله إذ بحث في هذا

الموضوع بحثاً علمياً دقيقاً ، وعرض أمثلة جميلة من هذا القبيل[١]. ولا يزال المجال واسعاً أمام الباحثين والمنقبين في اللغة بشرط أن يكونوا متوسعين في معرفة اللغتين اللغة الهندية واللغة العربية مطلعين على مصادرها القديمة ، يحملون عناء البحث والتنقيب في المعاجم ودواوين العربية ، لا يتهورون ولا يسرعون بالحكم ، ويرافقون هذه الكلمات في رحلتها الطويلة ، من بادية العرب وعواصم العالم العربي إلى صحراء السند ، إلى أودية الكنج ، إلى شاطىء بحر العرب ، وفي جميع أطوارها ومراحلها ، وإذا فعلوا رأوا كيف نفذت اللغة العربية في اللغات الهندية وكيف تسربت ، وغزت الثقافة الهندية والحضارة الهندية ، حتى امتزجت بلحمها ودمها ، وأصبحت جزءاً من أجزائها لا ينتبه لكونها كلمات عربية فصيحة ، إلا أفذاذ من الباحثين وأفراد من المحققين.

* * *

(١) له في هذا الموضوع بحثان في مجموع مقالاته الأدبية واللسانية ومحاضراته ، الذي سماه «نقوش سليماني».

الحضارة الإسلامية في الهند

العاملان الأساسيان لتشكيل الحضارة:

إن حضارة المسلمين في كل بلاد وليدة عاملين (Factors) ومؤلفة من تأثيرهما وانعكاساتهما ، أولهما المعتقدات الدينية ، (المبادىء الإسلامية للحياة والأخلاق) وثانيهما تأثير الحضارات المحلية في البلاد ، والاتصال بعناصر السكان الأخرى والاختلاط بهم.

أما العنصر الأول (المعتقدات الدينية ، مبادىء الحياة الإسلامية والأخلاق) فتشترك فيه حضارات المسلمين في جميع الدول ، إن المسلم مهما يكن في أي بلد ، وفي أي ناحية من الأرض ومهما اختلف ملبسه ولغته ، فإنه يجتمع في هذا العنصر ، ولذلك لا نراهم إلا كأفراد أسرة واحدة ومتبعي حضارة واحدة في كل مكان ، والعنصر الثاني هي تلك الناحية من حضارتهم التي تميزهم عن إخوتهم في الدين في البلد الآخر

فيتبين بها بلدهم الذي ينحدرون منه .

ولا يستثني المسلمون الهنود أيضاً من هذا المبدأ العام ، فإن حضارتهم التي ترعرعت في عدة قرون ، مزيج من التأثير الهندي الإسلامي ، ويبعث ذلك على الروعة والجمال ويضمن أن لن يعيشوا في البلاد كعابر سبيل أو غريب ، بل أن يعيشوا فيها كمواطنين آمنين ، ينسقون بيوتهم حسب مقتضيات الظروف والمتطلبات ، والعادات القديمة المتبعة ، والبيئة الحديثة ، بل يزودوا بيئتهم بتحسينات رائعة بديعة ، وإن أي محاولة لتجريد قوم عن أثر ما بعد الطبيعة ، والمبادىء الخلقية التي تشترك فيها الشعوب الأخرى من مختلف أنحاء الأرض ، وإغراءهم بالخروج عليها لمحاولة آثمة لحرمانهم من السمة العالمية (Universallity) وتجفيف منابع روحانياتهم ، وكذلك دعوتهم إلى قضاء الحياة منعزلين عن بيئتهم ومحيط الحياة العلمية ، محاولة فاشلة وغير طبيعية وغير صالحة للقبول .

ثلاث سمات للحضارة الإبراهيمية :

ونظراً إلى العنصر الأول المشترك (العقائد ومبادىء الحياة والأخلاق) يحمل مسلمو الهند كمسلمي مختلف نواحي العالم حضارة خاصة لا نجد تعبيراً أصح من «الحضارة الإبراهيمية» ولهذه الحضارة ثلاث سمات صبغت نظام الفكر والاجتماع بطابع خاص ولون مميز ، ويتجلى هذا الطابع في جميع نواحي حياتهم

وأجزائهـا ، لا يخـلو منه أي عمل يعملونه عن قصد ، وهذه السمات الثلاث الأساسية ، هي الإيمان بوجود الله سبحانه واستحضار ذاته ، وعقيدة التوحيد (كما علمها الأنبياء من سلسلة إبراهيم ، وتفصيلها الكامل موجود في القرآن) والتصور لشرف الإنسان ومساواته بصورة دائمة وإجبارية ، والذي لا يغيب عن ذهن أي مسلم ، وهذه هي السمات البارزة التي منحت الحضارة الإبراهيمية إزاء حضارات العالم الأخرى صورة جيدة نيرة ، ولا نجد هذه السمات والمميزات في أي حضارة من حضارات العالم بمثل ما تتجلى في الحضارة الإبراهيمية.

ذكـر الله فـي حيـاة المسلـم:

إن الإيمان بوجود الله واستحضاره دائماً ، ميزة عامة لا تنفك عنها حضارة المسلمين بأكملها ولا تتخلى عنها ، ونتصور حضارة المسلمين ومجتمعهم ، كأزياء مختلفة التفصيل والأنماط والطراز أثرت فيها أذواق مختلفة وطبائع محلية وأحوال جوية وتأثيرات خارجية ، كأن هذه الملابس كلها غمست في صبغة واحدة ، ولم يبق فيها أي جزء لم يصطبغ بتلك الصبغة ، فإن اسم الله وذكره في حضارتهم ومجتمعهم يحل محل الدم الذي يجري في العروق ، فكل ولد يولد في بيت مسلم يؤذن في أذنه أولاً إثر مولده ، والاسم الذي يعرف به ويؤنس قبل معرفة اسمه بنفسه هو اسم الله ، وفي اليوم السابع من مولده يحتفل بعقيقته

على طريقة سنَّها رسول الله ﷺ ، وتقترح له أسماء إسلامية ويرجح منها اسم يشف عن كونه عبداً ، ويثبت وحدانية الله ، أو يسمى باسم أحد الأنبياء وأتباعه ، ثم تأتي مرحلة التعليم ويؤدي تقليد افتتاح الكتاب ، فيفتتح باسم الله وآيات القرآن ، وهذه التقاليد والعادات معروفة في مسلمي الهند ، فإذا حان وقت الزواج يذكر اسم الله لعقد قران بين إنسان وإنسان بصورة دائمة ، ويعاهدان على محافظة حرمة اسم الله .

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ .

والخطبة المسنونة التي تلقى، تذكر فيها نعم الله التي وهبها الإنسان من خلقه من سلالة آدم زوجين، ويلقن قضاء الحياة بطاعة الله والموت حسب تعاليمه وأوامره .

وهنا مناسبة العيد المبارك السارة ، فيؤمر المسلم بأن يغتسل وينظف ثيابه ويلبس أحسن ملابسه لرفع عظمة الله وتأدية ركعتين شكراً على نعمة الله ، ويؤمر في عيد الأضحى بأن ينحر باسم الله .

وعندما تأتي مرحلة الحياة الأخيرة الحتمية يلقن فيها اسم الله ، ويكون جل هم كل مسلم ومسلمة أن آخر ما يلفظه لسانه من كلمة تكون اسم الله ، وأن يفارق الدنيا وهو يردد ذكره ، فإذا نعى المسلمون ينطلق لسانهم بكلمة القرآن المعروفة والمستعملة في المحاورة الأردية اليومية «إنا لله وإنا إليه راجعون» .

وإذا آن أوان الوداع (صلاة الجنازة) يذكر الله أولاً وآخراً ، ويدعى لمغفرته والصفح عنه ، ويدعو الناس «اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان» ثم يوضع في القبر في مرقده الأخير ويقرأ «بسم الله وعلى ملة رسول الله» ويحول وجهه إلى مركز التوحيد والعبادة العالمي «الكعبة المشرفة» مهما دفن في أي بقعة من بقاع العالم يكون وجهه إلى الكعبة ، وإن مر بقبره مسلم بعد دفنه استغفر الله له وقرأ الفاتحة عليه ، وعلى كل حال لا يفارقه ذكر الله والانتباه إليه في ركب الحياة كلها في كل آن وفي كل مكان .

فهذه كلها مراحل بارزة للحياة ، أما حياة المسلم اليومية فلا تكاد تخلو من ذكر الله في كل وقت ، يبدأ المسلم الأكل باسم الله ويختمه بذكر الله وحمده ، والذين يعنون بالسنن فأكلهم وشربهم وذهابهم إلى المرحاض كله يكون باسم الله والانتباه إلى ذكره ، ويؤمر بذكر الله إذا عطس ، ويؤمر كل من سمع عطاسه أن يشمته ، وفوق ذلك كلمات «ما شاء الله» «إن شاء الله» «لا حول ولا قوة إلا بالله» ليست أذكاراً مأثورة فحسب ، بل أصبحت جزءاً للغة، ودخلت في المحاورات اليومية في البلدان التي يقطنها المسلمون منذ زمن بعيد ، وأثرت حضارتهم فيها ، كلها طرق لذكر الله والانتباه إليه ، ولن ترى مجتمع أي حضارة تزدان لغته وأدبه وحياته اليومية بيقين وجود الله واستحضاره مثل ما نرى في

المجتمع الإسلامي ، إن هذا اليقين والاستحضار هو أول ناحية عالمية مشتركة لمسلمي الهند أصبحت لهم شعاراً ولهم علامة.

السمة العالمية الثانية ، التوحيد:

وميزة حضارتهم العالمية الثانية وسمتها عقيدة التوحيد ، وهي تبدو واضحة في كل جانب من العقائد إلى الأعمال ، ومن العبادات إلى الاحتفالات ، فيؤذن من مآذن مساجدهم في اليوم والليلة خمس مرات أنه لا إله إلا الله ، وتصان بيوتهم من شعائر الشرك ، وطبق مبادىء الإسلام حرمت له الصور والتماثيل والدمى ، حتى تجب مراعاته في ألاعيب الأطفال ، واحتفالات دينية كانت أو العيد الوطني ، أو كان يوم ميلاد للقادة السياسيين أو الأئمة الدينيين ، أو احتفال برفع العلم ، فلا يجوز لمسلم أن يطأطىء رأسه أمام التماثيل ، وأن يمثل تجاهه متخشعاً ، أو يقلدها قلادة الزهور فإن ذلك يعارض حضارته الإسلامية ، وكل مسلم يتشبث بأهداب حضارته الإسلامية ، ويتمسك بها ، يحترز منه ويجانبه في أي بلد كان ، وإن تجاوز حدود التوحيد والشريعة الحجازية وتقليد قوم في الأسماء والاحتفالات والقسم ، وتبجيل الصلحاء وإكرامهم وإظهار التواضع لهم ، يساوي المروق من الإسلام والخروج عليه.

السمة الثالثة عقيدة كرامة الإنسان والمساواة الإنسانية:

والميزة الثالثة العالمية للحضارة الإسلامية في الهند هي

تصور كرامة الإنسان وسيادته وعقيدة المساواة الإنسانية التي فطر عليها المسلم وربي بها ، فصارت طبيعته الإسلامية ، ومن نتيجة هذه العقيدة الطبيعية أن المسلم لا يعرف الفوارق الطبقية والمنبوذ ، فلا يتردد لأياً ما في ذلك ، فيشارك مسلماً في أكله ويلح على أناس آخرين أن يواكلوه ، ويأكل عدة رجال بطيب الخاطر في إناء واحد ، ويأكلون سؤر الآخر من الطعام والشراب ، يصلون في المسجد متكاتفين لا تمييز بين شريف ووضيع ، ويمكن لعالم وضيع في النسب أن يؤم الناس ، ويلتجيء كبار الأشراف ذوو الأحساب والأنساب والحكام ذوو المكانة العالية إلى أن يقتدوا بهذا الإمام .

السمات الفرعية :

هناك سمات فرعية للحضارة الإبراهيمية عدا ما أسلفناه من السمات المبدئية والأساسية يتحلى بها جميع المسلمين في العالم ، أمثال إعمال اليد اليمنى في الأمور الحسنة والأكل بها ، وشرب الماء بها ، والإعطاء والأخذ بها ، وقيود في اللبس ، مثلاً أن يكون اللباس ساتراً، وستر الركبتين وكشف الكعبين ، وتحريم الحرير على الرجال ، والعناية بالطهارة ، وترى التمسك بهذه القوانين والقيود والعض عليها بالنواجذ في كل مكان تبقى فيه الحضارة الإسلامية في صورتها الأصيلة ، وأما الخروج عليها فهو ينتج عن ضعف الحضارة الإسلامية والتأثير الخارجي .

موقف المسلمين إزاء الفنون الجميلة :

ومن ميزات هذه الحضارة ورزانتها وحب الحق ، وموقفها الحازم ، وجهة نظرها المعتدلة إزاء الفنون الجميلة ، وتقديرها للصفاء والجودة ، والنظافة والجمال ، غير أن هذه الحضارة تحرم بعض ما تسميه أوربا من الفنون الجميلة (Fine Arts) مثلاً الرقص ، ورسم صور الحيوانات ونحت التماثيل ، كما تأمر بالحذر والاعتدال في بعضها ، مثلاً الغناء واللحن ، ويجوز أن يتمتع به طبقاً لبعض القيود الخاصة ، أما الانهماك فيه فيعارض روح الحضارة الإسلامية ، وأهدافها وغاياتها ، وتضر بخشية الله والاهتمام بالآخرة ومعياره الخلقي الذي يرجى من مسلم أن يتصف به ، ولو لم تكن هذه المحاسبة من الشريعة الإسلامية ورقابتها لما كان المسلمون قائمين على مركز الاعتدال الذي يمتازون به من بين الشعوب التي كانت ولا تزال معروفة بشغفها بالفنون الجميلة التي هي جزء من عبادتها منذ قديم .

الأخلاق الإسلامية :

ومن أخلاق الإسلام التي أثرت في حضارة المسلمين بوجه خاص ، ومنحتها وحدة وتماثلاً عالميين : القِرى ، وسعة الصدر ، وإطلاق اليدين ، وإنما ذلك ذوق طبيعي ونفسية خاصة لمؤسس هذه الحضارة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وقد خص الله

ذكره في القرآن عندما ذكره: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

وفي سائر الأمم والشعوب التي تتصل نسباً أو عقيدة بسيدنا إبراهيم عليه السلام، وتتأثر بحضارته، يتجلى الاتجاه العام القوي للضيافة والقرى، الذي لفت انتباه كل مؤرخ ورحالة في كل عصر، فسجلوها في مذكراتهم وانطباعاتهم.

ونرى اليوم أيضاً لمعة هذه الضيافة القديمة في مجتمعات الشرق الأوسط التي لم تفقد شخصيتها المميزة رغم الحضارة الغربية، أن الحفاوة التي قوبل بها ابن بطوطة وابن جبير وضيافتهما أنستهم الشعور بالغربة في السفر، ويمتاز المسلمون الهنود اليوم مع كونهم بعيدي العهد عن مركز الحضارة والدعوة الإسلامية، بضيافتهم وذوقهم من بين الشعوب الأخرى وسلسلة الضيوف في البيوتات الإسلامية عادة تستمر اليوم بأقدار مختلفة، ورغم تأثير الثورة الاقتصادية يتهلل وجه كل مسلم بقدوم الضيوف، ويرى استضافته سعادة له وسمة من سمات الإسلام.

تأثير الهند في الحضارة الإسلامية:

من المعالم والآثار التي تتجلى في حياة المسلمين وحضارتهم بوجودهم فيها وتوطنهم منذ قديم، وتأثرهم بالمجتمع الهندي واتصالهم بشعوب مختلفة، لغة «أردو»

الفصيحة السهلة السلسة ، وهي مزيجة من الكلمات العربية والفارسية والتركية والسنسكريتية. . . . وهي معروفة بدقة الخيال والعذوبة والجدة ، والثاني زي الأشراف وأهل البلدان الذي من مبتكرات الهند ، ويشكل نموذجاً رائعاً للذوق الحسن وجمال الأسلوب والمجتمع والحضارة اللتين تكونتا في دلهي ولكهنؤ وحيدر آباد والبلدان الرئيسية في العصر المغولي الأخير ، يبدو فيها الذكاء والظرف والأناقة والثقافة جنباً إلى جنب ، والاحترام البالغ للوالدين ومبادىء الأدب والحياة الخاصة أمامهما ، ومبالغة النساء في التستر ، والقوانين الخاصة لحياتهن ، هذه خصائص يجهل كثيراً منها مسلمو الدول الأخرى، وهي من معطيات شؤون الهند الخاصة ومصالح الطبقة الحاكمة والتأثيرات القديمة بصورة عامة.

ثم الحرص على المصاهرة في نفس الأسرة وذوي أنسابهم وأكفائهم ، وعدم خروجهم عن نطاق الأسرة الخاصة ومعاييرها من ميزات الحضارة الإسلامية في الهند ، أثرت فيها كثيراً المثل النسبية الهندية وتفريق الأسر والسلالة والقبائل بصورة دائمة ، ومسلمو خارج الهند الذين لا يهتمون في العلاقات العائلية إلا بالشرف والمنزلة، ولا يلتزمون بالتزوج في أسرة وعشيرة واحدة ، ينظرون إلى مسلمي الهند بنظرة يملؤها الإعجاب والدهشة ، ويرونها ميزة للهند ، إن الاعتناء المفرط بمراسيم

الزواج والحزن ، والاحتفالات ، والإنفاق في مناسبات خاصة فوق الطاقة والحشمة ، والبذخ ، تعد كذلك من خصائص الحضارة الهندية والمجتمع الهندي ، تأثر بها المسلمون في هذه البلاد ، رغم أن المنهج الإسلامي يقضي البساطة في مثل هذه الأمور.

وكذلك التمييز بين السيد والخادم كأنهما من جنسين مختلفين ومعاملتهم كمعاملة المنبوذين في بعض الأحيان ، كلها من رواسب الحضارة الإسلامية في عهد الانحطاط في الهند ، ونتيجة لنظام الإقطاعية وتصورات الحاكمية وتأثير الحضارات الأخرى ومن خصائص الهند ، وكذلك التفريق الدائم بين القبائل على أساس المهن والحرف.

قد أتحفت الهند وتراثها الحضاري والتمدني للمسلمين بهدايا ثمينة لا تنفك عن الحضارة الإسلامية الهندية ، وأنها ملك يفتخر به ولا نجد له نظيراً في الدول الإسلامية الأخرى ، وهي مقاومة مسلمي الهند لتيارات الحضارات الغربية ، وصمودهم في وجه غزوها العدواني بنجاح وقوة ، وحفظهم لكيانهم وشخصيتهم الممتازة ، وتفكيرهم العميق وتصوفهم ، وكل ذلك نتيجة مختلف العوامل الاجتماعية والفكرية والحضارية التي ظلت تستمر جذورها في هذه البلاد منذ قرون ، فوضعوا أساساً لحضارة إسلامية هندية بديعة ، وأوجدوا طبيعة كانت عصارة

الحضارة الإسلامية العالمية والحضارة الهندية وفلسفتها في وقت واحد.

وكذلك قبلت التصورات والأخلاق الإسلامية ، تطورات وتغييرات إقليمية ، ومع أنها قليلة بالنسبة إلى الحضارات الواردة الأخرى ، والأمم الظافرة التي اتصلت بالحضارة الهندية القديمة ، أثارت مسلماً متألماً وحساساً في العصر الأخير مثل الشاعر الإسلامي الكبير خواجه ألطاف حسن حالي فعاتب الهند على ذلك[١] والحقيقة أن مجرد تأثير حضارة في حضارة وعدم تأثرها بها حادثة يندر نظيرها في تاريخ العالم فإنه لا يطابق فطرة الإنسان والمصلحة ، فإن الحياة الإنسانية تعترف بالمبادىء النبيلة للأخذ والعطاء ، وفي ذلك يكمن سر تقدمها وارتقائها وسعتها وتنوعها.

* * *

---

(١) راجع قصيدته «شكوه هند» (عتاب الهند) في ديوانه.

الحركة العلمية القديمة في الهند
مراكزها ومزاياها

منهج التعليم القديم ومراكزه العلمية :

إن تاريخ منهج التعليم وإعداده ، وأدواره التي مر بها وتطوره في العهد الإسلامي طويل وعسير كذلك ، فإن متابعة هذه المراحل التعليمة تتطلب تحليل الظروف الممتدة إلى ثمانية قرون ، وتنتشر مواد هذه الدراسة ومصادرها في كتب التراجم والتاريخ والسير وأقوال السلف الصالحين ومذكراتهم ، كما يطول تاريخ أساتذة هذا المنهج ، والذين رسموا هذه الخطة التعليمية ، والمعاهد التعليمية التي قبلت هذا المنهج الخاص ، فقد أسس الأمراء المسلمون ، والسلاطين المسلمون ، ومحبو العلم والأغنياء الذين قاموا بتمويل هذا المنهج وإدارته ، مدارس في القرى والمديريات ، وأنشؤوا شبكة للمدارس ، ولا يوجد

اليوم وسيلة لاستقصاء هذه المدارس ، واستخراج تفاصيلها[١] .

وليس في وسع هذا الكتاب كذلك استقصاء التطورات التي طرأت على هذا المنهج التعليمي في مختلف العصور ، والتعديلات التي أجريت فيه حسب الظروف والمقتضيات ، والأسر والأماكن التي احتلت المكانة المرموقة ، والرئاسة ، ومحل القيادة في تسيير هذه الشبكة وترقيتها ، وإنه لموضوع يتطلب تأليف كتاب مستفيض محقق ، ونقدم هنا تلخيصاً بإجراء بعض تعديلات يسيرة لمقال كتبه العلامة عبد الحي الحسني أحد كبار مؤرخي العصر الإسلامي في الهند ، ويكشف المقال عن بعض مزايا هذا النظام الذي ساد البلاد كلها ، ومراحل تطوره التي أغفلتها كتب التاريخ العام فيقول في مقاله[٢] :

«إن التاريخ يدلنا على أن العلم وصل إلى هذه البلاد مع الغزاة

---

(١) وقد بذل العلامة عبد الحي الحسني في كتابه الجليل «جنة المشرق» جهده للتنقيب عن هذا النظام السائد ، الذي تشير إليه كتب السير والتاريخ بصورة غير مباشرة ، تبلغ عدد المدارس المذكورة في الكتاب والمعرفة فيه ١٠٣ مدرسة ، ويجدر بالذكر أن هذه المدارس تضم مدرسة نسائية أيضاً ، وكان من مساعدي هذه المدارس وممديها عدد من الأميرات أيضاً.

(٢) مجلة «الندوة» (العهد الأول ١٩٠٩ ج٦ عدد١) وقد أفرد هذا المقال للنشر باسم «منهج التعليم في الهند وتطوراته».

وأن كل تغير أو تحول وقع في بلاد ما وراء النهر والعراق حيناً بعد حين أثر على منهج التعليم السائد في الهند كذلك.

السند وملتان:

لقد استنارت صحراء السند وملتان بالعلم قبل كل بلد آخر، وامتد بريق العلم إلى أن شمل الهند كلها بنوره، وقد استفاد ملوك غزنين بهذا النور، وسبقوا إليه عندما حولوا لاهور عاصمة للهند.

دهلي:

وتدفق العلماء ورجال الفن إلى دهلي عندما نالت العلوم التشجيع من البلاط بعد فتح دهلي، فاجتمع عدد من العلماء العباقرة في هذا البلد، فأصبحت المدينة مورداً عذباً للعلم يرد إليه المتعطشون للعلم ورواده من كل فج عميق للتعليم والاستفادة.

فكانت دهلي في عهد غياث الدين بلبن، وكل بقعة منها تمثل مآثر قرطبة وبغداد، وتحيي ذكرياتها لوجود أفذاذ من العلماء مثل شمس الدين الخوارزمي، وشمس الدين قوشجي، وبرهان الدين البلخي، وبرهان الدين البزاز، ونجم الدين الدمشقي، وكمال الدين زاهد، وغيرهم من كبار العلماء.

وفي عهد علاء الدين الخلجي اجتمع في المدينة علماء يزيد

عددهم على ٤٦ عالماً ، أمثال ظهير الدين بهكري ، وفريد الدين الشافعي ، وحميد الدين مخلص ، وشمس الدين ، ومحيي الدين الكاشاني ، وفخر الدين البانسوي ، ووجيه الدين الرازي ، وتاج الدين القدم ، وذكر المؤرخ ضياء الدين البرني المشهور بتاريخه ، أنه لم يجتمع مثل هذه النخبة من العلماء في بلد آخر في العالم .

وكان في عهد محمد شاه تغلق علماء أمثال معين الدين العمراني ، والقاضي عبد المقتدر ، ومولانا خواجكي ، والشيخ أحمد التهانيسري ، الذين ربوا مثل الشيخ شهاب الدين الدولة آبادي ، فصار ملك العلماء ، فكان يشار إليه بالبنان، وتشد إليه الرحال .

ووصل في عهد فيروز شاه الشيخ جلال الدين الرومي ، وأسند إليه منصب عميد المدرسة الملكية ، ووصل في نفس العهد الشيخ نجم الدين السمرقندي ، فسقى البلاد بعلمه ، وروى المسترشدين .

وفي عهد سكندر لودي وصل إلى ملتان الشيخ عزيز الله التلنبي ، والشيخ عبد الله ، فرفعا مستوى علم المنطق والفلسفة وعززا المنهج وحسناه .

وفي عهد الملك التيموري أكبر قدم الشيخ فتح الله شيرازي

الملقب بعضد الملك ، وطار صيته في البلاد ، وفي نفس العهد نال فن الطب الأهمية القصوى بورود الطبيب شمس الدين ، وابن أخته الطبيب علي الكيلاني ، كما خدم الشيخ عبد الحق علم الحديث فطبق الآفاق.

وفي عهد شاهجهان وعالمكير ، لمع نجم مير زاهد ، فسخر القلوب ، وبهر العيون بمباحثه ومناقشاته ، ونكته الدقيقة ، فصار يعد كأنه مؤسس منهج التعليم النظامي ، فكان من تلاميذه قاضي مبارك ، وأسرة الشيخ ولي الله الدهلوي الشهيرة التي تضم الشيخ عبد العزيز ، والشيخ رفيع الدين ، والشيخ عبد القادر ، والشيخ عبد الحي ، والشيخ محمد إسماعيل ، والشيخ محمد إسحاق ، والشيخ رشيد الدين ، ومن تلاميذ هذه الأسرة النجباء المفتي صدر الدين خان ، والشيخ مملوك العلي الذين يعدون أساتذة الهند ، وشيوخ العصر ، ويرجع إليهم أصل جميع نظم التعليم المعاصر.

لاهــور:

أحرزت لاهور قصب السبق في العلم وازدهاره ، ولكن تطور دهلي أخمد حركة العلم في لاهور لبعض الوقت ، ثم استعادت لاهور دورها فازدهرت العلوم فيها بوصول جمال الدين تله ، وكمال الدين الكشميري ، والمفتي عبد السلام ، والملا عبد الحكيم السيالكوتي ، وأمثالهم من مشاهير العلم ، فتوجه

إليها ألوف من طلاب العلم وخطابه ، واغترفوا من هذا المنهل .

جونبـــور :

أنجبت جونبور برعاية وتشجيع السلاطين الشرقيين ، علماء أمثال الشيخ أبي الفتح شهاب الدين الدولة آبادي ، والشيخ إله داد ، والشيخ محمد أفضل أستاذ الملك ، والعلامة محمود صاحب «الشمس البازغة» وديوان عبد الرشيد ، والمفتي عبد الباقي ، وملا نور الدين ، ففتحوا البلاد كلها بعلمهم ، وطبق صيتهم الأرجاء كلها .

كجـــرات :

ونبغ في كجرات الشيخ محمد طاهر الفتني صاحب «مجمع بحار الأنوار» والشيخ وجيه الدين العلوي الكجراتي ، وملا نور الدين ، وغيرهم ، فرووا شجرة العلم ، وفي هذا العهد ترعرع القاضي ضياء الدين من سكان نيوتني في كنف الشيخ وجيه الدين ، ونال التربية منه في كجرات ، وانتقل إلى وطنه بعد نبوغه في العلم ، فاستفاد منه العلامة لطف الله ، ونبغ في تلامذته الشيخ أحمد صاحب «التفسيرات الأحمدية» و«نور الأنوار» المعروف بملاجيون ، وملا علي أصغر ، وملا محمد أمان ، وقاضي عليم الله ، وكان كل منهم رئيس مذهب وطريق ، وانتهت إليهم رئاسة التدريس في عهدهم .

إلـه آبـاد :

وفي إله آباد رفع راية العلم والتدريس الشيخ محب الله ، وقاضي محمد آصف ، والشيخ محمد أفضل ، والشاه خوب الله ، والشيخ محمد طاهر ، والحاج محمد فاخر زاير ، والمولوي بركت ، والمولوي جارالله ، وعلماء آخرون خدموا العلم فنفقت سوقه على أيديهم مئة سنة تقريباً .

لكهنـؤ :

وانتقلت هذه التحفة السنية أولاً إلى لكهنؤ من جونفور بفضل الشيخ أعظم أبو البقاء الكرماني ، ثم تولى هذا المنصب الشاه بير محمد ، وكان تلميذه غلام نقشبند ، فوسع مجال الإفادة ، وجذب الأنظار ، وذاع في عهده صيت الشيخ قطب الدين السهالوي الذي كان عالماً كبيراً مشهوراً في طريق الشيخ عبد السلام الديوي ، والشيخ محب الله الإله آبادي ، وبعد شهادة الشيخ قطب الدين خلفه في نشر العلم وتخريج الطلبة ولده ملا نظام الدين ، وانتهيت إليه الإمامة في التدريس وتربية الأساتذة ، وتحولت لكهنؤ إلى مركز نشاط علمي ، فأعد منهجاً للتدريس قبلته جميع المدارس قبولاً عاماً مرضياً ، ونبغ في أسرته ملا حسن ، والعلامة عبد العلي المعروف ببحر العلوم ، وملا مبين ، والمفتي ظهور الله ، ومولوي ولي الله ، والمفتي محمد

أصغر ، والمفتي محمد يوسف ، والمولوي نعيم الله ، والمولوي نور الله ، والمولوي عبد الحكيم ، والمولوي عبد الحليم ، والعلامة عبد الحي ، وأمثالهم ، فكان كل عالم منهم نابغة عهده وفريد نوعه ، يندر مثاله في أسرة أخرى.

المناطق الريفية في شمال الهند:

ولم يأل أحد من هؤلاء العلماء الذين تتلمذوا على شيوخ هذه الأسرة العلمية جهداً في نشر العلم ، فانتشروا في الأرض ، وجابوا البلاد ، فكان ممن حملوا لواءه الشيخ قطب الدين الشمس آبادي ، وقطب الدين الكوبامئوي ، ومحب الله البهاري ، وأمان الله البنارسي ، وملا كمال الدين ، ومولوي بركت ، ومولوي حمد الله ، ومولوي ياد الله ، ومولوي فضل إمام ، ومولوي فضل حق ، وفلذة كبده المولوي عبد الحق ، كانوا جميعاً كباقة زهور في هذه الحديقة العلمية.

فانتشر العلم في سائر أنحاء ولاية الهند الشمالية المعروفة في ذلك العهد بـ«أوده» ونفقت سوقه ، فلم يبق مكان إلا وقد استنار بالعلم والمعرفة ، وكانت أهم هذه الأماكن جائس ، وهرجام ، ونيوتني ، وكوبامئو ، وبلجرام ، وسنديله ، وكاكوري ، فقد أنجبت هذه الأماكن العلماء بكثرة لا يوجد مثيلها في أماكن أخرى.

أدوار مختلفة لمنهج التعليم :

ويجدر بنا أن نقسم مراحل المنهج التعليمي إلى أربعة أدوار توخياً للسهولة ، أو أن نجمع هنا تفاصيل الكتب الرائجة في ضوء ما تذكره طبقات المشايخ والشعراء ، والمذكرات أو مجموعات الكتب والخطب[١] .

الدور الأول :

يبدأ من القرن السابع الهجري وينتهي في القرن العاشر حيث بدأ الدور الثاني ، فكانت دراسة الفنون الآتية لازمة في هذا الدور ، وهي الصرف والنحو ، والبلاغة ، والفقه ، وأصول الفقه ، والمنطق ، والكلام ، والتصوف ، والتفسير ، والحديث .

وعندما ندرس أحوال العلماء في هذا الدور نرى أن الفقه وأصول الفقه كان مقياس الفضيلة، كما يعتبر المنطق والفلسفة مقياس العلم في هذا العصر .

الدور الثاني :

وصل الشيخ عبد الله والشيخ عزيز الله من ملتان في أواخر

---

(١) حذفنا أسماء كتب المنهج التعليمي لأنها لا تخص إلا برجال الفن ، فمن أراد التفصيل فليراجع مقدمة «الثقافة الإسلامية في الهند» .

القرن التاسع الهجري[١] ، واستوطن الشيخ عبد الله دهلي ، والشيخ عزيز الله سنبهل ، ورحب بهما الملك سكندر لودهي ترحيباً حاراً ، حتى إن الملك نفسه كان يحضر مجلسهما ، وكان قد بلغ من احترامه وإجلاله لهما أنه كان يجلس في زاوية من المسجد لكيلا يحدث قدومه اضطراباً في مواصلة الدرس ، وكان يستمع إلى محاضرة الشيخ باهتمام وشوق ، ثم يتشرف بلقاء الشيخ عبد الله بعد انتهاء الدرس .

وذاع صيت الشيخين بسرعة في أنحاء الهند لما كانا يتمتعان به من تفوق علمي ، ويتصفان بكمال وفضل مرموقين ، ويتميزان بهما عن أقرانهما ، ولتشجيع الملك ، وأجريا تعديلات في منهج التعليم ، ورفعا مستوى الفضيلة ، فأدخلا من مؤلفات القاضي عضد ، المطالع والمواقف ، وكتاب مفتاح العلوم للسكاكي ، فأصبحت هذه الكتب متداولة بسرعة .

وفي هذا العهد نالت شروح المطالع والمواقف[٢] القبول العام بمساعي تلامذة مير سيد شريف، كما أدخل تلامذة تفتازاني

---

(١) كلاهما كان من سكان تلنبه الواقعة في ضواحي ملتان.

(٢) كتاب في المنطق للمنتهين.

كتاب المطول والمختصر[١] والتلويح[٢] وشرح عقائد نسفي[٣].

وضم المنهج في نفس الفترة شرح الوقاية[٤]، وشرح ملا جامي[٥].

وارتحل إلى الحجاز أكبر عالم في عصره وهو الشيخ عبد الحق المحدث من الهند، ومكث في الحجاز ثلاث سنوات وأكمل دراسة الحديث النبوي الشريف على علماء الحرمين الشريفين، ونقل هذه الثروة العلمية، فعكف هو وأولاده النبغاء على نشر هذا العلم، ولكن لسوء الحظ لم ينل هذا العلم القبول في عهدهم، فكان هذا الشرف حليف الشيخ ولي الله الدهلوي، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

الدور الثالث:

كان التغيير الذي حدث في منهج التعليم في الدور الثاني قد أثار آمال الناس وطموحهم ورفع مستوى العلم، فطمحوا إلى

---

(١) في فن المعاني والبيان، ولا تزال هذه الكتب مدرجة في المنهج.
(٢) في أصول الفقه.
(٣) في علم العقائد.
(٤) في الفقه الحنفي.
(٥) كتاب في النحو مزيج باستدلال منطقي.

رفع هذا المستوى إلى درجة أعلى ، فكان قدوم الشيخ فتح الله الشيرازي باعثاً جديداً ، وحافزاً على التقدم في التعليم في المعاهد التعليمية ، ولقبه البلاط الأكبري بعضد الملك ، فقبل العلماء التعديلات التي أجراها الشاه فتح الله الشيرازي في المنهج الدراسي .

من الظلم أن ننسى في هذه المناسبة خدمات الشيخ وجيه الدين العلوي الكجراتي ، فقد كان هذا الرجل الصالح تلميذاً للباحث المحقق الدواني بطريق واحد ، فأدخل في المنهج مؤلفات المتأخرين ، فلم تكن منطقة كجرات وحدها المتمتعة بهذا السيل العلمي ، بل وصلت روافده إلى الهند الوسطى ، وقد كان القاضي ضياء الدين من سكان نيوتني فنقل هذه الثمرة إلى هذه المنطقة من كجرات ، فجناها الشيخ جمال ونشر هذه التحفة إلى أقصى المناطق ، وكان الملا لطف الله تلميذاً رشيداً للشيخ جمال ، فقرأ عليه ملا جيون صاحب «نور الأنوار» ، وملا علي أصغر ، والقاضي عليم الله ، وملا محمد زمان ، وغيرهم من العلماء ، وكان كل عالم منهم صاحب مدرسة وسلسلة ، ولكن لم ينل هذا المنهج القبول العام إلا بجهود العلامة فتح الله الشيرازي الذي انتشر تلامذته وتلامذة تلامذته في أنحاء الهند المختلفة ، وروجوا هذا المنهج .

كان المفتي عبد السلام من أجل تلامذة فتح الله وقد درس

أربعين سنة في لاهور ، وأفاد ألوفاً من طلاب العلم ، ولكن لم ينل الشرف العلمي ، والخلود العلمي إلا بضعة طلبة من ألوف منهم ، وكان من هؤلاء الأمجاد الذين نالوا هذا الشرف والامتياز ، الشيخ محب الله من إله آباد ، والمفتي عبد السلام من ديوه ، فقرأا على الشيخ عبد السلام في لاهور وأنشأا مركزهما ، وكان الشيخ قطب الدين السهالوي تلميذاً لهما بواسطة واحدة ، وهو والد الشيخ نظام الدين مؤسس المنهج النظامي الشهير.

كان الشيخ ولي الله (م١١٧٦هـ) آخر وأشهر عالم لهذا العصر ، وقد زار الشيخ ولي الله الدهلوي الحجاز ، وقرأ الحديث الشريف على الشيخ أبي طاهر المدني عدة سنوات وأكمل الدراسة ، ثم نقل هذا العلم إلى الهند ، وعكف على نشره وخدمته ونشط فيه فخلف أثراً خالداً ، ولا يزال يلمس رغم كساد السوق ، ولا أكون مبالغاً إذ قلت إن درس الصحاح الستة وتدريسها في الهند مدين كلياً لخدمته ، ويرجع أصله إلى عهده ، وقد بذل الشيخ ولي الله وخلفه الصالحون البررة حياتهم كلها في خدمة هذا العلم ونشره.

وأعد الشيخ ولي الله الدهلوي حسب ذوقه وفكره منهجاً جديداً ، ولكن مركز الثقل العلمي في ذلك العهد كان قد انتقل لأسباب سياسية من مدينة دلهي إلى لكهنؤ حيث نال المنطق والفلسفة قولاً وأهمية ، فلم يحظ هذا المنهج بالقبول والشعبية.

الـدور الرابـع :

يبدأ الدور الرابع من القرن الثاني عشر الهجري ، وقد قام بتأسيسه الشيخ نظام الدين بقوة وعزم وهمة ، ففاق جميع المناهج وقهر الألباب ، فلم يناهضه منهج آخر ، ولا يزال يحتفظ بقوته وجاذبيته ولم ينقص منه شيء[١] .

* * *

---

(١) هذا الحكم كان يطبق على الظروف السائدة قبل خمسين سنة ، وقد قادت ندوة العلماء حركة تغيير المناهج الدرسية، وملكت جهود القائمين بها بالنجاح، وأخذت المعاهد تعيد النظر في مناهجها الدراسية وتجري تعديلات جوهرية فيها.

مزايا منهج التعليم القديم

لم يكن نظام التعليم القديم منزهاً عن النقائص ومواطن الضعف كلياً ، فقد كانت عدة من نواحيه تحتاج إلى الإصلاح والنقد والتنقيح من الناحية الفنية ، لكنه كان يحمل بعض خصائص ومزايا خاصة بفضل ما كان يتسم به المسؤولون عنه والداعون إليه من صفات شخصية وروح دينية وطبيعة امتيازية ، فسرت إلى ذلك النظام تلك الخصائص الشخصية التي تعوز النظام الجديد للتعليم ، ونذكر فيما يلي بعض هذه الخصائص البارزة التي نجدها منتشرة في كتب التاريخ ، وقد انتقلت هذه الخصائص جيلاً بعد جيل إلى طبقات المعلمين ، والمدرسين ، وتلامذتهم.

الإخلاص والإيثار:

كانت الميزة الكبرى التي كان يتسم بها الأساتذة في العهد الماضي والتي كانت شعارهم الخاص ، هي الإخلاص والإيثار ،

وحيث إن الثواب في الآخرة للتعليم والتعلم والفضيلة الدينية للمعلم والأساتذة كان مرتسماً في مخيلتهم ، أصبح ذلك عقيدتهم وجزءاً من إيمانهم ، فكانت أغلبيتهم الغالبة تسعى من وراء التعلم والتعليم إلى نيل مرضاة الله ، وحصول الثواب والأجر في الآخرة ، وكان يعتبر هذا الشغل أفضل عبادة وسعادة عليا لها ، فخلد عدد كبير من هؤلاء الطالبين للعلم آيات الإيثار والزهد ، والعيش بالكفاف ، والتركيز الكامل على شغلهم العلمي ، يقاسون في ذلك الجوع والفقر ، ويحتملون كل مكروه ومضايقة بطيب الخاطر ، وإن تاريخ العلم وطبقات العلماء في الهند ، حافل بذكر هؤلاء الأساتذة العظام ، وزهدهم في الحياة وإيثارهم ، والفقر والجوع الذي احتملوه في حياتهم ، وابتعادهم عن ملذات الحياة ، ومن بين القصص المؤثرة للإيثار وتحمل المكروه نورد هنا قصة غريبة تدل على ما أسلفنا .

يحكي مؤرخ الهند مولانا غلام علي آزاد البلكرامي في «مآثر الكرام» قصة لمحدث بلكرام الشهير ، والأستاذ الكبير ، مير سيد مبارك (م ١١١٥ هـ) نقلاً عن أستاذه مير طفيل محمد :

«حضرت مرة في مجلس مير مبارك ، وكان قد نهض من مجلسه للوضوء ، إذ زلت قدمه وسقط ، فأسرعت إليه وأخذت بيده ، وأردت أن أجلسه ، وقد أغمي عليه ، فلما أفاق سألته عن سبب هذا الضعف والنقاهة ، فلم يقل كلمة وظل صامتاً ، فلما

أصررت عليه ، قال إنه لم يأكل لقمة واحدة منذ ثلاثة أيام ، ولم يتضح أمر مير مبارك على أحد ، لأنه كتم أمره ، ولم يقبل شيئاً من أحد ، وقد أثر ذلك على نفسي ورق له قلبي ، فذهبت إلى بيتي وأحضرت لأستاذي طعاماً كنت أظن أنه مرغوب لديه ، فلما رأى الخوان بين يديه أظهر سروره ، ودعا لي بخير ، ثم قال: بارك الله فيك وفي طعامك ، ولكن هل تقبل عذري فيه يا ولدي؟ ثم قال بعد برهة: إنه طعام إشراف لما اصطلح عليه الصوفية ولو أن مثل هذا الطعام مباح باعتبار الفقه ، وأن الشريعة تبيح أكل الميت بعد ثلاثة أيام من الجوع ، لكن في مذهب التصوف والزهد لا يجوز أكل طعام الإشراف[١].

سمعت كلام أستاذي فلم أقل شيئاً ، ورجعت عن مجلسه ، وحملت الخوان ، وتوقفت برهة على الباب وانتظرت ، ثم عدت ثانية أحمل الصينية فوق رأسي وقلت: هل كنت يا سيدي تتوقع هذا الطعام بعد رجوعي؟ قال: لا ، قلت: إذاً لا حرج الآن في تناوله ، وأعجب أستاذي بكلامي وحجتي ، وقال: لقد غلبتني بذكائك وتأويلك ، ثم أكله برغبة وشوق[٢].

---

(١) طعام الإشراف: هو الطعام الذي أشرفت إليه النفس وتوقعه الآكل.

(٢) مآثر الكرام ص ٩٦ ـ ٩٧.

إن هذه القصة رغم كونها غريبة وغير عادية ، ليست فريدة من نوعها في تاريخ الهند العلمي والديني ، الذي هو حافل بقصص الأساتذة وزهدهم وقناعتهم ، حتى إن الفقر والجوع أصبح ميزة هذه الطبقة وطبيعتها[١] .

ولا تقلّ أثراً قصة أخرى تدل على الإيثار والعمل بإخلاص وتركيز كامل للمعلمين ، يرجع عهدها إلى القرن الثالث عشر للهجرة .

«كان الشيخ عبد الرحيم (م١٢٣٤هـ) يدرس في رامبور ، وعرض عليه والي منطقة «روهيل كهند» الإنجليزي المستر هاكنس منصب التدريس في كلية «بريلي» براتب شهري يبلغ مئتين وخمسين روبية (تقدر قيمته الآن بأكثر من ألفي روبية)ووعده بأن راتبه سيزاد فيه ويرفع مستواه ، فاعتذر قائلاً بأن إمارته تدفع إليه عشر روبيات ، وستوقف هذه المنحة ، فقال له هاكنس : إنه عرض عليه أضعاف هذا القدر وما عشر روبيات أمام مئتين وخمسين روبية؟ ، فقال : إن في بيتي شجرة سدر حلوة وهي محببة إلي كثيراً ، فكيف السبيل إليها في بريلي؟ ولم يتطرق

(١) نزهة الخواطر ١ ـ ٢، ومآثر الكرام للبلكرامي ، وتذكرة علماء الهند للشيخ رحمن علي ، و«نظام تعليم وتربيت» للعلامة السيد مناظر أحسن الكيلاني .

ذهن هذا الإنكليزي إلى حقيقة الأمر الذي كان يدور بخلد الشيخ فقال: إني سأرتب لإيصال ثمرة هذه الشجرة إليك في بريلي، فقال: إن لي تلاميذ في رامبور، فكيف أتركهم، وسأحرم فرصة خدمتهم، وحاول الإنكليزي إقناعه، فقال: إني سأقدم إليهم المنح الدراسية وسيواصلون دراستهم في بريلي، ولم يبق في جعبة الشيخ إلا سهمه الأخير، فأطلقه وقال: صحيح ما تقول، ولكن ما يكون جوابي يوم القيامة على الارتزاق بالتدريس؟[١].

التكريس على العمل:

إن انهماك الأساتذة والمعلمين في العهد الماضي في تدريسهم، واستغراقهم فيه كان قد بلغ أقصى حد، لا يمكن تصوره بدون مثال، فقد كان التعليم والتعلم غذاء روحياً لهم وعبادة ووِرداً لهم، فكانوا يخصصون معظم أوقات حياتهم، وجل وقت نهارهم وليلهم للتدريس، فدرس ملك العلماء العلامة وجيه الدين الكجراتي ٦٥ ـ ٦٧ سنة، والشيخ عبد السلام اللاهوري، والملا عبد الحكيم السيالكوتي، والشيخ علي أصغر القنوجي درسوا ٦٠ سنة، والشيخ أحمد الأميتهوي المعروف بملا جيون درس طول حياته وحتى في آخر يوم حياته، وقس على ذلك.

---

(١) ماذا خسر العالم للمؤلف نقلاً عن نزهة الخواطر ص: ٣٢.

كانت جميع أوقات المعلمين باستثناء الحاجات البشرية اللازمة والكفاية من الراحة تصرف للتدريس ، فكان ذلك الشغل الشاغل لهم ، وقد درس بعضهم وحتى أثناء الطعام ، والسير في الطريق ، يقول الشيخ عبد القادر البدايوني عن أستاذه عبد الله البدايوني: إنه كان يذهب إلى السوق بنفسه لشراء حاجاته ، وكانت جماعة الطلبة ترافقه فكان يدرسهم في الطريق[١].

كان العالم الجليل للعهد الأخير العلامة عبد الحي اللكهنوي يخصص لبعض الطلبة وقتاً قبل صلاة الفجر أيضاً ، وكان ذلك من عادة بعض الأساتذة القدماء.

الصلات مع الطلبة والعطف عليهم:

كانت تقوم صلات وثيقة بين الطلبة والأساتذة وعلاقات لا يوجد لها مثيل في العصر الحاضر ، وفي النظام التعليمي المعاصر ، فكانت الطلبة مثل أولاد الأساتذة ، بل أعز منهم ، يكفلونهم ويشركونهم في طعامهم ، وذكر عن المدرس المشهور الحكيم علي الكيلاني وهو من كبار الأطباء في العهد الأكبري ، وطبيب أكبر الملكي أنه كان يدرس الطلبة دائماً ولا يأكل الطعام بدونهم[٢].

---

(١) منتخب التواريخ.

(٢) تذكرة علماء الهند ص٥١.

وكانت صلة أستاذ الملك الشيخ محمد أفضل الجونبوري مع طلبته أوثق ، فلما توفي تلميذه العلامة محمود الجونبوري الذي كان يحبه كثيراً ويقربه إليه ، صدم صدمة عنيفة لم يحتملها ، يقول الشيخ غلام علي آزاد البلكرامي : «لم ير أحد الأستاذ يبتسم أربعين يوماً ، وبعد أربعين يوماً التحق بتلميذه»[١] .

وجه المنشي صدر الدين خان دعوة إلى ملك العلماء عبد العلي بحر العلوم للتدريس في بوهار (بردوان) وعرض عليه راتباً كبيراً ، فاعتذر بحر العلوم قائلاً : معي مئة طالب لا أستطيع مفارقتهم بدون أن أتأكد من توفير وسائل طعامهم وإقامتهم ، فلما تكفل لهم المنشي وتحمل المسؤولية عنهم ، توجه إليه ، وقرر النواب والإجاه في مدراس ألف روبية شهرياً له ، وكان بحر العلوم يصرف هذا المبلغ كله على الطلبة ، لا يصل شيء منه إلى أسرته التي كانت تعيش في لكهنؤ ، فاضطر ولده (الشيخ عبد النافع) إلى السفر إلى مدراس ، وتحدث إلى والده في ذلك لكن والده لم يغير من عاداته وأخفق ابنه وعاد إلى وطنه[٢] .

إن مثل هذه القصص ليست غريبة في تاريخ العهد الإسلامي في الهند ، إنها منتشرة، وقد شهد علماء ذلك العهد وجيله نماذج

---

(١) مآثر الكرام.
(٢) نزهة الخواطر ج٧ ترجمة الشيخ عبد النافع اللكهنوي.

العطف والشفقة من أساتذتهم بعينهم.

علاقة الطلبة مع أساتذتهم:

كان الطلبة كذلك مرتبطين بأساتذتهم ارتباطاً وثيقاً، تقوم بينهما علاقة وثيقة، علاقة السعادة والارتباط الروحي، والتعلق القلبي، وقد خلد التاريخ قصة العلامة نظام الدين اللكهنوي، فلما ذاع خبر وفاته فقد تلميذه السيد ظريف العظيم آبادي بصره بكاءً على أستاذه، ولم يستطع تلميذه الآخر السيد كمال الدين العظيم آبادي[١] أن يحتمل هذه الصدمة فوافته المنية، ثم علم أنه حي، وأن الخبر كان مجرد إشاعة، لو أن هذا الحادث نادر الوقوع، لكن ولاء الطلبة وفداءهم وحبهم العميق مع أساتذتهم، والتفاني فيهم، كان ميزة ذلك العهد، وشعار ذلك الجيل، ويدل على ذلك ما كتبه العلماء في تراجم أساتذتهم.

تشجيع الأمراء والملوك:

وكانت الميزة الأخرى لنظام التعليم القديم أن الملوك والأمراء وولاة الأمر وحكام المدن، كانوا يعتبرون خدمة العلماء المخلصين والأساتذة والمربين الأجلاء، وتوفير راحتهم سعادة وشرفاً لهم، ووسيلة لنجاتهم في الآخرة، وفلاحاً لهم، ويوجد في تاريخ الهند أمثلة كثيرة لهذا التشجيع الملكي للعلم

---

(١) نزهة الخواطر ج٦.

والعلماء ، فقد حرص ولاة الأمر على إراحة العلماء والمشايخ ، فيقول مؤلف «تاريخ فرشته» (محمد قاسم بيجابوري) :

«أصيب مرة ملك العلماء القاضي شهاب الدين الدولة آبادي بمرض شديد ، فذهب السلطان إبراهيم الشرقي إليه ليعوده ، وبعد عيادته والاستطلاع عن صحته ، والتدبير لعلاجه طلب الملك كأساً من الماء ، وأدار الكأس على رأس الشيخ وشربها ، ثم قال: يا رب ، أنزل البلاء المقدر للقاضي علي ، واكتب له الشفاء»[١] .

أعرب الإمبراطور أكبر عن حزنه وأسفه على وفاة الأمير فتح الله الشيرازي قائلاً :

لو كان الفرنج اعتقلوه ، وطلبوا كل ما أملك من ثروة فدية له ، لكانت هذه الصفقة رخيصة ورابحة ، ولكانت هذه القيمة زهيدة.

وزن شاهجهان الملا عبد الحكيم السيالكوتي مرتين بالفضة ، والقاضي محمد أسلم الهروي (والد العلامة مير زاهد) مرة بالذهب ، وكانت هذه عادة الملوك القدماء لإظهار احترامهم وتقديرهم وإجلالهم.

---

(١) تاريخ فرشته ج٤ ص٦٧٧ ، توفي القاضي بعد السلطان في نفس السنة ٨٤٠هـ أو بعد عامين في سنة ٨٤٢هـ.

وقد صور صاحب «الأغصان الأربعة» الشيخ ولي الله اللكهنوي الطريقة التي قوبل بها الشيخ عبد العلي بحر العلوم لدى وصوله إلى مدراس بالكلمات الآتية :

«لما وصل موكبه إلى باب القصر الملكي ، أراد الشيخ أن ينزل ، فأشار النواب والإجاه بأن يجلس ، وجعل المحفة على كاهله ونقلها إلى قصره ، وأجلسه في محله وقبل رجليه ، وقال : ما أسعدني! أن شرفتني ونورت مكاني» .

علاوة على الأمراء والملوك والوزراء ، كان الأثرياء وأصحاب الإقطاعات يتسابقون كذلك إلى تكفل المدارس ورجال المدارس ، ويعتبرون هذه الفرصة غالية ، وسعادة لهم ، وإلى همتهم العالية وتشجيعهم يرجع فضل هذه الشبكة للمدارس والمعاهد المنتشرة في البلاد إلى عصرنا هذا ، يقول مولانا غلام علي آزاد البلكرامي وهو يصف وضع ولايته (أوده) وتقاس به أحوال الولايات الأخرى للهند :

«كانت مستعمرات الأشراف والأسر العالية واقعة على بعد حوالي خمسة أميال أو عشرة أميال في سائر منطقة (أوده) وإله آباد العامرة الرئيسية ، وقد خصص لهم السلاطين والأمراء والحكام منحاً ورواتب ومخصصات لهم وإقطاعات ، فعمروا بأموالهم مساجد وأنشؤوا مدارس ، وزوايا عامرة بالأساتذة والمعلمين الذين كانوا لا يألون جهداً في التعليم والتثقيف في أي مكان ،

وقد أثاروا عاطفة وولهاً بالتعليم وحرصاً على نيله ، فكان ينتقل الطلبة أفواجاً أفواجاً وجماعات ووحداناً من بلد إلى بلد آخر ، يضعون عصا الترحال حيث وجدوا منهلاً عذباً يروي غليلهم العلمي ، ويرعى شؤونهم ، ويوفر راحتهم كل من وفقه الله وآتاه مالاً وهمة ، ويعتبرون خدمة الطالبين شرفاً عظيماً لهم ، وقال الأمير شاهجهان : إن مملكتي شيراز الهند .

إصلاح الباطن والعلاقة مع رجال القلب :

وكانت الميزة الخاصة التي تجدر بالذكر أن هذا النظام والقائمين به والمسؤولين عنه كانوا رغم انهماكهم بالعلم وتبحرهم العلمي ، وحذقهم في الفن وشعبيتهم والاعتراف بعظمتهم وكمالهم ، لا يغفلون تزكية نفوسهم وتوثيق علاقتهم مع الله ، فكانوا في الوقت الذي يبذلون فيه جهدهم لتحصيل العلم والكمال في الفن ، وخدمة رجال الفن ، كانوا يبحثون عن أصحاب القلب السليم والشيوخ الذين يزكون نفوسهم ، فكانوا يقومون بخدمتهم ويلازمون صحبتهم ويحسبون رضاهم وحبهم مكملاً لسعيهم وجهدهم ، لا يعترض في هذا السبيل شرفهم العلمي ، وتفوقهم الفني ، وقبولهم الشعبي ، فبينما كانوا غيارى وكانوا يبدون كل أنفة وحشمة ، فإن السلاطين كانوا أمام هؤلاء المشايخ الفقراء متواضعين ، فاقدي الإرادة والنفس ، فكان

التواضع والغيرة تمتزج بها طبيعتهم، ويشكل العنصر الرئيسي لسيرتهم.

ولا يمكن التجاهل عن ناحية غريبة للتاريخ العلمي للهند، وهي أن الشخصيات التي خصها الله بالفضل والمجد العلمي، والخلود في التاريخ التي حكمت بعلمها العالم العلمي للهند عدة قرون، كانت مرتبطة بحال من الأحوال مع شيخ من شيوخ عهدها، ورجل صالح متق من أتقياء عصرها، وقد أثر على الأوساط العلمية في الهند أولاً ثلاث شخصيات، ورفع لواء العلم والثقافة تلامذتهم وتلامذة تلامذتهم عدة قرون، وهذه الشخصيات والأساتذة الثلاثة هم العلامة عبد المقتدر الكندي (م٧٩١هـ) وتلميذه الشيخ خواجكي الدهلوي (م٨٠٩هـ) والشيخ أحمد التهانيسري (م ٨٠١ هـ) وكان هؤلاء الثلاثة كلهم من مسترشدي ومريدي الشيخ نصير الدين جراغ دهلي.

وكانت الشخصية الأخرى في السلسلة العلمية العلامة وجيه الدين بن نصر الله الكجراتي (م٩٩٨هـ)، قضى من عمره ستين سنة في أحمد آباد في تدريس العلوم العقلية والنقلية، وانتشر تلامذته من أحمد آباد إلى لاهور، وانهمكوا في التعليم والتدريس، ونالوا شرف أستاذ الأساتذة في حياته[١].

(١) تاريخ كجرات للعلامة عبد الحي الحسني.

وكانت المدارس الشهيرة في كوره جهان آباد ، وأميهتي وجونبور ، ولكهنؤ ، تستنير بهذا النور ، كان العلامة المذكور من خلفاء ومسترشدي الشيخ محمد غوث الكوالياري ، وأدركه دعاؤه وبركته ، وكان أستاذه في هذه السلسلة الشيخ بير محمد اللكهنوي والشيخ غلام نقشبند من مسترشدي السلسلة الجشتية وجامعي المدرسة والزاوية .

وكان مسك الختام لهذه السلسلة العلمية الذي نال الخلود والصيت العالمي الفائق والذي قهر الهند وأفغانستان وإيران وغلب على جميع النظم ، وسحر شبكات العلم ، وهو نظام التعليم الذي أسسه الشيخ نظام الدين السهالوي (م١١٦١هـ) ، ولم يكن هذا العالم الجليل مجرد مسترشد لشيخ السلسلة القادرية الشيخ عبد الرزاق البانسوي رحمه الله بل كان مسحوراً بحبه ، مغلوباً بغرامه ، وتعكس كل كلمة من كتاب «مناقب رزاقية» هذا الحب والوله العميق العامر ، الذي كان يقوم بينه وبين شيخه .

واتصلت مدرسة ديوبند الشهيرة بحركة إصلاحية كبيرة في ذلك العصر، فكان مؤسسها الشيخ محمد قاسم النانوتوي (م١٢٩٨هـ) ومربيها الآخر الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي (م١٣٢٣هـ) ، من كبار مسترشدي الحاج إمداد الله المهاجر إلى مكة المكرمة ، وخلفائه ومن نالوا الإجازة (في البيعة والإرشاد)

منه ، وقد شملت هذه الحركة الممتزجة بالحركة الإصلاحية والتربوية سائر أنحاء البلاد ، وكان مؤسس ندوة العلماء محمد علي المونجيري التلميذ الروحي للشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي ، فكانت السلسلة العلمية في الهند في سائر العصور وعلى سائر المراحل متصلة بالربانيين المربين المزكين للنفوس ، وحظيت برعايتهم وحمايتهم ، فأحدثت هذه الصلة الإخلاص والإنابة إلى الله ، والقبول في الناس وشدة التأثير.

ومن الأمور التي تجذب الأنظار ، وتحمل درساً لأولي الأبصار ، ومتتبعي التاريخ العلمي ، والذي لا يمكن حمله على ما يحدث بالصدف ، أن معظم الأساتذة البررة ، والعلماء الكرام كانوا مرتبطين في بعض الظروف في عصورهم بشخصيات روحية لم تكن باعتبار العرف ، وبحكم النظام التعليمي ، علماء معترف بهم علمياً أو حاملي شهادات ، فلم يكن الناس في عصرهم يعتبرونهم من أهل العلم ، وخير مثال لهذا الاتصال الغريب شخصية الشيخ محمد إسماعيل الشهيد ، والشيخ عبد الحي البدهانوي ، من كبار علماء العصر ، اللذين كانا قد أخضعا العالم العلمي بعلمهما واجتهادهما ، كانت تقوم بينهما وبين السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله قائد حركة الإصلاح والجهاد في القرن الثالث عشر الهجري علاقة الاسترشاد والاستفادة القلبية ، كما كانت هذه الصلة تقوم بين الشيخ نظام

الدين وهو الدر الفريد في العلم في عصره وبين السيد عبد الرزاق البانسوي ، وبين الشيخ محمد قاسم النانوتوي العالم المجتهد ، وبين الحاج إمداد الله المهاجر المكي ، وإن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على صدق طلب هؤلاء العلماء الأفاضل وهممهم العالية ، وتواضعهم وإخلاصهم ، وكان هذا الإخلاص والربانية هي التي أسبغت على هذه السلسلة العلمية وهذه الأعمال الجليلة ، التوسع ، والاستحكام ، والثبات ، والقبول العام .

ومن أهم مزايا ذلك النظام التي تجدر بأن تعتبر شعاره الفريد ، أنه كان يجمع بين الكمال العلمي والمطالعة الواسعة ونشوة التحقيق والبحث ، وبين إرواء الغليل الباطني ، والظمأ الروحي ، وبث روح الصلة بالله ، والإخلاص في العمل ، والحرص على خدمة الخلق ، فكانت النتيجة أن العلماء والأساتذة في هذا النظام كانوا على صلة وثيقة بعامة الناس وكانوا يتمتعون بالنفوذ على فكرهم وثقافتهم واجتماعهم ، وكانت النتيجة الثانية أنهم كانوا على منأى من الحركات المادية والإغراءات ، وأثر السلاطين والأمراء ، وفرص الاختلاط بهم ، وعلى ما يصونهم عن الفساد الخلقي أو الضغط السياسي ، الأمر الذي لا يمكن استبعاده على أساس مجرد العلم والذكاء ، وأن الإخلاص العميق والتركيز القوي والإيثار الذي واصل به علماء ذلك العصر حركتهم العلمية ونشاطهم التعليمي ، وتملكوا ناصية

العلم ، وقاموا بدورهم الإصلاحي والتربوي ، ونوروا الأصقاع بمصابيح علمهم ، وفكرهم مدين إلى أكبر حد لهذا الفيض الروحاني ، والتربية الخلقية وتزكية النفس التي كانوا يستخلصونها من هذه المراكز الروحية والشخصيات النيرة.

واستمرت هذه الميزة إلى آخر العهود، فكلما كان طالب يستكمل دراسته كان يبدأ في البحث عن شخص نير القلب والروح لإذكاء فؤاده ، وتهذيبه وتربيته ، فيتوجه إلى مركز روحاني حسب ذوقه أو ذوق أستاذه ، ويقضي فترة من حياته في هذا المركز ، ليستكمل فيها التربية القلبية التي ليست ميسرة في معهد علمي خالص، فكان متخرجو مدرسة الشيخ لطف الله (وهي مدرسة عالمية للعهد الأخير) يتوجهون إلى مركز الرشد والهداية للشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي في البلاد الشرقية للهند ، وكان متخرجو المدارس الواقعة في شمال غربي الهند كديوبند وسهارنبور ، يتوجهون إلى تهانه بهون وكنكوه وراي‌ء بور ، حيث كان خلفاء الحاج إمداد الله المهاجر المكي ، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي وخلفاؤه يقومون بالإرشاد والنصح والتربية.

* * *

مراكز العلم والثقافة الإسلامية في الهند

دار العلوم بديوبند

إن أكبر معهد ديني في الهند يستحق أن يسمى أزهر الهند ، هو معهد ديوبند الكبير ، بدأ هذا المعهد كمدرسة صغيرة لا تسترعي الاهتمام ، ثم لم تزل تتوسع وتتضخم بفضل جهود أساتذتها والقائمين عليها وإخلاصهم وزهدهم في حطام الدنيا ، حتى أصبحت جامعة دينية كبيرة بل كبرى المدارس الدينية في قارة آسيا .

وكان افتتاحها في قرية ديوبند من القرى التابعة لمدينة سهارنبور في مسجد صغير سنة ثلاث وثمانين ومئتين وألف هجرية ١٢٨٣ هـ ، أسسها العالم الجليل المخلص الشيخ محمد قاسم النانوتوي المتوفى سنة ثمان وتسعين ومئتين وألف هجرية ١٢٩٨ هـ. وكان الاعتماد فيها على الله ثم على تبرعات عامة المسلمين ، ورزقت من أول يومها رجالاً عاملين مخلصين وأساتذة خاشعين متقين ، فسرت فيها روح التقوى والاحتساب

والتواضع والخدمة ، ولم يزل نطاق المدرسة يتسع ، وصيتها يذيع ، وشهرة أساتذتها في الصلاح والتقوى والتبحر في علم الحديث والفقه تطير في العالم ، حتى أمها الطلبة من أنحاء الهند ، ومن الأقطار الإسلامية الأخرى ، حتى بلغ عددهم في الزمن الأخير حوالي أربعمئة وألف (١٤٠٠)[١] .

ويقدر عدد الذين اشتغلوا في هذه المدرسة بالعلم بأكثر من عشرة آلاف ، والذين نالوا الشهادة منها بنحو خمسة آلاف ، والذين ارتووا بمناهلها من أهل خارج الهند كباكستان ، وأفغانستان ، وخيوا ، وبخارى ، وقازان ، وروسيا ، وآذربيجان ، والمغرب الأقصى ، وآسيا الصغرى ، وتبت ، والصين ، وجزائر بحر الهند ، والحجاز ، والأقطار العربية نحو خمسمئة .

وكان للمتخرجين في دار العلوم تأثير كبير في حياة المسلمين الدينية في الهند ، وفضل كبير في محو البدع وإزالة المحدثات ، وإصلاح العقيدة والدعوة إلى الدين ، ومناظرة أهل الضلال والرد عليهم ، وكانت لبعضهم مواقف محمودة في السياسة والدفاع عن الوطن ، وكلمة حق عند سلطان جائر .

وشعار دار العلوم ديوبند التمسك بالدين ، والتصلب في

---

(١) وقد ازداد هذا العدد وتضخم في السنين الأخيرة .

المذهب الحنفي ، والمحافظة على القديم ، والدفاع عن السنة .

وتلي دار العلوم الديوبندية في كثرة الطلبة والاعتناء بالعلوم الدينية ، مدرسة «مظاهر العلوم» في مدينة سهارنبور التي تأسست في سنة ثلاث وثمانين ومئتين وألف أيضاً ، وهي تشارك دار العلوم في العقيدة والمبدأ والشعار .

وقد خرجت عدداً كبيراً من العلماء الصالحين والرجال العاملين في ميادين العلم والدين. ولعلمائها ومتخرجيها آثار جليلة في شرح كتب الحديث وخدمة هذا الفن الشريف ، وتمتاز هذه المدرسة وأساتذتها وطلبتها ببساطة في المعيشة، والقناعة بالكفاف ، والقوة في الديانة .

مدارس أخرى تابعة للمنهج النظامي :

يوجد في الهند عدد كبير من المدارس والمعاهد التعليمية على غرار مدرسة ديوبند ومظاهر العلوم ، يتبع فيها المنهج النظامي للتعليم ، وتقوم علاقة علمية بين هذه المدارس ودار العلوم بديوبند ، وقد مثلت هذه المدارس دوراً هاماً في إنعاش المسلمين الديني والتربوي ، ويجدر بالذكر من هذه المدارس في شمال الهند «مدرسة شاهي» بمراد آباد ، و«مدرسة إمدادية» في دربهنكا ، ولجماعة أهل الحديث (السلفيين) أيضاً مدارس خاصة ، منها الجامعة السلفية في بنارس ، ومدرسة أحمدية في

لهريا سرائي ، والمدرسة الرحمانية في دهلي ، وهي جديرة بالذكر بصفة خاصة ، وقد أقفلت المدرسة الرحمانية في دهلي بعد التقسيم أما مدرسة لهريا سارائي ومدرسة بنارس فهما مستمرتان.

ومن المدارس العربية الرسمية المدرسة العالية في رامبور ، والمدرسة العالية بكلكتا ، وشمس الهدى في بتنة ، وهي مدارس رئيسية شهيرة ، وكانت المدرسة العالية في رامبور وكلكتا تعتبران في الزمن الماضي في كبريات المدارس ، وقد سجلتا آثاراً خالدة بتفوق أساتذتهما ، ومميزات طلبتهما.

وللشيعة الإمامية أيضاً مدارس خاصة ، وتوجد معظم هذه المدارس في مركز هذه الطائفة العلمي والديني بلكهنؤ ، ومن أهمها مدرسة سلطان المدارس ، والمدرسة الناظمية ، ومدرسة الواعظين.

وبجنوب الهند (حيث يلاحظ في المسلمين شغف عظيم وولوع بالتعليم الديني) توجد مدارس عربية عديدة ، منها المدرسة النظامية بحيدر آباد ، وجامع دار الهدى بكريم نكر ، وجامعة دار السلام بعمر آباد ، والباقيات الصالحات في ويلور ، وكانت في مدراس المدرسة الجمالية التي ذاع صيتها في أرجاء الهند ، وكانت تعتبر مدرسة جامعة راقية دينية ، وقد بدأ النشاط فيها من جديد.

المدرسة السلفية ببنارس:

وفي عام ١٣٨٣هـ أسست جمعية أهل الحديث في الهند مدرسة باسم «الجامعة السلفية» في بنارس ، مدينة الهند القديمة التي تعتبر مركزاً كبيراً للمعابد الوثنية وهي عند الهندوس أقدس مكان يتبركون به ، فكانت الحاجة ماسة إلى تأسيس مركز ديني وعلمي كبير في مثل هذه المدينة ، وقد تحققت هذه الحاجة يوم افتتحت الجامعة السلفية وبدأت نشاطاتها ودخلت في مرحلة العمل والتطبيق ، وذلك في شهر ذي القعدة عام ١٣٨٥هـ.

وقد نالت الجامعة السلفية ترحيباً من جميع الأوساط العلمية والدينية في الهند وخارجها ، وقد ركزت عنايتها بصفة خاصة على الأهداف التالية:

١ - تدريس القرآن الكريم والسنة النبوية كمصدرين أساسيين للشريعة الإسلامية.
٢ - دراسة اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية والاجتماعية القديمة منها والحديثة.
٣ - نشر العلوم الإسلامية والأدبية ، والاحتفاظ بالتراث الإسلامي ، والاهتمام بتعميم اللغة العربية في الهند.
٤ - إعداد الدعاة الصالحين.
٥ - الاعتناء بناحية التأليف والطبع في مختلف اللغات العالمية المهمة ، وإعداد الكتاب الإسلاميين الجامعين بين الاعتزاز

بالتراث الإسلامي والرد على أعداء الإسلام والدفاع عن الدين.

٦ ـ محاربة البدع والخرافات والعادات الجاهلية الفاشية في المجتمعات الإسلامية.

وقد نجحت الجامعة السلفية ـ رغم قصر عمرها ـ في أهدافها التي تبنتها إلى حد كبير.

وفي مديرية أعظم كره مدارس إسلامية كثيرة تمتاز بعضها بخدماتها العلمية والدينية، كمدرسة «مفتاح العلوم» في بلدة مئو، التي كان يشرف على شؤونها التعليمية والإدارية في الماضي المحدث الكبير الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي صاحب مؤلفات مهمة في علم الحديث وفن الرجال، وتمتاز هذه المدرسة بعنايتها الفائقة بتدريس العلوم الإسلامية والحديث الشريف، ويشتغل عدد وجيه من متخرجيها بخدمة العلوم الدينية واللغة العربية في كبرى المراكز العلمية في الهند أيضاً.

وكذلك مدرسة «دار العلوم» ومدرسة «فيض عام» في مئو، ومدرسة «جامعة الفلاح» في بلريا كنج، ومدرسة «جامعة الرشاد» في مدينة أعظم كره، ومدرسة «بيت العلوم» في سراي مير، ومدرسة «مظهر العلوم» في بنارس، ومدارس إسلامية عديدة في مديرية جونبور وأعظم كره، كلها تهتم بتدريس العلوم الدينية واللغة العربية وبعض اللغات والعلوم العصرية مع

المحافظة التامة على الصبغة الإسلامية والطابع الديني.

وفي مونجير في مقاطعة بهار مدرسة كبيرة تسمى «الجامعة الرحمانية» يشرف عليها ويعنى بها العالم الكبير السيد منة الله الرحماني أمير الشريعة في ولايتي بهار وأريسة.

المدارس والجامعات المدنية:

وتقابل مدرسة ديوبند وشقيقاتها وما كان على شاكلتها من المدارس الدينية القديمة، الجامعات المدنية العصرية التي أسسها المسلمون في عليكره ودهلي وحيدر آباد، لتعليم أبناء المسلمين وشبابهم العلوم العصرية واللغات الأجنبية، وإعدادهم للوظائف الرسمية والمراكز الحكومية، وللمساهمة في حياة البلاد وخيراتها وإدارتها.

جامعة عليكره

وأشهر هذه الجامعات وأقدمها وأعظمها تأثيراً في عقلية المسلمين وسياستهم «جامعة علي كره الإسلامية» التي تعد من أرقى الجامعات في الهند وأوسعها، أسسها الزعيم المسلم الشهير سر سيد أحمد خان باسم «مدرسة العلوم» وقد أصيب المسلمون في إثر إخفاق الثورة العظيمة التي قاموا بها سنة سبع وخمسين وثمانمئة وألف بجمود تعليمي واجتماعي، وتسرب اليأس إلى نفوسهم وفقدوا الثقة بأنفسهم ومستقبلهم، وأصابتهم دهشة الفتح، وأساءت الحكومة الإنجليزية الظن بهم واستغنت

عنهم في وظائفها وإدارتها ، فأصبح المسلمون ـ الذين كانوا يملكون زمام البلاد في العهد الماضي القريب ـ لا نصيب لهم في سياسة البلاد وإدارتها ولا نشاط لهم ، ورأى السيد أحمد خان ـ وكان رجلاً شديد التأثر مرهف الحس ـ أن علاج ذلك هو تعلم الإنجليزية وآدابها وعلومها التي قاطعها المسلمون ، والظهور في مظهر سيد البلاد في الزي واللباس والحضارة والاجتماع ، حتى يزول «مركب النقص» وتولي الوظائف الحكومية .

وقد نجحت جامعة عليكره في رسالتها نجاحاً كبيراً ، وأقبل عليها أبناء الأسر الشريفة «الارستقراطية» في عدد كبير ، وتخرج فيها رجال كثير شغلوا وظائف كبيرة في الحكومة وتمتعوا بثقتها ، وقد لعبت الجامعة وأبناؤها دوراً مؤثراً في حياة المسلمين وسياسة البلاد ، ومنها نبعت حركة القومية الإسلامية تقابل حركة القومية الهندية والوطنية ، يتزعمها رجال من الطبقة الارستقراطية في المسلمين ، وميزانيتها السنوية نحو (أربعين مليون روبية) وفيها نحو عشرة آلاف طالب[١] .

الجامعة الملية الإسلامية :

وقد انفصل عن جامعة عليكره بعض أبنائها وخيرة متخرجيها

---

(١) وقد كان في كل ذلك تقدم وزيادة على مر الأيام، وهو أكثر مما ذكر في هذه الأيام.

أيام حركة الخلافة والوطنية ، وأسسوا جامعة شعبية مستقلة في السياسة وتعليمها سنة ١٩٢٠م ، يتزعمها الزعيم الإسلامي الكبير مولانا محمد علي، وقد انتقلت من عليكره إلى دهلي واشتهرت باسم «الجامعة الملية الإسلامية» يمتاز أساتذتها وإدارتها ـ وكان على رأسها الرجل التعليمي العالمي الدكتور ذاكر حسين رئيس الجمهورية الهندية سابقاً[١] ـ بنزعتهم الوطنية وروح التضحية والإيثار ، ظلوا مدة طويلة يكافحون التيار ، ويعيشون في شظف وعسر ، وكان لهم نشاط ظاهر في ميدان الثقافة والتعليم ، ومحصول ذو قيمة في الأدب والعلوم ، وهي الآن من الجامعات التي تنفق عليها حكومة الهند.

الجامعة العثمانية:

وتمتاز «الجامعة العثمانية» في حيدر آباد بأنها جامعة درست العلوم العصرية في «أردو» لغة الهند العلمية ، وعنيت بنقل العلوم الحديثة وترجمة الكتب المهمة في الفلسفة وعلوم الطبيعة والطب والسياسة والاقتصاد والتاريخ إلى أردو ، ووضع المصطلحات العلمية فيها ، وبذلك أدت خدمة عظيمة للمسلمين وثقافة الهند.

---

(١) توفي في ٣ مايو سنة ١٩٦٩م.

نـــدوة العلمـاء :

وتتوسط بين المدارس القديمة التي تتمسك بالقديم وترى العدول عنه ضرباً من التحريف ونوعاً من البدع ، وبين الجامعات المدنية التي تقدس الجديد وتستهين بكل قديم ، تتوسط بين تلك وهذه دار العلوم التابعة لندوة العلماء التي تأسست في لكهنؤ سنة اثنتي عشرة وثلاثمئة وألف هجرية ١٣١٢هـ بيد العالم الرباني الشيخ محمد علي المونكيري وزملائه المخلصين ، الذين خافوا على المسلمين من المحافظين ومن المتطرفين ، ومن اعتزال العلماء عن الحياة وتخلفهم عن ركب الثقافة والعلم ، ومن العصبيات المذهبية والمشاجرات الفقهية التي قويت ونشطت في العهد الأخير .

تأسست ندوة العلماء ودار العلوم التابعة لها على مبدأ التوسط والاعتدال والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع ، وبين الدين الخالد الذي لا يتغير ، والعلم الذي يتغير ويتطور ويتقدم ، وبين طوائف أهل السنة التي لا تختلف في العقيدة والمنصوص ، وقامت من أول يومها على الإيمان بأن العلوم الإسلامية علوم حية نامية ، وأن منهاج الدراسة خاضع لناموس التغير والتجدد ، فيجب أن يتناوله الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر ، وأن يزاد فيه ويحذف منه بحسب تطورات العصر وحاجات المسلمين وأحوالهم .

عنيت دار العلوم بصفة خاصة بالقرآن الكريم ـ الرسالة الخالدة ـ وتدريسه ككتاب كل عصر وجيل ، وعنيت باللغة العربية التي هي مفتاح فهمه وأمينة خزائنه ، ووجهت عنايتها إلى تعليم هذه اللغة الكريمة كلغة حية من لغات البشر يكتب بها ويخطب ، لا كلغة أثرية دارسة لا تجاوز الأحجار أو الأسفار كما كان الشأن في الهند ، وقللت قسط بعض العلوم القديمة التي لا تفيد كثيراً وأبدلتها ببعض العلوم العصرية التي لا غنى عنها للعالم العصري الذي يريد أن يخدم دينه وأمته ، واجتهدت أن تخرج رجالاً مبشرين بالدين الإسلامي الخالد لأهل العصر الجديد شارحين للشريعة الإسلامية بلغة يفهمها أهل العصر وبأسلوب يستهوي القلوب، أمة وسطاً بين طرفي الجمود والجحود، وقد نجحت في مهمتها نجاحاً لا يستهان بقيمته، فأنجبت رجالاً هم خير مثل للعالم المسلم العصري، لهم آثار جميلة خالدة في الأدب الإسلامي وعلم التوحيد لأهل العصر الجديد، والسيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ـ والتاريخ .

مـدرسـة الإصـلاح

وعلى طرازها مدرسة كبيرة تسمى «مدرسة الإصلاح» في سراي مير ، أسسها العالم الكبير الشيخ حميد الدين الفراهي عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٩م) ولها عناية خاصة بالتفسير وفهم القرآن على طريقة مؤسسها الشيخ الفراهي .

دار المصنفين

وقد أسس المتخرجون في الندوة «دار المصنفين» في أعظم كره عام ١٩١٤م وهي من المؤسسات العلمية الكبيرة في الهند ، وكان العلامة السيد سليمان الندوي رئيسها مدة وجوده في الهند ، نشرت كتباً كثيرة متنوعة في الدين والأدب والتاريخ ، بلغ عددها إلى عام ١٢٩٢هـ إلى ١١٢ كتاباً[١] لا تستغني عنها مكتبة في الهند ، وهي تصدر مجلة علمية راقية شهرية باسم «معارف» .

ندوة المصنفين

وفي دهلي مؤسسة علمية تصدر كتباً في الثقافة والتاريخ ، وهي «ندوة المصنفين» نشأت عام ١٩٣٨م وتصدر مجلة علمية شهرية وهي مجلة «برهان» يحررها الأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادي رئيس القسم الديني سابقاً في جامعة عليكره[٢] ولها مطبوعات قيمة حازت القبول والتقدير في الأوساط الإسلامية العلمية .

ومن أقدم الجمعيات التعليمية التي كان لها فضل في نشر الوعي السياسي والثقافي «مؤتمر التعليم الإسلامي العام» الذي أسسه سيد أحمد خان عام ١٨٨٦م في عليكره يعالج قضية تعليم الشباب المسلم في مدارس الحكومة ، ومنه نبعت «العصبة

---

(١) وقد بلغ عددها في عام ١٩٨٦م إلى ١٨٢ .

(٢) مات رحمه الله في ٢٤ مايو سنة ١٩٨٥م.

الإسلامية» ، (Muslim League) عام ١٩٠٦م ، وقد ضعف نشاط هذا المؤتمر بعد التقسيم لتغير الوضع السياسي والثقافي في الهند.

مجلس التعليم الديني:

نالت الهند الاستقلال في ١٩٤٧م ، واختارت لنفسها نظام حكم علماني ، وأعدت الدستور بموجبه ، ونص الدستور على تأمين حقوق مساوية ، ولكن رغم ذلك أعدت بعض الولايات الهندية مناهج تعليمية كانت مقدمة للردة الدينية والثقافية للمسلمين ، وكانت لا تتلاقى مع عقائد المسلمين ومبادئهم الأساسية فحسب، بل كانت تهدد أساسها.

وفكر صفوة من رجال الفكر والوعي الإسلامي في هذه المشكلة التي كانت تهدد الأجيال القادمة للمسلمين والناشئة منهم ، فأنشؤوا مجلس التعليم الديني العام في ولاية أترابرديش تحت إشراف الهيئات الإسلامية المختلفة المتحدة ، وقد أقامت الهيئة شبكة للمدارس في مختلف أنحاء البلاد ويبلغ عددها إلى ١٠٠٠٠ وهي تشرف على نهضة التعليم الإسلامي للمسلمين حيث يتلقى الأطفال المسلمون التعليم الديني بلغتهم.

دائرة المعارف بحيدر آباد:

ومن المؤسسات العلمية الكبيرة التي كان لها فضل كبير في

إحياء الكتب الدينية والعلمية وبعثها من مدافنها في المكتبات العتيقة ونشرها في العالم الإسلامي «دائرة المعارف» في حيدر آباد التي تأسست عام ١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٨م بتوجيه العلامة السيد حسين البلكرامي ، ومولانا عبد القيوم ، ومولانا أنوار الله خان أستاذ سمو «النظام» وقد نشرت أكثر من مئة وخمسين كتاباً قيماً من كتب الحديث وأسماء الرجال والتاريخ والعلوم الرياضية والحكمة ، حرمها العالم الإسلامي والأوساط العلمية من عهد بعيد وتسامع بها العلماء والمدرسون ، فكانت خدمة جليلة للعلم والدين ، وبرهاناً على ما كان ـ ولا يزال ـ للمسلمين من اتصال روحي وفكري بالثقافة الإسلامية وحب عميق لها ، وقد اعترف بجهود هذه المؤسسة العظيمة وجلالة عملها وقيمة ما تنشره من التراث العلمي كبار العلماء ورجال الثقافة في الشرق وأوربا ، وقد قال العلامة الشيخ إبراهيم الجبالي رئيس بعثة الأزهر التي زارت الهند عام ١٩٣٧م :

«إنا نعترف لرجال «دائرة المعارف» بحيدر آباد بتلك الجهود الموفقة التي بذلوها في خدمة العلم ونشر الثقافة العربية ، فقد وجهوا هممهم العالية إلى إحياء الكتب القيمة التي جادت بها قرائح الأئمة المتقدمين ، وأتى عليها حين من الدهر وهي مختفية عن الأعين حتى عفا رسمها ، وإن كان لا يزال يملأ الأسماع اسمها ، وطالما تشوقت الأذهان إلى الارتشاف من بحارها كما

استقيت الآذان بشهرتها واسمها ، فعمدوا ـ حفظهم الله ـ إلى التنقيب عنها والسعي وراء العثور عليها ، ثم مقابلة نسخها لإزالة ما علق بها من التشويه حين نسخها ، ثم تكميل ما نقص منها وتصحيح الغلطات التي أدخلت عليها ، لا يبالون في سبيل ذلك بما يتكبدون من مشاق الأسفار ومتاعب النقل والتصحيح والمقابلة ، وما يتحملون في سبيل ذلك من عظيم النفقات المالية»[١].

ولما قررت «الجامعة العثمانية» في حيدر آباد تدريس العلوم والفنون في «أردو» أنشأت «دار الترجمة» في سنة ١٣٣٥هـ وقد نشرت ٣٥٨ كتاباً في التاريخ والجغرافية والسياسة وعلم الاقتصاد والدستور ، وعلوم العمران والفلسفة والمنطق وما بعد الطبيعة ، وعلم النفس والأخلاق وعلوم الرياضة والطبيعة ، وعلم الحياة والكيمياء والطب والهندسة وغيرها ، وكان من أعمالها الجليلة وضع المصطلحات العلمية وترجمة المصطلحات من اللغات الأوربية إلى أردو.

وكان من الشخصيات العلمية والأدبية الشهيرة التي ساهمت في مواصلة هذا المجهود العلمي وتنميته ، وكان لها اتصال عميق بشؤونه ، الدكتور عبد الحق ، والشيخ عبد الماجد الدريابادي ،

---

(١) رسالة علمية تاريخية طبع دائرة المعارف ـ ح، ط.

والشيخ عبد الله العمادي ، والأستاذ وحيد الدين سليم باني بتي ، والشيخ عنايَة الله الدهلوي ، والشيخ مسعود علي المحوي ، والقاضي تلمذ حسين الجور كهبوري .

وكانت ميزانيتها السنوية ، ٢٦١٤١٥ جنيهاً ، وقد وقفت وعطلت بعد التقسيم سنة ١٩٤٨م ، ووقع في مكتبتها حريق أتلفها[١] وضيع هذا التراث الثمين .

وللجماعة الإسلامية التي مركزها الهند نشاط طيب وإنتاج ذو قيمة في نشر الأدب الإسلامي ، وتأليف الكتب الدراسية للنشء الإسلامي في «أردو» وفي «الهندية» ولها مدرسة نموذجية في «رامبور» .

وللمسلمين في جنوب الهند (مدراس وكيراله وبلاد مالابار) نشاط كبير في نشر التعليم الديني والمدني وتأسيس المدارس الدينية العربية والكليات الإسلامية ، ويمتاز أهل مالابار في ولاية كيرله بشغفهم باللغة العربية وتمسكهم بها ، ولهم مدارس منتشرة في المديريات والمدن الكبيرة وما يتبعها من القرى ، تعلم فيها اللغة العربية ، كروضة العلوم وسبل السلام ومدينة العلوم والجامعة الندوية التابعة لندوة المجاهدين وغيرها ، وعلماء هذه

---

(١) كثير من الناس يعتقدون أن هذا الحريق كان عن مؤامرة لإتلاف هذا الكنز الثمين .

المنطقة أقدر على اللغة العربية منهم على لغة أردو التي هي لغة الشعب الإسلامي في الهند ، حتى يحتاج زائر من الشمال إلى التفاهم معهم عن طريق اللغة العربية .

وللمسلمين في الجنوب كليات إسلامية كبيرة ، من أشهرها الكلية الجديدة (New Gollege) في مدراس ، والكلية الإسلامية في واينم بادي (Vaniyam Badi) وكلية جمال محمد في ترشنابلي (Tiruchina Palli) والكلية العثمانية في كرنول (Kurnool) وكلية فاروق في ملابار تنفق على أكثرها رابطة التعليم الإسلامي بجنوبي الهند .

وقد عني الأمراء والأقيال وكبار العلماء باقتناء مكتبات عظيمة وشغفوا بها شغفاً عظيماً ، ومن أغنى مكتبات الهند ودور الكتب وأجمعها للكتب النادرة والآثار الثمينة ومخطوطات المؤلفين ونوادر الكتاب «مكتبة بانكي بور» في بتنه ، وهي مكتبة المرحوم القاضي خدا بخش خان ، ومكتبة إمارة رامبور ، و«المكتبة الآصفية في حيدر آباد ، ومكتبة السري الفاضل الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني العلي كري رئيس الأمور الدينية في حيدر آباد سابقاً ، وقد ضمت إلى «مكتبة آزاد» التابعة لجامعة علي كره الإسلامية ، ومكتبة دار العلوم ديوبند ، ومكتبة جامعة عليكره ، ومكتبة الشيخ ناصر حسين ابن الشيخ حامد حسين الكنتوري في لكهنؤ ، ومكتبة العلامة شبلي النعماني التابعة لندوة العلماء

وتضم ١٠٠٠٠٠ من المطبوعات و٤٠٠٠ من المخطوطات.

وقد زارت الهند بعثة أوفدتها الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية سنة ١٩٥١م لتصوير الكتب النادرة الخطية الموجودة في مكتبات الهند، فزارت عواصم الهند ومكتباتها الكبيرة وأخذت صور مئات من الكتب النادرة.



الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع

تعريب: الأستاذ محمد الحسني (رحمه الله)

[مقال تاريخي يبحث عن تأثير الدعاة إلى الله ، والمربين الروحيين (الذين يسمون غالباً بالصوفية) في الأخلاق والسلوك ، وفضلهم في محاربة الفساد في البلاد ، وتكوين المجتمع الإسلامي الهندي الصالح ، الذي استطاع أن يعيش سبعة قرون في وسط الوثنية البرهمية والملوكية المستبدة ، بصرف النظر عن أساليبهم وتقليدهم ومن غير موافقة عليها ، والشيوخ الذين جاءت أسماؤهم في هذا المقال ، تحقق في التاريخ التزامهم للعقيدة الإسلامية الصحيحة ، وحرصهم على اتباع السنة وغيرتهم على الدين].

إن طرق التصوف الأساسية المشهورة ظهرت خارج الهند ، ولكنها نالت أكبر قسط من القبول والانتشار والازدهار في هذه البلاد بسبب أوضاعها الخاصة وطبيعتها ، ثم نبعت من هذه

الطرق والسلاسل فروع هندية الأصل ، واتخذت شكل طرق مستقلة بذاتها ، وبرز فيها أئمة مجتهدون أنشؤوا طرقاً مختلفة وأسسوها.

وبجانب تلك الطرق الصوفية المشهورة (مثل الطريقة القادرية والجشتية والنقشبندية والسهروردية ، التي ترعرعت في الهند وازدهرت ونفقت سوقها) طرق وسلاسل أخرى وليدة هذه البلاد فحسب ، وهي تنتمي إلى شخصيات نبغت في الهند ودفنت في أرضها ، مثل الطريقة الفردوسية ، والمدارية، والقلندرية ، والشطارية، والمجددية ، وهي سلاسل نشأت في الهند ، و«صدرت» بعد ذلك إلى بلاد أخرى ، وقد استفاد عدد كبير من أهل الحجاز ورجال العالم الإسلامي والعربي من الشيخ علي المتقي صاحب كنز العمال في القرن العاشر ، ومن الشيخ تاج الدين السنبهلي ، والشيخ آدم البنوري في القرن الحادي عشر بعد ما هاجروا إلى الحجاز واستوطنوه ، وقد أصبحت هذه البلاد (الهند) حاملة لواء التصوف وإصلاح الباطن منذ بداية القرن الحادي عشر ، وزعيمها إذ ذاك ، الشيخ أحمد السرهندي ونجله وخليفته العظيم محمد معصوم اللذان أفاد منهما العالم مدة طويلة من الزمن ، وكان خلفاء الشيخ محمد معصوم منتشرين في أقطار أخرى ، كأفغانستان ، وإيران ، وتركستان ، وكان الناس يشدون الرحال إلى زاوية الشيخ غلام علي الدهلوي (وهو من شيوخ

الطريقة المجددية في القرن الثالث عشر) من بلاد بعيدة مثل العراق والشام ومصر والصين والحبشة وبخارى وسمرقند ، وانتشرت هذه الطريقة بواسطة خليفته الشيخ خالد الشهرزوري في العراق وتركستان والشام وتركيا ، ولا تزال باقية فيها.

وفي أوائل القرن الرابع عشر اشتهر الحاج إمداد الله المهاجر المكي بلقب «شيخ العرب والعجم» وأفاد منه كثير من أهل الحجاز والحجاج الوافدين إليه.

وما زال هذا النبراس ـ نبراس الإصلاح الباطني ـ مضيئاً في العالم الإسلامي بفضل الهند ، ولا تزال طريقة «الحب الإلهي» مستمرة باقية فيها ، وهي المرجع العالمي لهذا الفن من أجل بعض رجالاته وأعلامه.

صلة الجمهور بالصوفية والتصوف وإقبالهم عليه:

إن العهد الإسلامي في الهند بدأ بهؤلاء الصوفية ، وخاصة الشيخ معين الدين الأجميري ، الذي أسس الطريقة الجشتية في هذه البلاد على دعائم قوية بجهاده وإخلاصه ، وأقبل عليهم الناس من جميع الطبقات والفئات ، يتنافسون في حبهم ، وصلتهم بهؤلاء المرشدين رجال الله والدعاة إليه بإخلاص وصدق وأمانة ونزاهة ، وامتدت في طول البلاد وعرضها شبكة

من المراكز الروحية حتى لم يبق بلد أو قرية ذات شأن إلا وفيها مركز روحي أو عدة مراكز.

إن الصلة القلبية والروحية وموجة الحب والإجلال التي كانت تغمر الناس نحو هؤلاء الشيوخ والصوفية تتجلى بالأحداث التالية التي نسردها في هذا المكان من غير أن نراعي فيها الترتيب التاريخي.

كان السيد آدم البنوري ـ دفين البقيع (م١٠٥٣هـ) ـ يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل، ويمشي في ركابه ألوف من الرجال ومئات من العلماء، ولما دخل السيد في لاهور عام (١٠٥٣هـ) كان في معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم، حتى توجس شاهجهان ملك الهند منه خيفة فأرسل إليه بمبلغ من المال ثم قال له: «قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز» فعرف إيعاز الملك وسافر إلى الحرمين حيث مات.

وهذا الشيخ محمد معصوم (م١٠٧٩هـ) ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندي قد بايعه وتاب على يده تسعمئة ألف من الرجال، واستخلف في دعاء الخلق إلى الله وإرشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال[1].

وكتب سيد أحمد خان مؤسس الجامعة الإسلامية في عليكره

---

(١) نزهة الخواطر، ج٥ للعلامة عبد الحي الحسني.

في كتابه «آثار الصناديد» يذكر الشيخ عبد الله المعروف بغلام علي الدهلوي فقال :

«لا يقل عدد المقيمين في هذه الزاوية عن خمسمئة رجل تقوم الزاوية بنفقاتهم» وهكذا كان الإقبال على المصلح الكبير السيد أحمد الشهيد إقبالاً منقطع النظير ، إنه لم يمر ببلدة إلا وتاب عليه وبايعه عدد كبير من الناس ، حتى إن المرضى في مستشفى بنارس أرسلوا إليه يقولون : «إنا رهائن الفراش وأحلاس الدار فلا نستطيع أن نحضر ، فلو رأى السيد أن يتفضل مرة حتى نتوب على يديه لفعل» وذهب السيد وبايعهم .

وأقام في كلكته شهرين ، ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يومياً ، وتستمر البيعة إلى نصف الليل ، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً ، فكان يمد سبعة أو ثمانية من العمائم والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون الله ، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشرة أو ثماني عشرة مرة .

إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة ، والتوبة عن المعاصي ، وطاعة الله ورسوله ، ويحذرون من الفحشاء والمنكر ، والأخلاق السيئة والظلم والقسوة ، ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة ، والتخلي عن الرذائل (مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب

الجاه) وتزكية النفس وإصلاحها ، ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والإيثار ، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريده أنهم كانوا يعظون الناس دائماً ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه ، والحنين إلى رضاه ، ورغبة شديدة لإصلاح النفس ، وتغيير الحال ، فإلى أي مدى كان تأثير أخلاقهم وإخلاصهم ، وتعليمهم وتربيتهم ومجالسهم في المجتمع والحياة ، ونقدم هنا بعض الأمثلة التي تلقي الضوء على هذا الواقع التاريخي .

يقول مؤرخ الهند الشهير القاضي ضياء الدين البرني يذكر عهد السلطان علاء الدين الخلجي يقول : «كان شيخ الإسلام نظام الدين وشيخ الإسلام علاء الدين وشيخ الإسلام ركن الدين من أعلام التربية الروحية والإصلاح في عهد السلطان علاء الدين تنور بهم العالم ، وبايعهم خلق كثير لا يحصون ، وتاب على أيديهم الفسقة والفجرة ، وواظبوا على الصلاة ، وعضوا عليها بالنواجذ طول حياتهم ، ونشأ فيهم حب الدين وإجلاله ، وصحت توبتهم ، والتزموا العبادات كلها ، وتضاءل حب الدنيا في قلوبهم ، وذلك بتأثير أخلاقهم السامية الكريمة ، وعزوفهم عن الشهوات وترك المألوفات ، وانتشر الصدق في الناس ببركة عبادتهم وسلوكهم في الحياة ونشأ فيهم ـ بتأثير مكارم أخلاقهم ومجاهداتهم ـ رغبة في إصلاح أخلاقهم وتغييرها .

ويقول:

«إن السنوات الأخيرة من عهد علاء الدين تمتاز بأن كسدت فيها سوق المنكرات من الخمر والغرام والفسق والفجور والميسر والفحشاء بجميع أنواعها، ولم تنطق الألسن بهذه الكلمات إلا قليلاً، وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعين الناس، وظل الناس يستحيون من التعامل بالربا والادخار والاكتناز علناً، وندرت في السوق حوادث الكذب والتطفيف والغش»[١].

وكان لهؤلاء المشايخ عناية كبيرة بالأخلاق والسلوك والمعاملات، وتأدية الحقوق وقضاء الديون، وكانوا يوصون من يدخل في بيعتهم بالعناية البالغة بهذه الأمور، وقد أوصى الشيخ نظام الدين شيخه فريد الدين كنج شكر بأن لا يدخر وسعاً في إرضاء الخصوم وأصحاب الحقوق، وكان عليه ٢٠ جيتل (فلس) لشخص، كما استعار كتاباً من شخص آخر فضاع ذلك الكتاب، فلما زار دهلي وذهب إلى الشخص الأول قال: «يبدو أنك قادم من عند المسلمين» ولما زار الشخص الثاني قال: «إن هذه الأخلاق ليست إلا نتيجة ذلك المكان الذي كنت فيه».

إن تربية هؤلاء الصوفية والمشايخ ومجالسهم كانت تنشىء

---

(١) فوائد الفؤاد ص١٤.

في الإنسان رغبة في إفادة الناس وحرصاً على خدمتهم ومساعدتهم.

كان السيد أحمد الشهيد أثناء سفره للحج مع ركب كبير ولا يضيع فرصة لخدمة الناس في هذه الرحلة الطويلة الشاقة، إن هذه الرحلة كانت عن طريق نهر «كنج» بالسفن، وحدث أن وجدوا على ضفة مرزابور سفينة مشحونة بالقطن، وكان صاحب القطن ينتظر الحمالين ليحملوا ذلك القطن إلى مخازنه، فأمر السيد أصحابه بنقل تلك الحزمات، فهجم على السفينة مئات من الناس، وفي دقائق وثوان أفرغوا السفينة وحملوا القطن إلى مكانه، فأعجب الناس بذلك وتهامسوا فيما بينهم قائلين «لم نر كاليوم، إن هؤلاء ليست لهم معرفة ولا صلة بصاحب القطن، ولم يطلبوا الأجر، وقاموا بهذا العمل لوجه الله، إنهم من أولياء الله من غير شك»[١].

إن الحديث عن هؤلاء الصوفية والمشايخ بأدوارهم التاريخية والترتيب التاريخي لا محل لها ههنا، وهو يحتاج إلى مجلد ضخم، فإن سهم هؤلاء المصلحين ومعلمي الأخلاق في تكوين مجتمع صالح واع في الهند (وهي قوة هذه البلاد المعنوية الكبرى، ومصدر الولاة الصالحين والحكام العادلين في كل

---

(١) سيرة السيد أحمد الشهيد ص٢٤٩.

عهد ، وهو الذي منح الهند أفراداً أذكياء أكفاء في ظروف دقيقة حرجة جداً) سهم أساسي أكثر من سهم أي واحد من أبناء هذه البلاد وبناتها.

وبصرف النظر عن القرون الوسطى التي تبعثرت مادتها الواسعة في تراجم المشايخ نكتفي هنا بذكر مصلح كبير في القرن الثالث عشر وهو السيد أحمد الشهيد وتأثيره الديني والاجتماعي كمثال لهذا التأثير والنفوذ في المجتمع والحياة ، فقد ذكر المؤرخون أنه لما أقام مع أصحابه في كلكته ـ في طريقه إلى مكة المعظمة ـ واشتغل هو وبعض أصحابه من العلماء كالمصلح الكبير الشيخ إسماعيل الشهيد بالوعظ والتذكير ، وتقاطر الناس على السيد للبيعة والتوبة عن المعاصي «كان تأثير هذه المواعظ ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أن تعطلت تجارة الخمر في كلكته ـ وهي كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز ـ كسدت سوقها وأقفرت الحانات ، واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة متعللين بكساد السوق ، وتعطل تجارة الخمر»[1].

إنها كانت نتيجة أخلاق هؤلاء المصلحين والدعاة والصوفية والمشايخ وروحانيتهم ، أن اهتدى بهم في هذه البلاد الواسعة عدد هائل من الناس ، وتابوا عن المعاصي والمنكرات واتباع

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٢٤٠ الطبعة الرابعة.

الهوى ، لم يكن بوسع حكومة أو مؤسسة أو قانون أن يؤثر في هذه المجموعة البشرية الضخمة ويحيطها بسياج من الأخلاق والمبادىء الشريفة لزمن طويل .

كلمة حق عند سلطان جائر :

وكان من مآثر هؤلاء المصلحين الروحيين الكبرى أنهم قاوموا أحياناً كثيرة اتجاهات بعض الملوك الخطرة وأنقذوا الدولة والمجتمع من بعض الأخطار الهائلة المحدقة بها ، والتدمير الذي كان يواجهه ويهدده ، وذلك بإبداء آرائهم بصراحة ، وانتقاد التيارات الفاسدة وانحراف «البلاط» عن جادة الحق والصواب ، إن تربيتهم وأمثلتهم العملية الحية ألهبت في الناس جذوة الجراءة والشجاعة ، والنشاط والطموح ، وتاريخ الهند الإسلامي زاخر بهذه الأمثلة ، إن هؤلاء المشايخ غامروا مراراً بحياتهم وشرفهم ، وآثروا الموت على الحياة وعملوا بمبدأ «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» كلما دعت إليه الحاجة واقتضته الظروف .

ونقدم في هذا المكان مثالين من عهد «الملك الجبار» محمد تغلق ، يدلان على شجاعتهم وصرامتهم واستهانتهم بمظاهر الأبهة والغطرسة ، واحتقارهم للقناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

«لما مر السلطان محمد تغلق بزاوية الشيخ قطب الدين منور وكان شيخاً كبيراً في الطريق الجشتية يعيش في عزلة عن الناس ، لم يحضر عند السلطان لتحيته فطلبه السلطان في دهلي ، ولما حضر البلاط ودخل الديوان رأى الأمراء والوزراء والحكام ورجال البلاد واقفين سماطين ، متخشعين مسلحين في هيئة تخلع منها القلوب ، وكان معه ولده نور الدين ، وكان حديث السن لم يزر «بلاط» الملك في حياته ففزع لهذا المنظر الغريب وامتلأ رعباً ، فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عال قائلاً «يا ولدي العظمة لله»! يقول نور الدين: إني استشعرت في نفسي قوة غريبة بعد هذا النداء ، وزالت الهيبة من نفسي وذابت ، وبدا الجميع عندي كأنهم قطيع من ضأن أو معز ، وسأل الملك الشيخ وعاتبه قائلاً «إننا مررنا بزاويتكم فلم تشرفونا بزيارتكم وموعظتكم» فأجاب الشيخ إن هذا الفقير لا يجدر بمقابلة الملوك ، إنه يعيش في عزلة ، ويدعو للملك ولجميع المسلمين ، فعليكم أن تعذروا في هذا الأمر ، وبعد انصرافه قال الملك لوزرائه ، إنه صافح كثيراً من الشيوخ والعلماء فكانت أيديهم ترتعش خوفاً وإشفاقاً ، أما هذا الشيخ فما وجدت في كفه ليناً وضعفاً ، وما رأيت في يده ارتعاشاً بل صافحني بقوة وحرارة زائدة واعتزاز نفس.

وقدم إليه الملك مئة ألف «تنكه» (قطعة ذهب) فقال الشيخ

سبحان الله ، تكفيني أقتان من أرز ، وسمن بفلس واحد ، ماذا أفعل بهذه الآلاف من الروبيات ، ولكن قيل له إن الملك يسخط إذا لم يقبل هذه الهدية ، وينقم منه ، فقبل الشيخ ألفي روبية وقسمها بين إخوانه وأصحابه وذوي الحاجة[١] .

والمثال الثاني للشيخ فخر الدين الرازي ، وكان الشيخ يتحرز من مقابلة الملوك ، وكان يقول : إنني أرى رأسي مفصولاً عن جسمي واقعاً على بلاط الملك ، وكان يعني أنه سيقول كلمة حق يؤاخذه عليها الملك ويأمر بضرب عنقه ، فطلبه الملك يوماً وقال له عظني ، فقال الشيخ : اكظم الغيظ واملك غضبك وسورة النفس ، فقال الملك : أي غضب وسورة نفس تعني؟ قال : سورة السباع ، فاحمر وجه الملك من فورة الغضب ولم يقل شيئاً ، ودعا بالسفرة الملوكية ودعاه لتناول الغداء ، وكان يضع بعض اللقمات في فيه ، وتناول الشيخ هذا الطعام بكراهة ، وودعه الملك بعد فراغه[٢] .

إن هؤلاء المشايخ و«الصوفية» ضربوا أمثلة رائعة في الشجاعة والصراحة والصدع بالحق ، كما أن الملوك الذين لم يغفروا للعلماء «جريمة» قول الحق سلكوا بالصوفية ـ في أغلب

---

(١) سير الأولياء ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥ .
(٢) سير الأولياء ص٢٧١ ـ ٢٧٢ .

الأحوال ـ مسلكاً رفيقاً وسمحوا لهم بأداء واجبهم الديني ومزاولة نشاطهم الإسلامي ، وقد قام المشايخ بهذا الواجب في العهد الأخير، وحافظوا على كرامتهم، وغيرتهم وإبائهم ، حضر الملك المغولي «شاه عالم» مرة في مجلس الصوفي الكبير والشاعر الشهير الشيخ «ميردرد» وكان برجله وجع فمدها قليلاً ، فلم يتحمل الشيخ ذلك وقال: إن هذا الأمر ينافي آداب المجلس وكرامته ، فاعتذر الملك بالعلة وطلب العفو فقال له الشيخ: إذا كانت بكم علة ، فلم يكن هنالك داع لحضور هذا المجلس[١] .

الزهد في زخارف الدنيا والاستهانة بمظاهر الجاه:

إن الصوفية والمشايخ لم يقبلوا مناصب الحكم ، وهدايا الملوك والأمراء ، من أراضي وإقطاعات وصلات وجرايات ، وامتنعوا عنها دائماً ، ونصبوا مناراً عالياً للقناعة والزهد والتوكل والمحافظة على عزة النفس وكرامتها ، عاشت بفضله في المجتمع الهندي الفتوة والهمة والطموح والثبات على جادة الحق ، وحافظوا بذلك على كرامة الإنسانية وصانوا عرضها في هذه السوق السوداء التي تباع فيها النفوس والأرواح بيع السلع ، وقد تباع بالمناداة و«المزاد العلني» .

---

(١) كُل رعنا (تذكرة شعراء الهند) للعلامة عبد الحي الحسني ، ص ١٧١ .

لقد كان شعارهم وهتافهم دائماً وفي جميع الأحوال ، ما قال قائل منهم في شعر فارسي :

«لا أحب أن أبيع خرقتي المتواضعة وثيابي البالية برايات الملوك وأعلام السلاطين ، ولا أرضى بأن أهجر «فقري» حرصاً على مملكة «سليمان» إن هذا الكنز الذي اكتشفته في قلبي بفضل المجاهدة لا أريد أن أبادله برخاء الملوك وراحتهم وتنعمهم» .

إن تاريخ التصوف في الهند حافل بأمثلة رائعة من الزهد والقناعة والاعتزاز بالنفس والكرامة والطموح والقناعة والإيثار ، لا تخلو من هذه الأمثلة طريقة صوفية في هذه البلاد ، ونقدم هنا عدة أمثلة من القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وهو عهد رسخت فيه أقدام المادية في الهند .

«كان الشيخ شمس الدين حبيب الله المعروف بميرزا جان جانان الدهلوي من شيوخ الطريقة النقشبندية المجددية (م١١٩٥هـ) قال له ملك الهند مرة : إن الله أعطاني مملكة واسعة فأرجو أن تقبلوا منها شيئاً. فقال الشيخ : إن الله تعالى قد وصف الدنيا بالخسة والهوان فقال : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ أما مملكتكم فهي ولاية صغيرة من إقليم من أقاليم هذه الدنيا فلا أريد أن أرزأكم في هذا الجزء الصغير ، وقدم إليه مرة الأمير آصف جاه وزير المملكة المغولية في الهند عشرين ألف روبية فلم يقبلها ، فقال الأمير : خذوها وقسموها على أهل الحاجة ، فقال : إني

لا أحسن هذا العمل فتولوا توزيعه بنفسكم فسينفد في الطريق فإن بقي منه شيء فسينفد بعد ذلك .

أراد مير خان أمير ولاية «تونك» أن يفرض راتباً سنوياً لزاوية الشيخ غلام علي الدهلوي فكتب إليه الشيخ بيتاً معناه :

«نحن لا نهين الفقر والقناعة ، ولا نخدش كرامتها ، قل لمير خان إن الرزق مقدر من عند الله تعالى» .

زار حاكم كبير للحكومة الإنجليزية الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي (م١٣١٣هـ) وقال وقد أثرت فيه كلمات الشيخ وموعظته البليغة : إذا قبلتم عيَّنا لكم مرتباً من الحكومة ، فقال الشيخ : ما أصنع بمالكم ، إنني أملك من فضل الله سريراً وإبريقين من الفخار وجرتين للماء ، ويأتي بعض أصحابنا بالذرة فنصنع منها الخبز ، وتطبخ زوجتي شيئاً من الخضراوات نأكل بها ذلك الخبز ، وفي ذلك كفاية .

يروي الأستاذ محب الله أن الأمير كلب علي خان حاكم ولاية رامبور ، أبدى رغبته في أن يشرفه الشيخ فسأله الأستاذ المذكور عما يقدم إليه إذا حضر ، قال : أهدي إليه مئة ألف روبية ، فذهب الأستاذ إلى مراد آباد وقال للشيخ : إن الأمير في شوق لرؤيتكم ويقدم إليكم مئة ألف روبية إذا زرتموه ، والشيخ يتحدث كأنه لم

يسمع شيئاً مهماً ، ثم قال : يا هذا احث التراب على المئة ألف ، استمع قولي ، وأنشد بيتاً معناه :

«حينما نشاهد كرمه وفضله على هذا القلب ، نجد القلب أعلى وأغلى من جام جم»[١].

نشر العلم والثقافة :

العلم كان أكبر هم هؤلاء المشايخ وبغيتهم ، إنهم حدبوا عليه وخدموه ، وكان أكثرهم صاحب ذوق أدبي وعلمي رفيع ، وكان عقيدتهم أنه لا يمكن معرفة الله سبحانه بدون العلم ، وأن الصوفي الجاهل ألعوبة الشيطان ، ولذلك نراهم لم يستخلفوا للدعوة إلى الله النجباء ذوي الكفاءة والاستعداد إلا بعد التحصيل العلمي .

والحقيقة أن الفضل في الحركة التعليمية والنهضة العلمية في الماضي يرجع إلى تشجيع هؤلاء الصوفية والمشايخ إما مباشرة وإما بواسطة ، وكان القاضي عبد المقتدر الكندي والشيخ أحمد التهانيسري ـ اللذان انتهت إليهما رئاسة التدريس في الهند ـ من رجال الشيخ نصير الدين «جراغ دهلي» والمدرس المشهور في القرن الحادي عشر الشيخ لطف الله الكوروي الذي نفقت به سوق

---

(١) كأس ملك إيران القديم «جم» الذي يضرب به المثل في الغلاء والظرافة ويحكى أنه كان يتراءى فيه العالم .

الدرس والتدريس إلى القرن الثالث عشر كان شيخاً في الطريقة الجشتية.

نحن نرى المدرسة والزاوية جنباً إلى جنب في أكثر الأدوار، فالزاوية الرشيدية في جونبور ومدرسة الشيخ بير محمد في لكهنؤ ومدرسة الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم في دهلي، وزاوية الشيخ رشيد أحمد في «كنكوه» أمثلة رائعة للجمع بين التثقيف العلمي والتربية الروحية والخلقية.

الكفالة والمؤاساة:

ومن مآثر هؤلاء المشايخ وزواياهم أنها كانت مأوى يأوي إليه آلاف من الناس، ويجدون فيه طعامهم وشرابهم ومرافق حياتهم، إن هذه المائدة الملوكية الفاخرة، كانت مائدة عامة يردها الصديق والعدو، والقريب والبعيد، والغني والفقير، وكانت مائدة الشيخ نظام الدين مشهورة يضرب بها المثل في السعة وكثرة أنواع الطعام واللذة والتأنق.

وكان يحضر زاوية الشيخ سيف الدين السرهندي ألف وأربعمئة رجل يتناولون الطعام على مائدته صباح مساء، كل حسب رغبته واقتراحه.

أما الشيخ السيد محمد سعيد الأنبالوي، وهو من رجال القرن الثاني عشر، فيسجل عنه مترجمون فيقولون:

«لم يكن عدد المشتغلين في زاويته أقل من خمسمئة نسمة في الزمن الأول وهكذا فقل عن الوافدين إليه والزائرين له».

زاره مرة روشن الدولة وكان أميراً من أمراء السلطان فرخ سير وقدم ستين ألف روبية لبناء زاويته، فأمره الشيخ أن يترك هذا المال في مكان ويستريح، فانصرف «روشن الدولة» فأرسل الشيخ إلى الفقراء، وأرسل هذا المال إلى اليتامى والمساكين وأهل الحاجة في «أنباله» و«تهانيسر» و«سرهند» و«باني بت» حتى لم يبق منه فلس، فلما أتى روشن الدولة قال له: «لا يبلغ الثواب في بناء العمارة ثواب خدمة ذوي الحاجة، والفقراء الذين أحصروا في سبيل الله» ووصلته مرة رسائل السلطان محمد فرخ سير والأمير روشن الدولة، والأمير عبد الله خان، وأمر بثلاثمئة ألف روبية فوزعها كلها في القرى المجاورة والأشراف الساكنين فيها[1].

وصدق الأستاذ مناظر أحسن الكيلاني إذ قال:

«إن هذه الزوايا وحدها كانت نقطة اتصال بين الأغنياء والفقراء، وكان منزل هؤلاء الصوفية والمشايخ «بلاطاً» يدفع له السلاطين الخراج، فقد كان يحضر ولي العهد خضر خان عند

(١) نظام التعليم والتربية (الأردو) المجلد الثاني، للأستاذ مناظر أحسن الكيلاني.

الشيخ نظام الدين ويستفيد منه ، وهكذا السلطان علاء الدين الذي كان يأتيه الخراج من الهند كلها كان مضطراً إلى أن يقدم الخراج إلى مكان آخر».

إن هذه الوحدة والانسجام بين الغني والفقير أعني طبقة الصوفية والمشايخ التي كان يحضرها ويستفيد منها الأغنياء والفقراء على السواء كانت تقضي حاجات الطبقة الفقيرة ، والحقيقة أنه لم يخل دور من أدوار التاريخ الهندي ولا بلد من بلاد الهند إلا وقد عمل فيه الصوفية والمشايخ بالحديث النبوي المشهور «تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» فكان ذلك رحمة بالفقراء والمساكين وذوي الحاجة [١].

ملاجىء إنسانية:

إن تعليم هؤلاء الصوفية ومجالسهم الروحية أنشأت في الناس حب الإنسان على اختلاف الديانات والثقافات والسلالات وخدمته ، وإيصال النفع إليه ، ومشاركته في الهموم والآلام.

كان شعارهم وعملهم بالحديث النبوي: «الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» كانت قلوبهم فائضة بالرحمة والمواساة للإنسانية كلها ، حدث الشيخ نظام الدين عن نفسه مرة فقال: يأتيني رجل ويحكي لي قصته ، وفي نفسي من الهم والألم

---

(١) نظام التعليم والتربية ص٢٢.

والتوجع لحاله ما لا يجده هو نفسه[١].

وقال مرة: لا شيء أغلى وأحب يوم القيامة من المواساة، وجبر القلوب المنكسرة، وإدخال السرور على أصحابها[٢].

كانت نتيجة ذلك أن جرحى القلوب والفؤاد كانوا يجدون بلسماً لهمومهم وأحزانهم في هذه الزوايا وملجأ لهم ، إن حجر عطفهم وحبهم كان مفتوحاً لكل من هجره المجتمع أو الأسرة أو تنكر له الحظ ، وأدبرت عنه السعادة ، إن هؤلاء الذين لم يقبلهم أبناء أسرتهم أو طردهم أولادهم بعض الأحيان كانوا يقدمون إلى هؤلاء الصوفية والمشايخ ويعيشون في أحضانهم وفي كنفهم ، ويجدون فيه كل ما افتقدوه من راحة البيت وأنس الأحبة ، ويزور هذه الزوايا كل رجل مهما كان نسبه أو دينه فيجد فيها الإسعاف والرفد وخلاصاً من هموم القلب وأحزانه وينال فيها الغذاء والدواء ، والحب والعطف ، والتقدير والإكرام.

لما أرسل الشيخ نظام الدين شيخه إلى دهلي قال له:

---

(١) سير العارفين نسخة خطية.
(٢) أيضاً ص٢٨.

«ستكون كدوحة وارفة الظلال ، يستريح خلق الله في ظلها»[١] .

والتاريخ يشهد بأنه قد استراح في ظله الوارف الوافدون من دهلي ، ومن أنحاء بعيدة سبعين سنة كوامل .

لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصوفية أشجار كثيرة وارفة الظلال في مئات من بلاد الهند استراحت في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبون، ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة .

* * *

(١) سيرالأولياء .

المسلمون في الهند شعب ممتاز

إن المسلمين مع امتزاجهم بالعنصر الهندي وتأثرهم الواسع العميق بطبيعة البلاد وشعوبها وثقافتها الذي نوه به «جوستاف لوبون» في كتابه «حضارة الهند» لا يزالون شعباً ممتازاً في أخلاقه وطبيعته واتجاهاته ومنهج حياته ، وعاداته التي أصبحت طابعاً يتميز به المسلم في كل ناحية من نواحي الهند ، وهي الرابطة التي تربط المسلم في الشرق بأخيه المسلم في الغرب ، والمسلم في الجنوب بالمسلم في الشمال ، حتى يكون أشبه به من مواطنه الهندوكي الذي يعيش بجواره ويتكلم بلغته.

إذا قدر للقارىء الكريم أن يزور الهند من بلاد بعيدة ويختلط بالشعوب الهندية، ويدخل في المجتمع الهندي، لاحظ أن هناك شعبين ممتازين ، وحضارتين ممتازتين ، ومجتمعين ممتازين ، وتجلى له هذا الامتياز في مختلف نواحي الحياة ، وفي مختلف مظاهر المدنية ، وفي الأخلاق والنزعات.

إذا كنت ضيفاً عند صديق لك مسلم ـ وليس من اللازم أن تسبق بينكما معرفة أو تقوم بينكما صداقة ـ فالمسلم أخو المسلم ، والمسلم الغريب ضيف أخيه المسلم المقيم ، قدمت إليك مائدة واسعة فيها أوان كبيرة وصحون واسعة ـ بخلاف الطريقة الهندية القديمة ـ وأرغفة كبيرة ، وكمية من الطعام كبيرة تفضل عن الضيوف ويجتمع عليها الضيوف وتختلف أيديهم في الصحون إن أحبوا ذلك ، فالقلب واسع ، والبيت واسع ، والمائدة واسعة ، وتجرب ذلك في كل بقعة من بقاع الهند ، وفي كل أسرة إسلامية ، اللهم إلا إذا انقطعت صلتها عن الحضارة الإسلامية ، وعاشت في المجتمع الهندي القديم واندمجت فيه .

وإذا أراد واحد من المسلمين أن يأكل في القطار أو في غرفة الانتظار لا بد أن يدعوك إلى الطعام، ويلح عليك .

إن هذا الاختلاف بين حضارتين عاشتا في الهند جواراً بجوار ، وإن هذا الاختلاف في طبائع شعبين هنديين لا يزالان يعيشان في دار ، وإن هذه الأناقة التي تتسم بها الحضارة الإسلامية في الهند ، ورحابة الصدر واحترام الإنسانية الذي يمتاز به المسلمون في الهند استرعى انتباه كثير من الزائرين والرحالين من خارج الهند ، وقد أغرى ذلك بعض الأذكياء والنابهين بدراسة الإسلام وروح الحضارة الإسلامية والاقتناع بالدين الإسلامي الذي خلق في أتباعه هذا التسامح وهذه النظرة

الواسعة واحترام الإنسان وحب الأناقة والنظافة في كل شيء ورفع مستوى الحضارة ، وكان سبباً في إسلام بعضهم. وقد حكى العلامة محمد إقبال قصتين طريفتين لبعض أصدقائه الإنجليز ننقلهما هنا :

يحكي المستر داؤد آبسن (David opson) الصحافي الإنجليزي الذي كان يصدر من لاهور صحيفة إنجليزية مشهورة اسمها(Muslim Out Look) قصة إسلامه يقول فيها : قدمت من انكلترا وأقمت في بمبائي، فكان أصدقائي الرجال الذين كانوا يسهمون في الحركات السياسية، ولم تكن لي صلة بالأوساط الدينية في بمبائي ، وبدأت أسهم في الحركات السياسية في الهند ، وهنالك قابلت بعض المسلمين وبدأت أتردد إليهم ، مرة دعاني مسلم وجيه إلى تناول الغداء عنده، ومدت مائدة على الطريقة الإسلامية، وقدمت أطعمة شائعة في الشعب الإسلامي ، وأعجبت بالأناقة وسلامة ذوق الشعب الإسلامي ولطافته وقلت في نفسي : إن شعباً رقت حضارته وكملت آدابه ، وبلغ من سلامة الذوق ولطافة الحس هذا المستوى الرفيع لا بد أن يكون على مستوى رفيع في الدين والروحانية ، ويتصف بالنظافة والأناقة في كل شيء ، وهكذا أقبلت على دراسة الإسلام وحياة المسلمين ، وتبين لي أن الإسلام على قمة من العلو والظرافة ، بعيد في كل شيء عن السخافة والسماجة والإسفاف ، وتتجلى هذه الأناقة

والرقة والسمو في حضارته وفي طعامه ولباسه كما تتجلى في عباداته وفي أعماله وأخلاقه ، وكل من يدين بالإسلام ويدخل فيه يعلو عن المستوى الذي قد عاش فيه .

والقصة الثانية قصة عالم إنجليزي قدم إلى الهند ليضع كتاباً عن الحياة في قرى الهند ، ودعاه الاختلاف الذي شاهده في السلوك القروي المسلم والقروي الهندوكي ونظرتهما إلى الإنسان إلى أن يحب الإسلام وأهله ثم يدخل في الإسلام ، ولنسمع قصته كما حكاها الدكتور محمد إقبال: يقول العالم الانجليزي:

«كنا نتجول كل صباح ومساء بين المزارع والحقول في قرى الهند ، واتفق لنا أن خرجنا من منزلنا في الصباح وابتعدنا عن محلنا وكان الزمن زمن الحصاد وكان الرجال والنساء منبثين في الحقول يحصدونها ، وعطشت وبحثت عن الماء فلم أجده إلا عند فلاح وكان الماء في جرة صغيرة ، وأشاروا إلي بأن أجمع كفي ، وجعل الفلاح يصب من فوق وأنا أكرع كالدابة ورويت وانصرفت ، ولم أمش خطوات إلا سمعت هدة ، والتفت ورائي فإذا بزوج الفلاح قد رمت الجرة على الأرض فكان لها صوت ، وقد انفجرت تسب زوجها ، و. . . تؤنبه تأنيباً شديداً لأنه نجس الإناء وضيعه ، وعجبت من هذا السلوك ومن إهانة الإنسان للإنسان، وأن يعامل أحد بني جنسه معاملة الكلاب .

وعطشت مرة أخرى فكانت التجربة مختلفة عن التجربة الأولى كل الاختلاف ، طلب رفيقي له الماء من فلاح آخر فاستقبله بالابتسام والترحيب، وقدم إلي إناءً من خزف وأردت أن أجمع كفي وأكرع كالمرة الأولى فضحك الفلاح ، وقال: لا داعي إلى هذا اشرب هنيئاً ، وشربت في حرية ، وانطلقنا وأنا أنتظر أن أسمع هدة كالأولى، وانتظرت أن أسمع تأنيباً من امرأة الفلاح كما سمعت أول مرة، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فتعجبت لهذا الاختلاف الواضح بين رجلين من طبقة واحدة ومن بلد واحد ، وسألت عن السبب وقيل لي: إن الفلاح الثاني مسلم لا يعتقد نجاسة الإنسان بل يؤمن بكرامته وشرفه ، ويؤمن بأن الناس كلهم من آدم وآدم من تراب ، وهكذا علمه القرآن وعلمه رسول الإنسانية ، ولذلك انتشر الإسلام هذا الانتشار الواسع في القارة الهندية ، وكان ذلك سبب عنايتي بدراسة الحضارة الإسلامية والدين الإسلامي وسبب اهتدائي للإسلام» .

ومن سمات هذا الشعب الإسلامي الهندي وطبيعته حبه للنبي العربي ﷺ حباً أصبح له شعاراً وسمة، وظهر في حياته وأدبه وشعره، وقد نبغ في الهند أشعر شعراء «النبويات» والمدائح النبوية ـ بعد الجامي والقدسي وبعض شعراء إيران ـ ونظمت فيها أبلغ قصائد ومنظومات وأبيات في المدح النبوي ، ونشأ أدب

زاخر قوي ومكتبة عظيمة غنية في الشعر الفارسي والأردي والهندي في مدح النبي ﷺ ، ووصف حليته وشمائله ونظم سيرته وغزواته ، فيه كل معجب مطرب يثير الحنان ، ويقوي الإيمان ، ويدل على قوة العاطفة الدينية والحب العميق المخلص والشاعرية القوية ، ونبغ في هذا الموضوع شعراء كبار، وانقطع بعضهم إلى هذا الموضوع ووهبوا له قريحتهم ومواهبهم وحياتهم.

ومما يمتاز به الشعب الإسلامي الهندي: اتساع أفق فكره، وحرصه على الاتصال بالعلم ، وتمرده على حدود العنصرية والقومية الضيقة ، والوطنية المحدودة ، ونزعته الدائمة إلى العالمية والآفاقية ، وذلك سر اندفاعه إلى كل حركة ترمي إلى الوحدة الإنسانية والجامعة الإسلامية ، ولذلك لم يزل هذا الشعب يعطف على القضايا الإسلامية ويتبناها ، ويتألم لها ويثور كأنها قضيته الخاصة ، وقد ظهرت هذه الحماسة وهذا العطف في أروع مظاهره زمن حركة الخلافة ، وقد اكتتب لها الشعب بسخاء وأريحية وحماسة لم تعرف في قضية أخرى ، وهكذا ظهر منه في حرب طرابلس وبلقان من الاهتمام بأمر المسلمين والتألم بما نابهم ، ما يدل على قوة الإيمان بالجامعة الإسلامية ، وقد اهتم بقضية فلسطين وعقد عدة مؤتمرات لهذه القضية في عواصم الهند وشاركت الصحف في القضية ، وذلك سر عدم انجراف هذا

الشعب في سبيل الحركة القومية الهندية انجرافاً يفقده شخصيته ، ويقطع صلته عن العالم الإسلامي ويحمله على تقديسها والغلو في تمجيدها .

ومن خصائص هذا الشعب الإسلامي الهندي شدة تعلق قلوب أفراده بمهد الإسلام ومنزل الوحي ومدينة الرسول ﷺ والحنين إلى مكة والمدينة ، فقد تغنى بذلك شعراؤهم قديماً وحديثاً ، وعاش الشعب الإسلامي الهندي في هذه الأمنية العزيزة اللذيذة العامة والخاصة حتى عرف ذلك عنه ، وعير المسلمين بذلك غلاة الوطنية والقومية ، وحقدوا على هذه العاطفة الدينية القوية التي تربطهم بالخارج ربطاً روحياً فهي تنافي في زعمهم الإخلاص للوطنية والحماس القومي(١) وفي الحقيقة لا منافاة بينهما ، فالإنسان يستطيع أن يجمع بين الحب لوطن روحي وجسمي ، فالجزيرة العربية هي البقعة التي أشرق منها نور الإسلام وأنقذ المسلمين من براثن الجاهلية والوثنية ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور وهم ينظرون إليها كمنقذ ومرشد ومعقل للإسلام ومركز

---

(١) يدل على ذلك كلمة لكاتب هندي نشرتها صحيفة هندوكية يقول فيها : «إن المسلمين الهنود يعتبرون أنفسهم أمة منفصلة متميزة ، ولا يزالون يتغنون ببلاد العرب ويحنون إليها ، ولو استطاعوا لأطلقوا على الهند اسم العرب» .

للثقافة ، ويحجون إليها في عدد كبير كل عام .

ولا يزال هذا الشعب ممتازاً في كثير من أخلاقه وعاداته وخصائصه رغم انحطاط عظيم أصيب به هذا الشعب تبعاً للأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية ، ورغم تطور عظيم حدث في الحضارة والقيم الخلقية ، فلا يزال ممتازاً ـ في أكثر الأحوال ـ في القدرة الإدارية وسرعة القضاء وقوة التنفيذ ، ولا يزال كثير من أفراده يشغلون مناصب خطيرة ومراكز ذات قيمة وأهمية ، ويمتازون بالأمانة ومجانبة الرذائل الخلقية ، لذلك يتمتعون بثقة الحكومات، وتوسد إليهم أمور ذات بال وقضايا ومراكز تقتضي الأمانة الفائقة والاستقامة الظاهرة والذكاء النادر .

* * *

الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

كان مركز المسلمين القائد في حركة تحرير الهند وإجلاء الإنجليز ـ وقد كان ذلك طبيعياً ـ لأنهم هم ولاة البلاد وسادتها حين احتل الإنجليز هذه البلاد، وبدأ الأخطبوط الإنجليزي ينفث سمومه ، ويبتلع هذه البلاد قطعة قطعة وإمارة إمارة.

وأول من انتبه لهذا الخطر الملك الهمام الشهم الغيور «فتح علي خان» المشهور بالسلطان تيبو (١٢١٣هـ ـ ١٧٩٩م) الذي عرف ببعد نظره وألمعيته أن الإنجليز سيزدردون هذه البلاد كلقمة سائغة إذا لم تقم في وجههم قوة منظمة ، فحارب الإنجليز بكل ما كان يملكه من قوة حربية وعدة وعتاد ، وحرض أمراء الهند وأقيالها عل القضاء على هذه الجرثومة الإنجليزية السامة ، وحاول الاتصال بالسلطان سليم العثماني والملوك المسلمين وأمراء الهند ، وراسلهم ، وظل يحارب الإنجليز حرباً عنيفة

لا هوادة فيها ، وكاد ينهار كل ما بناه الإنجليز وأملوه في الهند لولا أنهم نجحوا في ضم أمراء الهند في جنوب الهند إلى معسكرهم ، وسقط الملك المجاهد صريعاً في المعركة ، (في اليوم الرابع من مايو سنة ١٧٩٩م) وفضل الموت في المعترك على الأسر في يد الإنجليز والحياة في ظلهم وتحت رحمتهم وقال كلمته الخالدة المأثورة في التاريخ: «يوم من حياة الأسد خير من مئة سنة من حياة ابن آوى» ولما بلغ القائد (Horse) شهادة السلطان ، حضر ووقف على جثته وقال: «اليوم الهند لنا».

ولم تعرف الهند ـ في تاريخها الطويل ـ قائداً أعلى همة ، وأبعد نظراً ، وأشد غيرة على الدين والوطن ، وأعظم عداء وبغضاً للمحتل الأجنبي ، من «تيبو سلطان» ولم تكن في الهند شخصية أبغض إلى الإنجليز وأثقل عليهم من تيبو ، حتى ظلوا زمناً طويلاً ـ وقد أدركنا ذلك العصر ـ يسمون كلابهم باسمه شفاءً لقلوبهم وإهانة لرمز الوطنية والجهاد[1].

ثـــورة عـام ١٨٥٧ م

وثارت الجنود الإنجليزية في مايو سنة ١٨٥٧م بعد ما جرب

(١) كتب الزعيم غاندي مقالة في صحيفة «الهند الفتاة»Young India أشاد فيها بعظمة السلطان ووطنيته وتسامحه وقال: لا نعرف أعظم منه في شهداء الوطن والأمة».

الهنديون الحكم الإنجليزي وغطرسة الإنجليز ، وانتهابهم لثروة البلاد ، وقلة احتفالهم بالعاطفة الدينية ، وكرامة أهل البلاد ، وانتشرت الثورة في الهند انتشار النار في الهشيم ، فكانت ثورة شعبية عامة ساهم فيها المسلمون والهنادك سواء بسواء ، وتوجه الثوار إلى دهلي مقر الملك المغولي الأخير سراج الدين بهادر شاه[١] ، وجعلوه قائداً للثورة ورمزاً للوطنية الموحدة والكفاح الشعبي ونادوا به ملكاً للهند شرعياً ، وخليفة آبائه ملوك الهند الصناديد المغول الأباطرة ، وقاتل الثوار في كل بقعة من بقاع الهند تحت رايته وباسمه ، ينظرون إليه كزعيم للجهاد الديني والوطني ، وينظرون إلى دهلي كعاصمة الحكومة الهندية الدائمة ولم يشذ عن ذلك شاذ[٢] .

وبالرغم من أن هذه الثورة أو حرب التحرير ـ كما يصح أن تسمى ـ كانت شعبية عامة يقاتل فيها المسلمون والهنادك جنباً بجنب ، ولم تعرف الهند حماسة وطنية ووحدة شعبية قبل هذه ، كان للمسلمين السهم الأكبر في القيادة والتوجيه ، وكان منهم العدد الأكبر والأهم من القادة والزعماء ، وقد صرح السروليم

---

(١) كان حكمه محدوداً في القلعة الحمراء والإنجليز يحكمون البلاد باسمه ونيابة عنه.

(٢) إلا السيخ ـ مع الأسف ـ وبعض الأمراء الذين قمع الإنجليز بهم الثورة.

هنتر بأن جمرات الجهاد التي أشعلها السيد أحمد الشهيد (١٢٤٦ هـ) هي التي ألهبت نار هذه الثورة.

وقد كان من أكبر العلماء والمشايخ الذين قادوا الثورة وأشهرهم مولانا أحمد الله ومولانا لياقت علي، وهما اللذان تزعما الحركة، وكان الجنرال بخت خان هو القائد العام ونائب الملك[١]، وكان للحاج إمداد الله التهانوي، ومولانا محمد قاسم النانوتوي، ومولانا رشيد أحمد الكنكوهي، والحافظ محمد ضامن الشهيد، وغيرهم من العلماء والمشايخ سهم فيها، وخاضوا في بعض المعارك، وقد ذكر الكاتب الهندوسي المعروف سندرلال عدداً من كبار المساهمين في هذه الثورة المسلمين منهم خان بهادر خان، بير علي، علي كريم.

ويكتب هومز: كان مولوي أحمد الله شاه أكبر أعداء الإنجليز في شمالي الهند، يقول سندرلال: ما من شك أن اسم الشيخ أحمد الله شاه من شهداء ١٨٥٧م سيخلد محترماً في تاريخ شهداء الحرية في العالم (ست ستاون ٢٠٨).

وكتب مالي سن: كان المولوي (أحمد الله) رجلاً محيراً للعقول وقد عثر على عدة دلائل وبراهين تثبت صلاحيته كقائد

---

(١) كان من جماعة السيد أحمد الشهيد بائع أحد رجال طريقته، وأخذ منه الشيخ العهد والميثاق لقتال الإنجليز.

لحركة الثورة ، فلا يستطيع أحد غيره أن يدعي الفخر والاعتزاز أنه هزم «السير كالن كيب بل» في ميدان القتال مرتين .

وأضاف يقول في كتابه : كان أحمد الله شاه وطنياً مخلصاً ، فلم يلطخ سيفه بدم عن عازل عن السلاح ، يحارب بجرأة وصمود في ساحة القتال ، أولئك الأجانب الذين كانوا اغتصبوا وطنه ، ويجب على كل بطل ومخلص في كل بلد أن يذكر المولوي أحمد الله باحترام وإكرام .

ويكتب هومز : مهما يكن الأعداء وحشيين وقساة كان قائدهم صالحاً لقيادة الجيش العظيم ، وحماية هدف نبيل عال من كل ناحية .

ولما أخفقت هذه الثورة ـ لأسباب شرحت في الكتب التي ألفت في هذا الموضوع ـ صب الإنجليز على أهل الهند جام غضبهم وانتقموا منهم انتقاماً شديداً[١] وبطشوا بالهنديين ـ شعباً

---

(١) وقع من الثوار ـ المسلمين وغير المسلمين ـ الاعتداء على النفوس البريئة والضعيفة والنساء والأطفال من الإنجليز في بعض المناسبات ، وتخطوا حدود الدين والأخلاق والمروءة في شده ثورتهم ولعدم النظام ولكن ما وقع من الإنجليز مقابل ذلك لا يعلل إلا بالجنون والهمجية والضراوة بالدم الإنساني ، ولا يليق بأمة مثقفة تتزعم العلم والمدنية .

وأمة ـ بطشة جبار لا يعرف الرحمة ، ولا يعرف العدل ، ولا يعرف الإنسانية ، ولا يعرف الحدود ، وكانت مجزرة هائلة جددت ذكرى مذابح جنكيز وهولاكو ، وقد قتلوا ثلاثة من أبناء الملك الشبان المأسورين بعد ما أعطوهم الأمان والعهد والميثاق بهمجية وقساوة امتعض منها كثير من الإنجليز ، وقد شنقوا ثلاثة وعشرين من أبناء الأسرة الملكية فيهم مرضى وزمنى وشيوخ عجز[١] وأهانوا الملك وحاكموه محاكمة مهينة ذليلة ، وكانوا حريصين على قتله أشنع قتلة إلا أن ضابطاً منهم كان قد وعد أن يحافظ على حياته ليسلم نفسه إليه فحكموا عليه بالنفي المؤبد إلى «رنجون» حيث مات طريداً وشريداً مقتراً عليه في الرزق مضيقاً عليه.

ودخلت الجيوش الإنجليزية في دهلي فكان تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ وقد أذن للجيوش في نهب العاصمة ثلاثة أيام فطبقته تطبيقاً فظيعاً ، وقد كتب «جون لورنس» الحاكم الإنجليزي المشهور في ديسمبر ١٨٥٧م إلى القائد الإنجليزي :

١ ـ «أعتقد أن الطريقة التي انتهبنا بها جميع الطبقات من غير

(١) الأستاذ ذكاء الله في «عروج سلطنت انكلشية» ج٣ ص٧٠٨.

تمييز بينها ستصب علينا السخط العام وستصب عليها اللعنات إلى الأبد وإننا نستحق ذلك»[١].

وقامت سوق القتل والنهب في دهلي على قدم وساق، والدماء تسفك، والرقاب تضرب، والرصاص يطلق من غير تمييز والبيوت تنهب، وقد خرج كل من استطاع أن ينجو بنفسه وأهله وعرضه، حتى أصبحت المدينة التي كانت عروس البلاد وعاصمة الهند مقفرة موشحة ليس فيها إلا البيوت الخاوية، والأنقاض المتراكمة والجثث المتعفنة، أو الجنود المفترسة، وإليك تصوير البلد من قلم قائد قواد الجيوش الإنجليزية (Lord roberts) وقد كان مسافراً بجيشه من دهلي إلى كانبور يقمع الثورة، وكان ذلك اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر ١٨٥٧م بعد ما استولى الجنود الإنكليز على دهلي وتملكوا القلعة الحمراء[٢] يقول روبرتس في كتابه «إحدى وأربعون سنة في الهند»:

٢ ـ «كان المسير من دهلي في نور الصباح الباكر وكان منظراً هائلاً، خرجنا من القلعة من بابها الذي يسمى باب لاهور، ومررنا بالشارع الكبير الذي هو مركز البلد وأكبر أسواقها «جاندني

---

(١) Basworth Smith Life Of Lord Lawrence V-2-p, 158

(٢) القلعة الحمراء بناها الإمبراطور شاه جهان، وكانت مركز الحكومة المغولية، وكان فيها في العهد الأخير بهادر شاه.

جوك» لقد كانت دهلي في الحقيقة مدينة الأموات ليس بها داع ولا مجيب ، فلا صوت إلا صوت سنابك الخيل ، ولم يقع بصرنا على عرق ينبض أو عين تطرف ، لم تكن هنالك إلا جثث هامدة مبعثرة هنا وهناك ، وقد كانت هذه الجثث في أوضاع مختلفة خلفها صراع الحياة والموت في أدوار مختلفة من التفكك ، وكنا لا نتكلم إلا همساً حتى لا نزعج هؤلاء الأشقياء الذين كانوا مستغرقين في نومة الموت ، إن ما رأيناه من المناظر كانت هائلة مفزعة وكانت مؤسفة محزنة ، وقد كانت بعض الجثث ينتهشها كلب ، وكان عند بعضها نسر يرفرف جناحه ويحاول أن يطير فلا يستطيع بفرط الشبع والثقل ، وقد كان بعض الأموات يتراءون أحياء فقد رفع بعضهم يده في الاحتضار فبقيت مرفوعة كأنه يشير إلى جانب ، لقد كان منظراً مهيباً موحشاً لا يمكن تصويره ، وكأن خيلنا قد استولى عليها الذعر فكانت تجفل وتنتفخ مناخرها ، وقد كان المحيط كله مروعاً ولا يمكن تصوره ، وقد كان تعفن بروائح مضرة تولد الأمراض»[1].

لقد كانت المجزرة شعبية وطنية عامة ، ولكن كان المسلمون بصفة خاصة هدف هذه الإهانات والفتك الذريع ، لأن كثيراً من الإنجليز المسؤولين كانوا يعتقدون أنها ثورة إسلامية ، وأن

(١) Lord Reberts: Forty One Years In India.p.142.

المسلمين هم مصدر الثورة وأصحاب فكرتها وهم الذين تولوا كبرها ، يقول كاتب إنجليزي (Henry Mead) :

٣ ـ «إن هذه الثورة لا يصح في المرحلة الحاضرة أن تسمى ثورة الجنود لقد انفجرت الثورة منهم ولكن سرعان ما تجلت حقيقتها وظهر أنها ثورة إسلامية» .

ولذلك كانوا يخصون المسلمين بالقتل والبطش ، يقول مؤرخ معاصر :

٤ ـ «قد كان شعار بعض رؤساء الإنجليز أنهم كانوا يعتبرون كل مسلم ثائراً وكانوا يسألون الرجل أنت هندوكي أو مسلم؟ فإذا قال مسلم قتله بالرصاص»[١] .

ويقول :

٥ ـ «إن هؤلاء الإنجليز كلما رأوا مسلماً عليه مسحة من جمال أو له جسم قوي اقتنصوه وشفوا قلوبهم بقتله ، وقد قتل عدد كبير من الوجهاء والأشراف وأصحاب البيوتات الذين بقوا في البلد ، كانوا يقتلون الأبناء الشبان أمام آبائهم الشيوخ ، ويقولون للوالد العجوز : انج بنفسك ، وقلما أفلت من أيديهم مسلم جميل الوجه صاحب حسب ووجاهة حتى أثر ذلك في النسل ، وأصبح لا يولد في دهلي مولود فيه الوسامة والجمال ، فإذا قارن أحد

---

(١) الأستاذ ذكاء الله الدهلوي «عروج سلطنت انكلشية» ص٧١٢ .

بين المسلمين قبل الثورة والمسلمين بعدها رأى فرقاً واسعاً بين الجيلين في الجمال والوسامة»[١] .

ثم جاء دور الشنق ، ونصبت مشانق وأعواد على الطرق العامة والشوارع ، وأصبحت مواضع نزهة عامة يتفرج عليها الإنجليز ويتمتعون بمناظر احتضار المشنوقين وهم يدخنون ويتحدثون ، فإذا تم عمل الشنق ولفظ المشنوق نفسه الأخير ، استقبلوه بالضحك والابتسام ، وفي هؤلاء الأشقياء أصحاب الإمارات وكبار الأشراف ، وقد شنق بعض الأحياء الإسلامية على بكرة أبيها ، ويذكر مؤرخ معاصر :

٦ ـ إن سبعة وعشرين ألفاً من المسلمين قتلوا شنقاً ، واستمرت المجزرة سبعة أيام متواليات لا يحصى من قتل فيها ، أما السلالة التيمورية فقد حاول الإنجليز أن يستأصلوا شأفتها ، فقتلوا حتى الصبيان ، وعاملوا النساء معاملة همجية تقشعر منها الجلود»[٢] .

يقول ميلي سن :

٧ ـ «إن ضباط جيوشنا كانوا يقتلون المجرمين من كل نوع ،

---

(١) الأستاذ ذكاء الله الدهلوي «عروج سلطنت انكلشية» ص٧١٢ .

(٢) السيد كمال الدين حيدر في «قيصر التواريخ» المجلد الثاني ص٤٥٤ .

وكانوا يشنقون من غير رحمة وألم كأنهم كلاب أو بنات آوى أو حشرات خسيسة»[١].

ويقول قائد قواد الجيوش الإنكليزية «Lord Roberts» في رسالة كتبها إلى أمه في ٢١ يونيو سنة ١٨٥٧م :

٨ ـ «إن أهول طريقة للإعدام هو أن يرمى المجرم بالمدفعة ، إنه حقاً منظر هائل ولكن لا نستطيع في هذا الوقت أن نأخذ بالاحتياط ، إن هدفنا أن نثبت للمسلمين الأشرار أن الإنجليز لا يزالون ـ بنصر الله ـ سادة الهند»[٢].

وهكذا دفع المسلمون أبهظ ثمن وأغلاه لهذا الجهاد ، وظل قادة الفكر والسياسة وأقطاب الحكومة من الإنجليز يعتقدون أن المسلمين هم المسؤولون عن ثورة ١٨٥٧م ، لا يتخلون عن تبعاتها جيلاً بعد جيل ، وقد قال هنري هملتن تامس «Heney Hamilton Thomas» أحد كبار الموظفين الإنكليز في بنغال في كتابه «ثورة الهند الماضية وسياستنا المستقبلة» «Late Revoluion In Indid, Our Future Polity» الذي ألفه في سنة ١٨٥٨م يعني بعد الثورة بسنة فقط، والكلمة تشرح عقيدة الإنجليز ووجهة نظرهم عن المسلمين بعد الثورة ، يقول :

---

(١) ميلي سن، ج٣ ص١٧٧ .
(٢) تامس ، ص٤٠ .

٩ ـ «لقد قدمت أن الهنادك لم يكونوا أصحاب الفكرة في ثورة ١٨٥٧م ولم يكونوا مصدرها ، وسأثبت في هذه المناسبة أن الثورة كانت نتيجة مؤامرة المسلمين ، إن الهنادك إذا تركت لهم الحرية وكانوا محدودين في وسائلهم لم يكونوا ليساهموا في مثل هذه الثورة وما كانوا يودونها ، إن المسلمين لم يزالوا ولا يزالون منذ عهد الخليفة الأول مستكبرين غير متسامحين ، وظالمين ، لم يزل هدفهم الدائم أن تقوم الحكومة الإسلامية بأي وسيلة كانت ، وأن ينشأ الناس على كراهة المسيحيين ، إن المسلمين لا يستطيعون أن يكونوا رعية وفية لحكومة تدين بغير دين الإسلام لأن ذلك مستحيل في ظل أحكام القرآن».

وقد كانت هذه هي السياسة المتبوعة في الحكومة الإنجليزية القائمة. وهي القاعدة التي يسير عليها موظفوها الكبار ، ورؤساء المصالح ، إقصاء المسلمين عن المراكز الكبيرة في الحكم والإدارة ، وسد أبواب الرزق الشريف عليهم ، ومصادرة الأوقاف والأملاك التي تدر على مدارسهم ومؤسساتهم ، وتأسيس مدارس ونظام تعليمي لا ينشط المسلمون للإفادة منه[١] ، وقد كان يعلن في بعض بلاغات رسمية أن الوظائف

(١) اقرأ تفصيل ذلك في كتاب و.و. هنتر «مسلمو الهند»
W.W.Hunter: Indian Mussulmans.

الفلانية لا يقبل فيها إلا الهنادك[١] ، يقول هنتر:

«إن المسلمين وإن كانوا يملكون المؤهلات والكفاءة المطلوبة لوظيفة ، ولكنهم يمنعون عن ذلك ببلاغ رسمي»[٢] .

وقد كان غضب الإنجليز شديداً واضحاً في قضايا المسلمين كلها ، فكانوا يؤخذون بأقل تهمة وأبعد وشاية ، وكانوا يؤخذون بالظنة ويعاقبون أشد العقاب ، وقد حارب الإنجليز فل المجاهدين المعتصم في الجبال في حدود الهند الشمالية الغربية حرباً شعواء ، وأنفقوا في ذلك نفقات باهظة وتحملوا خسائر عظيمة ، وحاكموا في الهند كل من ظنوا به أقل اتصال بهذه الجماعة ـ جماعة السيد الإمام أحمد الشهيد ـ حاكموا جماعة من العلماء الأجلاء والمثقفين والوجهاء والتجار في «بتنه» و«تهانيسر» و«لاهور» سنة ١٢٨١هـ ـ ١٨٦٤م محاكمة ظهر فيها حقد الإنجليز وتوترهم من المسلمين بصفة عامة ، ومن هؤلاء الذين سماهم الإنجليز وأعوانهم «وهابيين» بصفة خاصة وحكموا على مولانا يحيى علي ومحمد جعفر التهانيسري ومحمد شفيع اللاهوري بالإعدام ، وقال القاضي في حكمه: «سأكون مسروراً وسعيداً إذا رأيتكم معلقين على المشانق تلاقون جزاءكم» وكان

---

(١) «مسلمو الهند» للدكتور هنتر ص١٥٨ .

(٢) المصدر السابق.

الإنكليز ونساؤهم يأتون إلى السجن ليمتعوا نفوسهم ويقروا عيونهم بالكآبة التي تغشى هؤلاء «الأشقياء» الذين تنتظرهم المشنقة ، وبجزعهم وهلعهم ، ولما رأوا أنهم جذلون مسرورون ينتظرون الشهادة في سبيل الله بقلوب تواقة مؤمنة ، ونفوس راضية مطمئنة ، كبر ذلك عليهم ، وجاء الحاكم الإنجليزي وقرأ حكم المحكمة النهائية بتبديل الإعدام بالنفي المؤبد إلى جزائر «إندمان» قائلاً إنه لا يحب أن يسرهم ويحقق أمنيتهم ويكرمهم بالشهادة التي يعدونها أكبر كرامة ، وبهذا الطريق الغريب العاطفي الذي لم يعرف عن أمة دستورية كالإنجليز نفي الشيخ يحيى علي العظيم آبادي ، وشقيقه الشيخ أحمد الله العظيم آبادي ، والشيخ عبد الرحيم الصادقبوري ، والشيخ محمد جعفر التهانيسري ، إلى «بورت إندمان» سنة ١٨٦٥م ومات الشيخ يحيى علي والشيخ أحمد الله في «إندمان» ورجع الشيخ عبد الرحيم والشيخ محمد جعفر بعد ثماني عشرة سنة بعد الحياة الطويلة في الجلاء والبلاء ، وصودرت أملاك أسرة صادقبور الواسعة في «بتنه» عاصمة ولاية «بهار» وهدمت مبانيها الضخمة ومشت فيها السكة ، وبنيت على أنقاضها مباني البلدية ودوائر الحكومة ، ونسفت مقابرهم ودرست ، كل ذلك انتقاماً من الأعداء وشفاء للغيظ(١) .

---

(١) اقرأ القصة بطولها في مقالتنا «من الشنق إلى النفي» في=

وكذلك نفي إلى «إندمان» جماعة من العلماء الأجلاء كالعلامة فضل حق الخير آبادي ، والمفتي عنايت أحمد الكاكوروي ، والمفتي مظهر كريم الدريابادي ، ومات العلامة فضل حق في المنفى، ورجع العالمان الآخران بعد ما مكثا مدة طويلة في الجلاء.

إن هذه المعاملة القاسية الشاذة التي استمرت مدة طويلة كانت سبباً لتخلف المسلمين في الثقافة والعلم ، ومنعتهم عن أن ينالوا قسطهم في الإدارة ومصالح الحكومة ، وقد شغلهم الدفاع عن أنفسهم ونفي التهم التي كانت توجه إليهم بين حين وآخر ، عن المساهمة في سياسة البلاد ومجاراة الشعوب الأخرى التي كانت تتقدم بخطى واسعة ، وتنال من الحكومة كل تشجيع وعطف في الوعي القومي والشعور الوطني.

المؤتمر الوطني

قام المؤتمر الوطني العام سنة ١٨٨٤م وحضره عدد مشرف من وجهاء المسلمين والرجال المثقفين ، وقد رأس حفلته السنوية الرابعة التي انعقدت سنة ١٨٨٧م في «مدراس» الأستاذ «بدر الدين طيب جي» وحضره الوجيه الفاضل «مير همايون جاه» وتبرع للمؤتمر بخمسة آلاف روبية ، وحضره لفيف من الوجهاء والأغنياء من المسلمين والمحامين والتجار.

= كتاب «إذا هبت ريح الإيمان».

وكان زعيم الحركة التعليمية الإسلامية «سر سيد أحمد خان» (مؤسس الجامعة الإسلامية في عليكره) من دعاة الاتحاد الوطني ، إلا أنه بعد فترة قصيرة اتبع سياسة الانفصال عن المؤتمر بدافع الإشفاق على المسلمين ، الذين كانوا لا يزالون ضعفاء في الثقافة والوعي السياسي ، ومتخلفين في الحياة والاقتصاد والتعليم ، وحذر المسلمين عن الوقوع في نفوذ الهنادك المتحمسين ، والبنغاليين المتطرفين ، الذين بدؤوا ينتقدون السياسة الإنجليزية ويطالبون بحقوقهم ، وأشار عليهم بتكوين جبهة إسلامية والابتعاد عن «السياسة» التي قد تثير عليهم الأحقاد القديمة وتخلق المشكلات الجديدة[١] .

إلا أن عدداً كبيراً من مفكري المسلمين الأحرار وفي مقدمتهم علماء الدين ، كانوا يرون تأييد المؤتمر ويرون المساهمة في الحركات السياسية الوطنية ، ولا يعتقدون أن السياسة هي الشجرة الممنوعة للمسلمين ، فأصدر الشيخ عبد القادر اللدهيانوي

---

(١) لا شك أن هذه السياسة وهذا الأسلوب للتفكير كان خاطئاً ، وكان نتيجة تأثير الداهية الإنجليزي المستر بيك وخليفته المستر موريس اللذين ظلا يقودان عقلية المسلمين وسياستهم مدة طويلة ، وقد جنى هذا الاعتزال عن السياسة على كيان المسلمين وحياتهم القومية .

مجموعة فتاوى سماها «نصرة الأبرار» في تأييد المؤتمر الوطني سنة ١٨٨٧م.

كان من الموقعين عليها كبار العلماء في حواضر الهند المشهورة وفي المدينة المنورة وبغداد، ومنهم العالم الرباني الجليل مولانا رشيد أحمد الكنكوهي والأستاذ الكبير مولانا لطف الله العليكرهي.

وحضر حفلة المؤتمر السنوية الخامسة التي انعقدت في «إله آباد» عام ١٨٨٨م بعض كبار العلماء، وهكذا ظل المسلمون يساهمون في نشاط المؤتمر، ويشاركون مواطنيهم في هذه المؤسسة الوطنية الكبيرة.

وفي سنة ١٩١٢م نشبت حرب بلقان، وانطلقت موجة عنيفة من السخط العام على الحكومات الأوربية، وزعيمتها الحكومة البريطانية وحلفائها، وانفجر الوعي السياسي الإسلامي الشرقي، وصدرت صحيفة «الهلال» الأسبوعية التي كان ينشئها مولانا أبو الكلام آزاد، وكانت تنشر مقالات تكتب بقلم من نار، وتنتقد السياسة الأوربية الصليبية في قوة وبلاغة لا يعرف لها نظير، ويتهافت على قراءتها آلاف مؤلفة من الوطنيين، وصدرت مجلة «كومريد» (Gomrade) الإنجليزية التي كان

ينشئها مولانا محمد علي[١] من كلكتا ، ثم انتقلت إلى دهلي ، وينتقد فيها السياسة الإنجليزية في أسلوب أدبي ساخر ، وكذلك جريدة «زميندار» لصاحبها مولانا ظفر علي خان ، وصحف إسلامية أخرى ، وبذلك التهبت نار الثورة الفكرية في الهند ، واعتقلت الحكومة زعماء المسلمين ، محمد علي ، وشوكت علي ، وأبو الكلام آزاد ، وحسرت موهاني.

حركة الخلافة

وكان رئيس أساتذة دار العلوم ديوبند مولانا محمود حسن (الذي اشتهر بعد بلقب «شيخ الهند») من كبار الحاقدين على الحكومة الإنجليزية ، ولا نعرف أحداً بعد السلطان تيبو من يبلغ مبلغه في عداء الإنجليز والاهتمام بأمرهم ، ومن كبار أنصار الدولة العثمانية التي كانت زعيمة العالم الإسلامي ، وحاملة لواء الخلافة ، وكان من كبار الدعاة إلى استقلال الهند ، وتأسيس الحكومة الوطنية الحرة ، وكان من الذين ملكتهم هذه القضية وتفانى فيها ، وحاول الاتصال بحكومة أفغانستان ورجال الدولة العثمانية كأنور باشا وغيره ، وقد أسرته[٢] حكومة الشريف

---

(١) الزعيم مولانا محمد علي زعيم حركة الخلافة دفين القدس.

(٢) وأخذ فعلاً رسائل من أنور باشا في تأييد قضية الهند وكفاحها ضد الإنجليز وحث الرعايا التركية على مساعدة مولانا محمود حسن وقد دسها أصحاب الشيخ في جوف ألواح صندوق خشبي=

حسين سنة ١٩١٦م في المدينة المنورة، وسلمته إلى الحكومة الإنجليزية التي نفته وزملاءه وتلاميذه (مولانا حسين أحمد المدني ، ومولانا عزير كل ، والحكيم نصرت حسين ، والأستاذ وحيد أحمد) إلى جزيرة مالطا سنة ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م ، مكثوا هنالك إلى سنة ١٣٣٨هـ ـ ١٩٢٠م وكان مولانا عبد الباري الفرنجي محلي مؤسس جمعية العلماء من كبار المتحمسين للقضية الوطنية ، ومن كبار قادة حركة الخلافة.

وفي سنة ١٩١٨م صدر تقرير رولت (Rowlatt Report) وهوجم فيه المسلمون بصفة خاصة مهاجمة عنيفة، واتهموا بالثورة، وكان رد الفعل عنيفاً ضد هذا التقرير في طول الهند وعرضها.

وفي سنة ١٩١٩م أطلق سراح محمد علي وشوكت علي وتجلى اتحاد المسلمين والهنادك في أروع مظاهره ، واتحدوا في مهاجمة الحكومة الإنجليزية وسياسة حلفائها في قضية الحكومة العثمانية ، والنداء إلى تحرير الوطن وتأسيس الحكومة الاستقلالية ، وأصبحت الهند كمرجل ثائر يغلي حماسة وثورة.

واشترك في هذه الحركة (التي كانت ترمي في النهاية إلى

= وملأه بقماش الحرير وأرسله إلى الهند حيث وصل إلى أصحابه ، ومن هنا اشتهرت القصة بالرسائل الحريرية ، وذكرها (Rowlatt) في تقريره المشهور.

تكوين الوعي السياسي والحماس الوطني وكراهة الإنجليز) غاندي بكل نشاط وحماسة، وقام برحلات طويلة مع محمد علي وشوكت علي كان يخاطب فيها الجمهور ويخطب في الحفلات الكبيرة التي لم تشهد البلاد مثلها، ولا أعتقد أنها ستشهد مثلها، وكان الجمهور يستقبل هؤلاء الزعماء بحماسة منقطعة النظير ويهتف بحياتهم.

وفي سنة ١٩٢٠م اقترح غاندي ومولانا أبو الكلام آزاد ـ الذي كان من كبار زعماء الخلافة وحركة التحرير وأحد قادة الفكر في الهند ـ مقاطعة البضائع الأجنبية ومقاطعة الحكومة الإنجليزية والإضراب عن التعاون معها في دوائرها وفي جيوشها، فكان أمضى سلاح استعمل في حرب التحرير والكفاح الوطني في أي بلد حسبت له الحكومة الإنجليزية كل حساب، وكاد يشل الجهاز الإداري، وينشر الثورة العامة.

وكان كل ذلك ينذر بانتهاء الحكومة الإنجليزية، ويحرج جهاز الحكومة البريطانية في هذه البلاد البعيدة، إلا أن السياسة الإنجليزية أطلقت سهمها الأخير الذي لا يطيش عادة في البلاد الشرقية، وهو سهم التفريق والإفساد، أقنع الحاكم العام ورجال الحكومة أحد الزعماء الوطنيين الهنادك بضرورة الدعوة إلى الديانة الهندوكية، وإرجاع من دخل من أهل البلاد في الدين الإسلامي إلى ديانتهم القديمة، وتنظيم الشعب الهندوكي على

أساس ديني قومي حربي ، فقد ظهر تفوق المسلمين وحماستهم وحسن نظامهم في حركة الخلافة والتحرير ، وكانت القيادة السياسية في أيديهم ، لأن القضية التي كانت تثير الجماهير قضية إسلامية تتصل بمركز الخلافة .

العصبـة الإسـلاميـة

ومن هنا ظهرت الدعوة والتبشير بالديانة البرهمية والآرية وتنظيم الهنادك على طراز حربي، وانتشر دعاتها في الهند، وظهرت إزاء ذلك حركة الدعوة إلى الإسلام وتنظيم المسلمين على أساس مستقل، وبدأت المناظرات الدينية والخطب العاطفية والحماسية، وانفجرت الاضطرابات الطائفية في شبه القارة الهندية .

وبقي المؤتمر الوطني يعمل عمله ويعقد حفلاته ، وقد رأس حفلة سنة ١٩٢٣م الخصوصية في دهلي مولانا أبو الكلام آزاد والحفلة السنوية العامة في نفس السنة في «كوكنادا» مولانا محمد علي .

واستمرت الاضطرابات وعنفت حتى كانت في سنة ١٩٢٧م في بضعة شهور فقط خمسة وعشرون اضطراباً ، وكانت هذه الاضطرابات حديث النوادي والصحف والشغل الشاغل للبلاد ، ولم يستطع زعماء المؤتمر وحركة الخلافة أن يوقفوا هذه الاضطرابات ، ويرجعوا المسلمين والهنادك إلى الصفاء والثقة التي كانت تسود قبل ذلك ، ولم تزل الفجوة بين الطائفتين

ـ المسلمين والهنادك ـ تتسع وتعمق ، والجفوة بينهما تقوى وتكبر ، والاتجاه إلى الانفصال في الزعماء يزداد قوة حتى أصبح واقعاً عملياً.

وبدأ الناس يشعرون بخمود الحماسة الوطنية أو بضعفها في الزعماء الوطنيين وانحيازهم إلى المعسكرات الطائفية وخضوعهم للعواطف الدينية والنعرات الطائفية ، وبدأ الزعماء الوطنيون المسلمون يشعرون بأن الزعماء الوطنيين الهنادك ـ وعلى رأسهم الزعيم غاندي ـ لم يستعملوا كل نفوذهم في وقف هذه الاضطرابات الطائفية وفي محاسبة شعبهم وأصحاب ديانتهم ـ الذين يكونون الأكثرية في البلاد ـ فيما يصدر منهم من الاعتداء والسبق وإنه لم يظهر من هؤلاء الزعماء من الحياد التام والمساواة بين الطائفتين ما كان ينتظر من زعيم وطني عام.

وسواء كان هذا الشعور صحيحاً أو كان فيه شيء من التشاؤم وسوء التفاهم ، فقد جعل هذا الشعور يضعف نشاط بعض الزعماء الوطنيين المسلمين ـ الذين كانوا مشعل الحماسة الوطنية ، وكانت لهم مواقف خالدة في الدفاع عن الوطن والكفاح ضد الإنجليز ، كمولانا محمد علي ـ في تأييد المؤتمر ، وجعلهم ينظرون إلى المسلمين كأمتهم التي يأوون إليها، ويشكون من زعماء المؤتمر ضيق التفكير ، وضيق الصدور فيما يتصل بالمسلمين.

وهكذا انفصل مولانا محمد علي وكثير من زملائه عن المؤتمر وانضموا إلى الجبهة الإسلامية ، وقويت حركة الانفصال التي كان يتزعمها محمد علي جناح رئيس العصبة الإسلامية «League Muslim» الإسلامي وحماسه ، حتى نادت في الأخير بتقسيم الهند، ونجحت بفضل عقلية الأكثرية الضيقة وشذوذ معاملتها وتفكيرها مع المسلمين[١] .

جمعية العلماء

وبقي مولانا آزاد ، وكثير من العلماء الذين كانوا ينتسبون إلى «جمعية العلماء» ، أوفياء للمؤتمر ثابتين على موقفهم القديم ووجهة نظرهم ، وعلى رأسهم وفي مقدمتهم العالم الجليل المجاهد مولانا حسين أحمد المدني ، وهو خليفة شيخه مولانا محمود حسن في العداء الشديد للإنجليز والحماس للقضية الوطنية والإخلاص لها والتفاني في سبيلها ، وقد تحمل هو وزملاؤه[٢] أعضاء جمعية العلماء كل سخط وإهانة من العنصر

---

(١) جاء في خطبة مولانا أبي الكلام التاريخية الخالدة التي ألقاها في البرلمان الهندي وقد أشار إلى بعض أعضاء البرلمان الهنادك الذين اعترضوا على مساعدة وزارة المعارف للمؤسسة العلمية المشهورة «دار المصنفين» في أعظم كره لأنها تنسب إلى المسلمين «إن هذه العقول الصغيرة هي التي كانت سبباً في تقسيم الهند» .

(٢) نذكر منهم بصفة خاصة المفتي الأكبر مولانا كفاية الله، ومولانا =

الإسلامي المتحمس المندفع تحت قيادة العصبة الإسلامية وكان مركز نشاط عظيم ، ودوامة لا تسكن ولا تهدأ ، مع النزاهة التامة وصرامة لا ضعف فيها، ودين لا مغمز فيه.

كان إخلاصه غير منازع فيه ، يقره صديقه ومعارضه ، فلما نالت الهند الاستقلال ، وكانت الفرصة مواتية لجني ثمار الحرية ، والانتفاع من الحكومة المحلية ، وتهافت الناس عليها ، كانت شخصيته الوحيدة هي التي أبت قبول أي نفع أو كسب ، فلما أعلن رئيس جمهورية الهند في عام ١٩٥٢م إكرامه بوسام «بدم وبهوشن» الفخري ، رفضه الشيخ قائلاً: إنه يتنافى مع طريق السلف ، واعتذر ، ولا شك أن الأماني والتطلعات العالية التي كان يعقدها بحرية الهند لم تتحقق كلياً ، وأنه مر في عهد الحرية بتجارب قاسية حطمت قلبه ، وخيبت آماله ، لكنه ظل صامداً متصلباً في مبادئه ونظرياته ومذهبه بعد الحرية؛ كما كان صامداً متصلباً في ساعات العسر ، أيام العبودية والاستعمار.

وكان مولانا أبو الكلام آزاد رئيس المؤتمر الوطني لأطول مدة تمتع بها رئيس ، وفي أحرج فترة مرت بها البلاد ، وفي عهد

= محمد سجاد البهاري، ومولانا حفظ الرحمن الأمين العام للجمعية وعضو البرلمان الهندي.

رئاسته زارت البعثتان الحكوميتان لحل القضية الهندية والمفاوضة في شروط الاستقلال وتفاصيله ، فكان مولانا أبو الكلام بصفته رئيساً للمؤتمر الوطني الهندي ممثلاً للمؤتمر الوطني ولسان حاله ، وقد اعترف أعضاء البعثات وعلى رأسهم السياسي الإنجليزي «Sir Stafford Gripps» بذكائه ولباقته وحنكته السياسية والفطنة للدقائق الدستورية .

وفي عهد رئاسته وتحت إشرافه وتوجيهه نالت الهند الاستقلال ، ويدل كتابه «الهند تنال الاستقلال» «Freedom india Wins» على أنه كان العقل المفكر الموجه في جهاز المؤتمر الوطني، وكان يسيطر على زملائه وعلى الجهاز الإداري وسياسة البلاد بعقله النابغ، ونظره البعيد ، وشخصيته القوية ، وله في حركة استقلال الهند والكفاح الوطني أوفر نصيب يمكن أن يكون لزعيم وطني .

* * *

مشكلات الشعب الإسلامي الهندي

لكل شعب مشكلات تمتحن جدارته للبقاء وتشغل مواهبه وتثير كوامنه وتبعث فيه النشاط واليقظة ، وكل شعب لا مشكلة له لا يصلح للاعتماد والثقة، ومعرَّض لخطر الخمود والاستنامة والإخلاد إلى الراحة .

وللشعب الإسلامي الهندي مشكلات يعانيها اليوم ويحاول حلها والتغلب عليها ، كان بعضها نتيجة أخطائه ، وبعضها نتيجة رواسب الماضي ومخلفاته الفكرية والسياسية ، وبعضها نتيجة وضع الأحوال والحوادث التي مرت بها الهند في العهد الماضي ، ولا شك أن جميع هذه المشكلات عارضة طارئة ، ستنحل إذا أثبت الشعب الإسلامي صبره واحتماله ، وعالج الأمور بحكمة وأناة ورفق ، وقدرت له القيادة الرشيدة المتزنة الجريئة ، ونذكر هنا أهم مشكلاته .

الدعوة الإسلامية

إن المشكلة الكبرى من هذه المشكلات هي مشكلة الدعوة

الإسلامية ، يعرف الجميع أن الإسلام دين دعوة وهداية عامة ، وكان انتشار الإسلام وازدهاره عن طريق الدعوة والهداية ، والعدد الذي دخل في الإسلام في الهند بفضل الدعاة المخلصين من الصوفية والمشايخ والتجار والربانيين أكثر جداً ، من عدد المسلمين الذين نزحوا إلى الهند من الأقطار الإسلامية العريقة في الإسلام كجزيرة العرب وإيران وتركستان ، ولم تزل الدعوة الإسلامية المخلصة تضيف إلى الجسم الإسلامي دماً جديداً قوياً في كل عصر ، وتمنح المجتمع الإسلامي في الهند مهتدين جداً أثبتوا نبوغهم وعبقريتهم فيما بعد ، ولم تزل أسر عريقة في الشرف والأصالة معروفة بالذكاء والنجابة تنتقل وتنضم إلى الأسرة الإسلامية الكبيرة ، وفي أعلام الشعب الإسلامي الهندي ورجالاته من ينتمي بنسب قريب أو بعيد إلى أسرة هندوكية ، ومن هؤلاء في الماضي القريب مولانا عبيد الله البتيالوي صاحب «تحفة الهند» ، ومولانا عبيد الله السندي ، والعلامة محمد إقبال ، والشيخ ثناء الله الأمر تسري ، ومولانا أحمد علي اللاهوري ، ومولانا معين الدين الأجميري ، وكلهم علماء أجلاء ودعاة ومصلحون ، وقليل من المسلمين يعرفون أنهم من أسر دخلت في الإسلام، أو كان عدد منهم من شرح الله صدره للإسلام فأسلم بنفسه .

وكانت الدعوة الإسلامية والهداية الإسلامية تعملان عملهما

وتشقان طريقهما إلى الأمام في العهد الإسلامي الأخير وإلى آخر عهد الحكومة الإنجليزية ، وكان عدد كبير من غير المسلمين يدخل في الإسلام طوعاً كل سنة لما يمتاز به الدين الإسلامي من المبادىء الحكيمة المعقولة ، ووجود عقيدة التوحيد النقية والعدل والمساواة ، وعدم وجود طبقات متفاوتة واللمس المنبوذ ، وكان القرآن والسيرة النبوية وتعاليم الإسلام تفتح قلوباً جديدة وتنير عقولاً جديدة ، وكان من الممكن المتوقع أن يصبح الإسلام ـ لو جرت الأمور مجراها الطبيعي ـ أعظم قوة في القارة الهندية ، ثم أعظم قوة في آسيا .

ونشبت المعركة السياسية بين المسلمين ومواطنيهم، وحميت في الأيام الأخيرة ، وتوترت منها قلوب الطائفتين، وامتلأت ضغناً وحقداً وشكاً ، واتسعت شقة الخلاف ، وكان من نتيجتها انفصال الطائفتين وانقسام الهند وقيام دولتين مستقلتين إحداهما الجمهورية الهندية والأخرى الجمهورية الإسلامية الباكستانية ، ولسنا الآن بصدد الحكم على هذا الوضع ، هل كان من الممكن التفادي عما وقع؟ وهل كان هنالك طريق أفضل؟ وهل كان عملياً أم لا؟ هذا كله نتركه للمؤرخ السياسي ، والذي يكتب تاريخ الهند بحرية وتفصيل وإنصاف ، ولكن الذي يهمنا الآن هو أن هذا الوضع السياسي الذي جرت إليه الأحوال والظروف أو لجأت إليه الهند طائعة أو مكرهة ، خلف مرارة في

القلوب وشكاً في قلب كل طائفة للأخرى ، وزهداً وانصرافاً عن كل ما تتسم به تلك الطائفة من دين وعقيدة وثقافة وحضارة ، بل وكراهة لما تتبناه وتتزعمه بطبيعة الحال ، وكان ذلك حاجزاً كبيراً في سبيل انتشار الإسلام في الهند ، لأنه دين الدولة المنافسة القائمة لها بالمرصاد ودين شعب قامت بينه وبين الشعب الهندي معارك سياسية وحروب طائفية ومناوشات كلامية ، فيبعث ارتفاع عدد المسلمين نسبياً بالمواليد ، أو بدخول أفراد الطبقات المتخلفة المضطهدة في الإسلام قلقاً وخوفاً في أوساط الأغلبية ، فيفكر بعض الزعماء في قمع نشاطات الدعوة وتحديد النسل.

أضف إلى ذلك أن الدول التي تتسمى بالإسلام والمجتمع الذي يدين بالإسلام على الحدود لا يمثلان مع الأسف في الأخلاق والسياسة ما يزيد ثقتهم بالإسلام ويبعث على إجلاله وإكباره ، وزيادة على ذلك أن الأحوال السياسية والاقتصادية في باكستان تبرهن بعض الأحيان عند المتشككين على إخفاق دولة تنتمي وتقوم على أساسه ، وقد يقرأ الإنسان في صحيفة أو يفاجأ ما يباعد عن الإسلام فيقوم حجاب دون فهم حقيقته ومدى تأثيره في النفوس.

هذه هي مشكلة المشكلات في الهند ، ولا شك أن امتداد الأيام وتحسن العلاقة بين باكستان والهند وتغلب العقل على

العاطفة سيحل هذ المشكلة ، ويبدأ الإسلام سيره ونشاطه من جديد إذا قام المسلمون بدعوة إسلامية رقيقة خالصة مخلصة ، لا تشوبها السياسة والطموح والكبرياء ، دعوة لا تقصد إلا هداية الناس وإسعاد النفوس وخدمة الخلق والنصح الخالص ، والإشفاق على مصير بني آدم ، وتحفظهم من مهالك الدنيا والآخرة ، ووفق المسلمون لإخراج كتب في شرح تعاليم الإسلام وعرض السيرة النبوية واللغة الهندية واللغات الإقليمية في أرقى أسلوب عصري وشكل جذاب ، وتغلغلوا في المجتمع الهندي بدعوتهم، وأثبتوا تفوقهم الروحي والخلقي وإخلاصهم ووفاءهم لبلادهم وحرصهم على تقدمها ورفاهيتها .

الأحوال الشخصية :

وهي المشكلة الثانية التي تلي المشكلة الأولى ، وقد تفوقها في الخطورة والنتائج ، لأن المشكلة الأولى إنما تقف سداً في سبيل انتشار الإسلام وتوسعه ، حين كانت المشكلة الثانية تهدد وجود الشعب المسلم بإسلاميته وثقافته ومعتقداته .

فقد كانت الأحوال الشخصية الإسلامية التي تشتمل على مسائل الطلاق والزواج والإرث ومسائل دينية أخرى بعيدة عن متناول القانون المدني ، وكان يقضي فيها في ضوء الفقه الإسلامي رغم أن أصواتاً كانت ترفع من حين لحين بدمج هذه المسائل إلى القانون المدني الموحد ، لكن الحكومة الهندية لم

تتخذ إجراء لتغيير قانون الأحوال الشخصية الإسلامية ، وأكدت للمسلمين بأنها سوف لا تغيره ما لم يطالب به المسلمون أنفسهم.

وقد تفاقم الوضع إثر صدور حكم من المحكمة العليا المركزية في قضية شاه بانو ، محمد أحمد ، التي قضت المحكمة العليا فيها بمنح المرأة المسلمة المطلقة النفقة من زوجها المطلق إلى أن تموت أو تنكح زوجاً غيره تطبيقاً لمادة ١٢٥ من قانون الجنايات الهندي الذي لا يفرق بين المطلقة والزوجة الشرعية في النفقة ، وادعت المحكمة أن هذا القانون لا يتنافى مع حكم القرآن الكريم تفسيراً خاطئاً لكلمة «المتاع» التي وردت في القرآن ، وتجاوزت المحكمة العليا إلى الاقتراح بتعديل الأحوال الشخصية الإسلامية استناداً إلى بند ٤٤ في الدستور الهندي الذي يقتضي لفرض قانون مدني موحد ينطبق على جميع طبقات الشعب كلياً ، وقد كانت الحكومة الهندية تؤكد كلما احتج المسلمون على المحاولة لتعديل الأحوال الشخصية وفرض قانون موحد أن قانون الأحوال الشخصية سيبقى على حاله ما لم يطالب المسلمون أنفسهم بتغييره ، وفي الوقت نفسه كانت الجهات الرسمية والطوائف المعادية للإسلام تتصيد رجالاً منعزلين من التيار الإسلامي ليتقدموا بالمطالبة بتعديل

الأحوال الشخصية ، ولكن خيب المسلمون دائماً كل هذه المحاولات باحتجاجهم.

إن بقاء قانون الأحوال الشخصية هو الضمان الوحيد لتمسك المسلمين بصبغتهم الدينية ، فإن التعليم الجديد والثقافة القومية قد قضت على كثير من خصائصهم ، فإن الطلاق والنكاح ، والإرث والأمور الأخرى المنصوص عليها في القرآن والسنة ، والتي تفصل بين المسلم وغيره ، إذا غيرت وأخضعت للقانون المدني العلماني ، فقد المسلم كل ما يميزه عن غيره ، ثم تأتي العبادات وطرقها والعقائد ، وتبذل محاولة لإخضاع كل ركن من أركان الإسلام للطابع القومي ، ثم تأتي مسألة الأسماء الموحدة ، يفقد المسلمون شخصيتهم كما فقدوا في بعض البلدان الشيوعية.

ولو أن الحكومة الهندية المركزية تؤكد عدم التدخل في تأدية الشعائر الدينية ، ولكن لقلق المسلمين مبررات ، فإن جهات معينة تنتمي إلى التطرف الهندوكي لا تخفى هواياها في تهنيد المسلمين كلياً ، وترتفع هذه الأصوات في اجتماعات وبيانات صحفية ، ومن هذا القبيل حركة استعادة المساجد القديمة وتحويلها إلى معابد بدعوى أنها كانت معابد حولها المسلمون في عهد الحكم الإسلامي إلى مساجد ، ولا تتخذ الحكومة إجراء صارماً ضد مثل هذه المطالب ما يقنع المسلمين على أنها لا تؤيد

هذه الحركة، وتضع السلطات التنفيذية قيوداً على بناء مساجد جديدة.

وقد جدد حكم المحكمة العليا هذه المخاوف ، فوقف المسلمون صفاً واحداً للاحتجاج ضد هذا الحكم واقتراح المحكمة العليا ، وطالبوا بتعديل في الدستور ، واستثناء الأحوال الشخصية الإسلامية بصراحة ووضوح ، وسن قانون لإبطال قرار المحكمة العليا ، وسد كل باب ومنفذ للتوغل في الأحوال الشخصية ، وأن تبقى التعاليم الدينية المنصوص عليها والشعائر الدينية في نجوة من تطبيق القانون الوضعي ، ومن تعسف تأويل القانونيين.

وسبق أن قد ألف للحفاظ على الأحوال الشخصية الإسلامية مجلس الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند في عام ١٩٧٢م وكان رئيسها الأول الشيخ محمد طيب رئيس دار العلوم ديوبند سابقاً ، ورئيسه الحالي مؤلف هذا الكتاب ، ولهذا المجلس دور ملحوظ في مواجهة المحاولات لتغيير الأحوال الشخصية ومقاومة القوانين التي تتعارض مع التعاليم الإسلامية كقانون الأوقاف ، وقانون التبني ، ونفقة المطلقة.

وبعد وفاة الشيخ محمد طيب انتخبت لرئاسة هذا المجلس ، وفي هذا العهد ثارت المشكلة ، وبعد محادثات شخصية مع رئيس الوزراء ، وتقديم مذكرات احتجاج من سائر أنحاء الهند ، التي اتخذت في اجتماعات حاشدة أعرب المسلمون فيها عن

استعدادهم لتقديم أي تضحية في هذا السبيل رضخت الحكومة لمطالب المسلمين ، واتخذت مشروع القانون الخاص بحقوق المرأة رغم معارضة الأغلبية في البلاد التي شنت حملة ضد أي تعديل في الدستور .

وقد هدأت هذه العاصفة باتخاذ التعديل ، ولكن لا تزال ترتفع أصوات بفرض قانون موحد للأحوال الشخصية ، ويواصل المسلمون كفاحهم لتخييب مثل هذه المطالبة .

التعليم والتربية

المشكلة الثالثة هي مشكلة التعليم، كان دستور الجمهورية الهندية العلماني يكفل حرية العقيدة والديانة والثقافة لكل عنصر من عناصر القومية الهندية ، ويساوي بين العناصر المختلفة والطوائف الهندية ، وهو أفضل دستور لقطر يسكنه شعوب كثيرة ذات ديانات كثيرة وحضارات وثقافات متنوعة ، وكان أفضل نظام من نظم المعارف في مثل هذه البلاد نظام لا يتبنى ديانة خاصة وعقيدة خاصة ، فإما أن يجمع بين تعاليم أديان مختلفة وينظر إليها بعين واحدة ، وهذا يصعب تطبيقه في قطر مثل الهند غني بالديانات والحضارات ، وإما يعتزل جميع هذه الديانات والعقائد ولا يتناولها بالعرض ولا يتعرض لها نفياً ولا إيجاباً ، ويبقى مقصوراً على الثقافة العامة ، والمعلومات المدنية وما يحتاج إليه الطالب في حياته من مواد دراسية .

وقد كان المشرعون وواضعو الدستور الهندي عقلاء بعيدي النظر إذ فضلوا القسم الثاني ، وذلك كان الوضع السائد والخطة المتبعة في العهد الإنجليزي ، هذا ما لا يقبل مناقشة ولا يثير اعتراضاً ، وكان المسلمون مسرورين إذا كان هو الوضع التعليمي في الجمهورية الهندية وولايتها المختلفة .

ولكن من المؤسف المقلق أن هذا لم يتجاوز صفحات الدستور والبلاغات الرسمية ، فقد تبنى واضعو المناهج الدراسية ومؤلفو الكتب المقررة للتدريس في ولايات الجمهورية ، خصوصاً في الولاية الشمالية ، ديانة الأكثرية وعقيدتها بعرض شعائرها وآلهتها ومقدساتها وأساطيرها الدينية مما يتنافى مع تعاليم الإسلام، ويضاد عقيدة التوحيد البسيطة ، وما جاء في القرآن من وصف الله تعالى بصفات العظمة والجلال والقدرة والكمال والتفرد والتعالي عن المثال وعدم الحلول والاتحاد ، وينافي عقيدة الرسالة والنبوة الإسلامية ، ويدعو إلى تقديس هذه الآلهة الأسطورية وعبادتها ، وتقديس بعض الأنهار والمدن وتأليهها ، ويصور الهند ـ البلاد التي تسكنها الطوائف الكثيرة ـ كبلد ليس فيه ديانة غير الديانة البرهمية ومعابدها واحتفالاتها وأعيادها وتقاليدها ومراكزها الدينية والروحية .

والكتب التي قررت للمطالعة ليطلع التلاميذ على تاريخهم الماضي، ويتعرفوا بالشخصيات الكبيرة قد اقتصرت على

شخصيات شعب خاص وديانة خاصة ، وأعرض مؤلفوها ـ في تصميم وتفكير ـ عن الحديث عن أي شخصية كبيرة من شخصيات العهد الإسلامي الزاهر سواء كانت من عباد الله الصالحين، أو من الملوك العادلين ، أو المشرعين النابغين ، أو الإداريين الحازمين ، أو العلماء العبقريين ، أو الشعراء المفلقين ، مع أنها من مفاخر الهند ومن أعلامها التي يتباهى بها الهنديون على اختلاف دياناتهم يتجمل بها تاريخ الهند العام ، وفيها أسوة وحافز للتلاميذ الصغار والشباب الناهضين ، وعاملوا العهد الإسلامي ومن نبغ فيه من الرجال وأصحاب الفكر والكمال معاملة الأجانب ومعاملة الغرباء ، وإذا ذكروا بعضهم لم يحسنوا تصويرهم، أو نسبوا إليهم ما يحط من شأنهم، بل وربما نسبوا إلى الرسول الأعظم ﷺ من الأخلاق والأعمال والحوادث ما لا يليق بإنسان شريف فضلاً عن الرسل ، ويجرح شعور كل مسلم ويثيره.

إن وجود مثل هذه الكتب المقررة في نظام تعليمي إجباري تفرض دراستها على أولاد المسلمين وشبابهم حين لا يتلقون تعليمهم وثقافتهم عن مصدر آخر، وتؤسسس مئات آلاف من المدارس في المدن والقرى والأرياف ، وضع محرج للمسلمين يبعث فيهم القلق الشديد والإشفاق على مستقبلهم الديني وعقيدة أجيالهم ، ويهدد كيانهم الملي في هذه البلاد التي يعتبرونها وطناً لهم، وقد صمموا على الإقامة والبقاء فيها وخدمتها بكفاياتهم

ومواهبهم والمساهمة في نشاطها، ويجعلهم يخافون على أبنائهم وأفلاذ أكبادهم من الردة الفكرية والثقافية ، ومن الردة الدينية ومن الوثنية ، وقد بدت طلائع هذه الردة في الأوساط التي أثر فيها هذا التعليم وانقطعت صلتها عن مصدر ثقافي أو عن الدعوة الإسلامية ، وبدأ الصغار السذج من أبناء المسلمين يتظاهرون بالشعائر البرهمية ويدينون ببعض عقائدها .

مجلس التعليم الديني

إنه مبعث قلق عظيم وإشفاق وحذر في أوساط المسلمين وفي المجتمع الإسلامي؛ فلذلك انعقد مؤتمر عظيم في إحدى مديريات الولاية الشمالية (بستي) حضره عدد كبير من المسلمين من كل مذهب ومدرسة فكرية ، وثلاثمئة ممثل ومندوب من مختلف الطبقات، وطلبوا من الحكومة أن تصلح برامج التعليم الرسمي وتسحب هذه الدروس التي تنافي العقيدة الإسلامية وتقوم على أساس ديانة خاصة وفكرتها وأساطيرها ، وتحافظ على علمانية المعارف كما يقررها الدستور، وعزموا على إنشاء كتاتيب ومدارس تعلم أطفال المسلمين التعليم الديني في أوقات الفراغ ، وإنشاء مدارس تعلم المناهج الدراسية المقبولة في المعارف مع مادة الديانة وإضافة دروس تعاليم الإسلام ، وقد كان لهذا المؤتمر تأثير كبير في الوسط الإسلامي ، وانبثت فروعه في أنحاء الولاية ، وانعقدت مؤتمرات عظيمة، وكانت الفكرة التي يلتقي عليها

المسلمون وأفراد الأقلية على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم .

ولجمعية العلماء أيضاً نشاط في حقل نشر التعليم الإسلامي وتأسيس الكتاتيب والمدارس في المدن والقرى .

مشكلـة اللغـة الأرديـــة

المشكلة الرابعة هي المشكلة اللغوية ، نشأت لغة أردو باختلاط العناصر المختلفة والأجناس المختلفة من أهل الهند وكانت مزيج الثقافات المختلفة ووليدة اللغات الأربع القديمة : السنسكريتية ، والعربية، والفارسية ، والتركية ، واقتبست في العهد الأخير من اللغة الإنجليزية مفردات كانت جارية على ألسنة العامة ، وأصبحت هكذا لغة تمثل القومية الهندية خير تمثيل ، وأصبحت لغة الجمهور ولغة الثقافة والعلوم والآداب الرفيعة ، والصحافة والسياسة ، وأصبحت أداة التفاهم بين الولايات الهندية والمناطق المختلفة التي لكل منها لغة محلية خاصة ، ويتكلم بها عامة الجمهور في الولايات الشمالية وفي ولاية «بهار وفي دهلي وما جاورها من المدن وفي ولاية حيدر آباد» ، وهي اللغة الوحيدة التي يفهمها أكثر أهل الهند في كل منطقة وولاية ، ويصدر فيها صحف ومجلات تلي الصحف الإنجليزية السيارة في عدد قرائها والمشتركين فيها .

كانت «أردو» هي اللغة الرسمية (الثانية بعد الإنجليزية) التي تستعمل في المحاكم والإدارات والمدارس حتى اقتضت سياسة

الإنجليز في عهد حاكم الولاية الشمالية (Sir Antony Macdonalde) أن يشجعوا اللغة الهندية، ويحدثوا تنافساً بين اللغتين الشقيقتين ، ويبذروا بذرة العداء بين الطائفتين ، فقرر الحاكم المذكور في ١٨ من أبريل عام ١٩٠٠م قبول اللغة الهندية ، واستعمالها في المحاكم ، فمن ذلك الحين برزت إلى الميدان ، واستقلت الهند وانقسمت سنة ١٩٤٧م وقرر دستور الجمهورية الهندية كما تقول مادة (٣٤٣) إن اللغة الجمهورية الرسمية هي الهندية في الحروف السنسكريتية[١] وقرر الدستور أربع عشرة لغة هي لغات المناطق كلغات الهند المعترف بها دستورياً ، وفيها أردو ، وقرر الدستور أن كل لغة يتكلم بها عدد يعتد به يعترف بها ويمنح أهلها كل تسهيلات لتعليمها لأبنائهم إذا طلبوا ذلك ، واقتنع رئيس الجمهورية بوجود هذا العدد ورغبته في أن هذه اللغة أداة التعليم لأبنائه فتقول مادة (٣٤٧) :

«إذا رغب عدد وجيه من أهل ولاية في أن يستعمل لغة يتكلم بها ، وطلب أن تعترف بها حكومة الولاية ، واقتنع رئيس الجمهورية بأن من يطلب ذلك يشكل عدداً لا يستهان به ، فللرئيس أن يصدر أمراً بالاعتراف بهذه اللغة رسمياً واستعمالها للمقاصد التي يصرح بها الرئيس» .

---

(١) كتابة خاصة في حروف خاصة تكتب من الشمال إلى اليمين كاللاتينية .

ولكن الولايات التابعة للمركز ، وخاصة الولاية الشمالية ـ التي كانت تعتبر مركزاً للغة أردو فيها تهذبت ورقت ـ ألغت لغة أردو كمادة دراسية وكأداة التعليم في المرحلة الإعدادية والتحضيرية ، وقررت اللغة الهندية لغة إجبارية وأداة التعليم الوحيدة التي يتلقى فيها التلاميذ المواد الدراسية وإن كانت لغتهم التي يتكلمون بها ويتكلم بها آباؤهم هي لغة أردو ، وطبقت وزارة المعارف في ولاية (يوبي) هذا القرار بدقة وشدة ، ومنعت دراسة لغة أردو في مدارسها الابتدائية قاطبة ، وهكذا أقصيت لغة أردو من المدارس الابتدائية إقصاء تاماً .

إن إلغاء لغة أردو كمادة دراسية في المدارس وكأداة التعليم كان مؤثراً في ثقافة جميع العناصر والطوائف التي تتكلم بها وفي مستقبلها المنوط باللغة ، ولذلك أثار موقف الحكومة المعادي إزاء هذه اللغة سخطها واعتراضها ، ولكن تأثيرها في ثقافة المسلمين ومستقبلهم كان أعظم وأعمق .

وكان هذا التأثير يتجاوز الثقافة إلى العقيدة والمستقبل الديني ، لأن أردو هي الوسيلة الوحيدة التي تربطهم بالثقافة الإسلامية ففيها المكتبة الدينية وحروفها عربية ، فتسهل بها قراءة القرآن ودراسة اللغة العربية لمن يرغب في هذه الدراسة ، وفيها آدابهم وحضارتهم ، وتاريخهم ، ومعنى انقطاعهم عن هذه اللغة وجهلها ، الانقطاع عن ثقافتهم وماضيهم ، فاعتبروا بحق إلغاء

هذه اللغة في المدارس قضاء على قوميتهم وثقافتهم وخصائصهم وكيانهم ، فاحتجوا ضد هذا الموقف الذي تقفه الحكومة نحو هذه اللغة المعترف بها رسمياً ، الواسعة الانتشار ، الحية السائدة التي يتكلم بها ملايين من أهل البلاد ، فأصدرت الحكومة المركزية قراراً يقول :

«ينبغي أن تكون اللغة التي يتكلم بها الطفل والتي هي لغة أبويه أداة التعليم والامتحان في مدرسته ، وإذا كانت لغة الطفل تختلف عن لغة المنطقة واللغة الرسمية ويرغب عدد من التلاميذ لا يقل عن أربعين في المدرسة وعن عشرة في الصف فلا بد من تعيين معلم لتعليم المواد الدراسية في هذه اللغة» .

وعلى هذا الأساس قدم المسلمون والذين يتكلمون لغة أردو طلباً بتوفير التسهيلات لتعليم أطفالهم لغة أردو وتعيين أستاذ لذلك في مواضع كثيرة ، ففي لكهنؤ وحدها قدم أولياء التلاميذ طلباً بذلك عليه توقيعات عشرة آلاف من الآباء يطلبون من وزير المعارف تهيئة الأسباب لتعليم أردو وتعيين الأساتذة لهذه المادة في المدارس الابتدائية التي يتعلم فيها أبناءهم وهم حريصون على تعلم أردو ، ولكن كل ذلك لم ينفع، ولم يتغير موقف الحكومة ، وبقيت لغة أردو ملغاة خارجة عن المناهج الدراسية المتبعة في هذه الولايات ، وكلما تقدم طالب إلى مدير مدرسة يطلب تعيين أستاذ لتدريس أردو وتقرير دراستها اعتذر المدير بأن

عدد الراغبين في ذلك لا يبلغ العدد المعين في القرار الرسمي مع أنهم يتجاوزون هذا العدد في المجموع.

وبعد كل هذه الاحتجاجات والمحاولات لم ير الناطقون بأردو والمختصون لها حيلة غير أن يلجؤوا إلى مادة الدستور رقم (٣٤٧) التي تمنح رئيس الجمهورية إصدار أمر بالاعتراف بلغة يتكلم بها عدد وجيه من أهل البلاد واستعمالها للمقاصد التي يصرح بها الرئيس ، فبدؤوا يجمعون توقيعات الأفراد الذين كانوا يتكلمون بأردو ويرغبون في أن يدرسها أبناؤهم ، وكانت حملة ثقافية منظمة تحت إشراف جمعية ترقية أردو(أنجمن ترقي أردو) شملت مديريات الولاية الشمالية ، وتأسست لها فروع ومراكز في هذه المديريات والمناطق ، وكانت مع ذلك حملة هادئة تعتمد على الوسائل الأدبية وحدها ولم تستعن بوسائل العنف والتهريج والإرهاب ، ولا بالأساليب السياسية ، ونجحت هذه الحملة فوقع مليونان وخمسون ألفاً من الرجال البالغين وأكثر من مليونين من غير البالغين يطلبون أن يعترف بأردو كلغة المناطق في الولايات الشمالية ، وأن يسمح بأن تكون أداة التعليم للأطفال الذين يتكلمون بها ، وأن يطبق قرار الحكومة المركزية لتعيين أستاذ للتعليم في أردو إذا بلغ عدد التلاميذ الراغبين في ذلك العدد المطلوب المعين في القرار.

وتشكل لهذا الغرض وفد وجيه يشتمل على كبار رجال الثقافة

من المسلمين والهندوس يزور رئيس الجمهورية الهندية يقدم هذا الطلب الذي يشتمل على أكثر من مليونين من التوقيعات ، ولعله أكبر طلب يتحلى بتوقيعات أكبر عدد من الجمهور يقدم إلى رئيس حكومته ، وكان رئيس هذا الوفد الدكتور ذاكر حسين من رجال الثقافة العالميين ومدير جامعة عليكره سابقاً ورئيس الجمهورية الهندية أخيراً، وقد زار هذا الوفد رئيس الجمهورية في دهلي الجديدة، وطلب زيادة على الاعتراف بلغة أردو واستعمالها في المدارس قبول الطلبات التي تكتب في لغة أردو في محاكم الولاية الشمالية وإداراتها ، وإصدار البلاغات والمطبوعات الرسمية في أردو كذلك، وتشجيعها وإعطاء الجوائز لمؤلفيها ، وأن تحتضنها المجامع العلمية الرسمية ، كما كان الوضع في السابق ، وأن تعاد أردو إلى اعتبارها ومكانتها السابقة في دوائر الحكومة ، وتكون هذا الوفد باثني عشر عضواً نصفهم من كبار المثقفين الهندوس .

وقد قابل رئيس الجمهورية هذا الوفد الموقر وأصغى إلى مطالبته وأبدى عنايته لقضيته وعطفه عليها ، ولكن لم يتغير الوضع ولم يحدث شيء جديد يطمئن إليه أصحاب قضية أردو المشفقون على مستقبلها ، وظلت ـ ولا تزال ـ هذه اللغة مجفوة مطاردة في وزارة المعارف وفي المدارس الرسمية ، ولا يزال أبناء الطوائف والعناصر التي تتكلمها محرومين ممنوعين من دراستها في المراحل الابتدائية ، وبذلك يزدادون بعداً عن ثقافتها

وينشؤون على جهلها ، حتى انقطعت صلتهم عن ثقافتهم القديمة وعن ماضيهم وعن عقيدتهم وشريعتهم التي يدينون بها ، حتى بدأ يظهر جيل جديد لا صلة بينه وبين الأجيال القديمة ، ينشأ بعيداً عن محيطه الديني والثقافي ويصعب عليه الاتصال به إن حاول ذلك ، فقد انهدمت القنطرة التي يعبر عليها إلى ثقافته وانقطع الخيط الذي يربطه بماضيه وأسلافه ، مشكلة معقدة طريفة يقابلها المعلمون في بلادهم الأم ومهدهم ، ونذير بين يدي خطر شديد ومستقبل رهيب ، ولا شك أن الوعي السياسي والقومي سيحل هذه المشكلة ويطبق الدستور بأمانة ، ويتخلص المسلمون والطوائف الأخرى عن هذه الأزمة التي كانوا في غنى عنها ، وكانت البلاد في حاجة إلى ثقة تسود ونشاط يعم وتعاون يشمل ، ولا يكون ذلك إلا إذا اطمأن كل عنصر من عناصر الجمهورية الهندية إلى مستقبله الثقافي والديني ، وجرب أنه ليس في الهند الحرة الديمقراطية استعمار ثقافي ، وليس للغة وإن كانت لغة الأكثرية أو لغة الهند الرسمية أن تنشأ وتسود على حساب اللغات الهندية الأخرى ، وأن تبتلعها وتقوم على أنقاضها ، فقد كانت حرب التحرير والكفاح الوطني الموحد على أساس ضمان الحقوق وكفالة الحريات ـ الدينية والثقافية ـ وقد شارك فيها كل عنصر وهو يؤمن بأنه سينال بعد الاستقلال والحكم الذاتي حرية العقيدة والثقافة ، ومحيطاً تتحقق فيه أمانيه

ومطامحه تحققاً لم يكن إليه سبيل في عهد الاستعمار والعبودية ، ويعيش كل عزيز مقدس من عقيدة وحضارة وثقافة وآداب .

الأمـــن الطـائـفـي

المشكلة الخامسة هي مشكلة الأمن والسلامة لحدوث اضطرابات طائفية في المناسبات والأعياد والاجتماعات العامة ، أو لدى حدوث أي نزاع أو خلاف بين فريقين أحدهما مسلم والآخر غير مسلم ، فيتطور هذا النزاع إلى صراع طائفي ، وكثيراً ما يتطور نزاع عادي يحدث في أي مجتمع ، أو شجار لخلاف أو سوء تفاهم ، أو انفعال شخص من طائفة ضد فرد آخر من طائفة أخرى ، إلى اشتباكات تستخدم فيها القوة ، والأسلحة وآلات التدمير ، والإحراق ، وتسفك الدماء ، وتنتشر حوادث القتل والإحراق والنهب والسلب إلى مناطق مجاورة ، ويستغرق الوضع مدة طويلة لتهدئة الأعصاب ، وعودة الحالة إلى طبيعتها ، لأن الشائعات والشبهات تشيع وتعكر الصفو ، ويتعرض المسلمون لموقف غير محايد من أجهزة الأمن التي تميل إلى الأغلبية التي تنتمي إليها ، فلا تتخذ إجراءات صارمة ضد المشاغبين ، كذلك تلعب الصحافة القومية دوراً حاسماً في تغطية الأحداث ، فتغفل عن وجهة نظر المسلمين وتقاطع نشاطاتهم البناءة فلا تنشر ما يلقي الضوء على تحركاتهم ومجهوداتهم القومية ، ولا تعالج مشاكلهم معالجة محايدة بأمانة

صحفية ، وإنما تقدم تحليلات وتقارير مضللة تحمل المسؤولين مسؤولية التخريب وإثارة الفتنة ، وكثيراً ما عقدت اجتماعات حاشدة للمسلمين اشترك فيها مئات ألوف من الناس فكان لها صدى بعيد، لكن الصحافة القومية لم تنشر خبراً عنها بينما تغطي اجتماعات منعزلة لعناصر معادية للإسلام والمسلمين ، وإن الأمانة الصحفية تقتضي أن تقوم الصحافة بإعلام القراء بكل ما يحدث في البلاد ، حتى لو عقد الخنافس اجتماعاً حضره عدد ملحوظ ، أو عقدت عصابة مجرمة جلسة لتدبير خطة ، ينبغي على الصحافة أن تغطيها ، لكن موقفها إزاء المسلمين موقف مقاطعة ، وإذا نشرت خبراً نشرته من زاوية معاكسة ، ويتحمل المسلمون أيضاً مسؤولية كبرى عن عدم عرض موقفهم، فإنهم لم يفكروا في إصدار صحيفة إنجليزية أو هندية واسعة الانتشار تحمل وجهة نظرهم وتغطي نشاطاتهم.

تكون وراء هذه الحوادث عادة شائعات ملفقة ونشاطات مهيجة لزعماء متطرفين يحملون الحقد ضد المسلمين ، فينتهزون كل فرصة لنزاع أو أزمة اجتماعية للهجوم على المسلمين ، الذين يصفونهم بأنهم عملاء للدول الأجنبية وغير موالين للوطن ، وتشترك في إثارة هذه التهم والشبهات والكراهية ضد المسلمين صحف الأغلبية ، وتعقد اجتماعات سرية يشترك فيها المتطرفون ويهيجون فيها الأعصاب ضد المسلمين ، وتنظم

عصابات مدربة على أعمال القتل والنهب للهجوم على المساجد والمنازل والمحلات التجارية ، والمارة بصورة منظمة .

ويشكو المسلمون أن أجهزة الأمن تقف متفرجة أو محايدة خلال هذه النشاطات المثيرة للفتنة ، وأحياناً تتخذ إجراءات سلبية ، وتحول دون الدفاع عن النفس ، ونتيجة لتحركات ونشاطات المتطرفين يتحول المعتدى عليه معتدياً في نظر القانون والسلطات العليا ، فيواجه محاكمات ومضايقات إلى أن تتضح الصورة ، وتنقشع سحب الريب والشبهات .

وقد عينت الحكومة المركزية لجان تحقيق لدراسة الأسباب المؤدية إلى حدوث هذه الاضطرابات ، كما عينت لجنة الأقليات لحل مشاكل الأقليات ، ولكن المشكلة لا تزال مستمرة ، ولم ينقطع حدوث الاضطرابات الطائفية ، والواقع أنها ترجع أساسياً إلى نفسية خاصة للشكوك والشبهات بين الفريقين ، ونشاطات بعض المنظمات التي تقوم ببث الكراهية ضد المسلمين ، وعدم ثقة المسلمين بأجهزة الأمن في تأمين مصالحهم ، فيجب لحل المشكلة اتخاذ تدابير شاملة ، كتحميل أجهزة الأمن مسؤولية إقرار الأمن والنظام والقيام بواجبها بحياد ، وإزالة الشبهات والشكوك ومكافحة الكراهية في الأغلبية عن المسلمين ، وقمع نشاطات الإرهابيين الذين يبثون هذه الكراهية ، وإيجاد جو من الثقة بين مختلف الطوائف ، فإن هذه الاضطرابات الطائفية

تكلف البلاد خسائر جسيمة في الأرواح والممتلكات كما تصرف الاهتمام عن تنمية البلاد ، وقد واجهت عدة مدن صناعية اضطرابات طائفية ، كجبلبور ، جمشيدبور ، رانجي ، راوركيلا ، أحمد آباد ، مراد آباد ، ميرت ، وأبيدت فيها ممتلكات ولقي ألوف من المواطنين مصرعهم ، وقد اعترفت الحكومة أن الجهود التي بذلت للسيطرة على هذه الظاهرة ، لم توفق كلياً ، وأن سلسلة الاضطرابات تستمر في البلاد ، وفيما يلي تقرير رسمي عن الوضع الطائفي :

عام ١٩٧٩ ـ عدد الحوادث ٣٠٤ ـ الوفيات ٢٦١ ـ الإصابات ٢٣٩٧

١٩٨٠	٤٢٧	٣٧٥	٢٨٣٨
١٩٨١	٣١٩	١٩٦	٣٦١٣
١٩٨٢	٤٧٤	٢٣٨	٣٠٢٥
١٩٨٣	٤٠٤	٣٠٢	٣٤٧٨

هذه أرقام رسمية ، أما الأرقام التي جمعتها المنظمات المطوعة والأحزاب السياسية فهي تفوق كثيراً الأرقام الرسمية ، ولا تشمل هذه الأرقام عدد القتلى والجرحى في آسام ومراد آباد حيث بلغ العدد عدة آلاف .

المشكلة الاقتصادية

المشكلة السادسة هي المشكلة الاقتصادية ، فمما قررته فلسفة التاريخ وأثبتتها تجارب الأمم أن الحالة الاقتصادية لها

تأثير كبير في مستوى عقلية الشعب وصحته ومواهبه وذكائه وطموحه.

فالأزمة الاقتصادية والفقر الذي يعانيه الشعب وما ينتجه من سوء التغذية، والحرمان من الفرص، واليأس من المستقبل، وفتور الهمة، والاعتزال عن الوظائف الكبيرة، يؤثر في الشعوب تأثراً عميقاً، وينزلها من مستوى الشعوب الراقية الذكية الطامحة، إلى مستوى الشعوب المنحطة الخاملة وطبقة المنبوذين، وقد كانت موارد المسلمين المهمة إلى عهد الحكومة الإنجليزية، الإقطاعية، والملاكية، والوظائف الحكومية، والتجارات الكبيرة، وقد ألغيت الملاكية بعد التقسيم، ولا تخلو هذه الخطوة الجريئة من إصلاح وفوائد للمجتمع الهندي، أما الوظائف الحكومية فقد بدأ قسط المسلمين منها يقل ويضعف، حتى أصبحت نسبة ضئيلة تنذر بتطور خطير في أوضاع المسلمين الاقتصادية والاجتماعية، ومن اطلع على أعداد المنتخبين للوظائف خصوصاً في الجيش والشرطة والوظائف الرئيسية، التي تطلع في الصحف بين حين وآخر وقارن بينها وبين أعداد الموظفين قبل التقسيم، اعتقد أن المسلمين قد غادروا هذه البلاد ولم يبق منهم إلا الأميون الذين لا يستحقون هذه الوظائف، واستطاع أن يتنبأ بأن المسلمين سيقصون عن الجهاز الإداري في مدة قليلة، وإذا أحيل

الموظفون الكبار الذين لا يزالون في وظائفهم منذ عهد الإنجليز على المعاش لا يبقى في الحكومة من يمثل ستين مليوناً من المسلمين ، ومما يلقي الضوء على هذا التدهور في نسبة الموظفين المسلمين ما يثار من الأسئلة بعض الأحيان في بعض مجالس التشريع ، وما يظهر في تقريرات الحكومة وبلاغاتها من الأعداد ، نلتقط منها مثالين فقط : منها ما قيل في مجلس ولاية دهلي التشريعي «أن عدد الموظفين المسلمين في بوليس هذه الولاية كان ١٤٧٠ قبل التقسيم وليس في البوليس الآن إلا ٥٦ موظفاً مسلماً ، ولم ينتخب إلا موظفان مسلمان بعد سنة ١٩٤٧م» المثال الثاني ما قال وزير الدفاع في أبريل ١٩٥٤م في خطبة ألقاها في جامعة عليكره ، أن نسبة المسلمين في الجيش كانت ٣٢ في المئة قبل التقسيم وليس الآن إلا اثنان في المئة» .

ويمكن أن يقاس على ذلك الوظائف المهمة الرئيسية مع أن المسلمين لم يفقدوا ذلك الذكاء وتلك المواهب التي اشتهروا بها في القديم واستحقوا بها ثقة الحكومات ، وتقلد المسؤوليات ، ولا يزال عدد المتعلمين فيهم يزداد ويتضخم ، والعصر عصر التعليم والثقافة ، وهذا من أسباب انتقال عدد كبير منهم إلى باكستان خصوصاً الشباب المثقفين الذين يحرزون الشهادات العالية في العلوم والآداب، ويثبتون نبوغهم وبراعتهم، ثم لا ينالون ما يستحقون من المراكز في الحكومة ، مع أن دستور

البلاد قد ساوى بين طبقات الشعب وطوائفه ، وتكفل تكافؤ الفرص لجميع الطوائف والعناصر في الجمهورية الهندية ، والمساواة بين الحقوق ، وهو الذي يضمن زوال هذا الوضع وعدم بقائه؛ لأنه وضع مضاد للدستور، ومناف للجمهورية إذا سرت روحها في طبقات الشعب وتغلغلت في المجتمع وزالت رواسب العهد الماضي.

هذه رؤوس المشكلات التي يعانيها الشعب المسلم الهندي في هذه الفترة التي لا بد منها لكل بلد بقي تحت الحكم الأجنبي مدة طويلة ، ولم يسغ الجمهورية إساغة كاملة ولم يتعودها بالمعنى الصحيح ، ولكن نرجو أن هذه الفترة لا تطول لأنها غير صالحة للبقاء في هذا العصر المتحرر الجمهوري ، وسيغلب العقل على العاطفة والوعي السياسي على العصبية الطائفية والعقلية الضيقة ، وحينئذ تنحل هذه المشكلات، وينال الشعب الإسلامي كل ما يستحقه من الحرية والكرامة والمساواة كجزء من أجزاء هذا الوطن العزيز وركن من أركان هذه النهضة المباركة ، إذا أثبت جدارته واستقامته وصبره واعتماده على الله ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

* * *

شخصية الشعب المسلم[1]

مقوماتها ومصادرها

أرحب بكم على أرض قامت عليها تجربة من نوع فريد في تاريخ الديانات والحضارات والثقافات نجحت نجاحاً منقطع النظير ، تجربة دخول دين يواكبه العلم والحضارة ، ومنهج خاص للحياة ، لا تربطها به لغة ولا آداب ولا حضارة ،

---

(١) مأخوذ من كلمة الترحيب التي ألقاها المؤلف في مفتتح المهرجان التعليمي لندوة العلماء المنعقد في ٢٥ شوال ١٣٩٥ هـ (شهر نوفمبر ١٩٧٥ م) ننقله هنا بعد حذف فقرات التحية والترحيب والاستقبال ، فإن المقال يقدم عرضاً موجزاً لأهم أحداث التاريخ الإسلامي في الهند ودور المسلمين في المجالين: التعليمي والثقافي ، ويكاد يكون ملخصاً لموضوع الكتاب.

ولا قومية ولا عنصرية ، ولا عادات ولا طبائع ، فبرهنت هذه التجربة على القوة المودعة في طبيعة الإسلام ، وقدرته على إشعال المواهب ، وتفتيق القرائح وإثارة الدفائن ، واستخدام الطاقات البشرية في صالح الإنسانية ، وعلى استجابة الفطرة البشرية السليمة له ، كأنما كانت منه على موعد واشتياق ، ومعه على تفاهم واتفاق ، وبرهنت كذاك على خصب التربة وكرم المنبت ، وعلى أن العلوم الإسلامية تورق وتثمر في كل بيئة ومناخ ، وقد تكون أكثر ازدهاراً ، وأفضل ثماراً ، إذا غرست في أرض بكر ، وتناولها عمل التلقيح الحكيم ، و«التأبير» السليم ، وعلى أن الشعور بالغربة ، والبعد عن مصدر هذه الهداية ، ومنطلق هذه القافلة ، واليأس من وصول الميرة والمدد ، والاعتماد على نصر الله وحده ، ثم الاعتماد على الرسالة التي تحملها هذه الجالية ، وصلاحيتها للبقاء ، ونفعها للإنسانية المعذبة ، والشعور بكونها على ثغرة من ثغور بعيدة عن مركز الإسلام ، كلفها الله حراستها والذود عنها ، يثير في هذه الجالية قوة تصنع العجائب وتأتي بالمعجزات ، وتتغلب على كل مقاومة ومحاربة ، ومؤامرة ومعاكسة ، وتكذب تجارب الأمم ، وتبطل المنطق المادي الذي يؤمن بالرياضيات ، وفلسفة الأعداد والعدد ، وخضوع النتائج للمقدمات والمسببات للأسباب .

تدخل هذه الجالية في البلاد غريبة ، فلا تلبث أن تتخذها داراً

وقراراً يحبها أبناؤها وتحبهم ، ويرون فيها الأخ الكريم والأب الرحيم، والأستاذ الشفيق، والحاكم الرفيق ، والصانع الحاذق ، والإداري الحازم ، وتصب على هذه التربة أفضل ما عندها من طاقات وكفايات ، وعلوم وتجارب ، وتعاليم وآداب ، وإبداع وابتكار ، ونشاط وحماس ، وقوة عمل وقوة إرادة ، وحسن تنظيم وقدرة إدارة ، وتلتقي الفروسية التركية ، وقوة الإرادة المغولية ، والنخوة الأفغانية ، والطبيعة الإيرانية المرحة القلقة ، الهائمة بالجمال والخيال ، ورقة العجم وخفة روحهم ، مع جدية العرب وسلامة ذوقهم ، مع طبيعة البلاد وأبنائها الرقيقة الوادعة ، والولوع بالفلسفة والتصوف ، تسيطر على جميع هذه العناصر والعوامل عقيدة التوحيد النقية ، وتعاليم الشريعة الإسلامية السمحة ، وتصهرها في بوتقتها ، فتنشأ من كل ذلك حضارة جديدة تستحق أن تسمى «الحضارة الإسلامية الهندية».

وقامت في الهند مدرسة حضارية فكرية علمية ، ذات شخصية خاصة ، وطابع خاص ، أنجبت عدداً كبيراً من النوابغ ، وأئمة الفنون الإسلامية ، وأصحاب الإبداع والابتكار ، والأصالة العلمية ، كانوا أصحاب مدارس خاصة ، وفاتحي آفاق جديدة ، ليس في العلوم الدينية كالتفسير والحديث ، والفقه والعقائد فحسب ، بل في علوم اللغة والآداب العربية ، أقر لهم

علماء العرب بالإمامة والزعامة فيها ، وعدت كتبهم من المراجع الرئيسية في هذه العلوم ، وبعضها فريد لا نظير له في المكتبة الإسلامية العالمية[١] ، وأمدت هذه المدرسة الحركة العلمية والتأليفية في العالم الإسلامي والعربي التي أصابها الفتور ، وغشيها الإعياء الفكري في بعض الفترات بعد القرن الثامن الهجري ، بدم جديد ونشاط جديد ، وأصبحت معقلاً لبعض العلوم الإسلامية ـ بعد الزحف التتاري ـ وصارت أكبر مركز لعلم الحديث الشريف في الزمن الأخير ، ومصدر إشعاع وتصدير بعد ما كانت مركز استفادة واستيراد ، ونبغ فيها أكبر علماء هذا الفن ، وألف فيها أحسن الكتب في هذا الموضوع ، وقاد بعض رجالها في مختلف العهود حركات الإصلاح والتجديد ، والبعث الجديد ، سمع صداها العالي ، ورؤيت آثارها الطيبة المباركة في نواحي العالم الإسلامي البعيدة.

ثم أراد الله أن تخوض هذه البلاد أكبر معركة حضارية ، ثقافية فكرية ، شهدها التاريخ المعاصر ، وأن تواجه أعنف صراع بين المبادىء والعقائد ، والقيم والمفاهيم ، والمعايير والموازين ، معركة قامت بين الحضارة الغربية والفلسفة الغربية ، وبين

---

(١) اقرأ للتفصيل كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة السيد عبد الحي الحسني ، طبع المجمع العلمي العربي بدمشق.

الحضارة الإسلامية والفلسفة الإسلامية ، وصراع بين الفكرة الإسلامية ، والفكرة الغربية ، بأوسع معانيهما وأدقهما ، فكانت معركة حامية دامية ، وصراعاً عنيفاً قاسياً ، فقد واجه الشعب الهندي المسلم المثخن بالجراح ، المصاب بدهشة الفتح ، الحضارة الغربية الفتية الدافقة بالحيوية والنشاط وجهاً لوجه ، لا حاجز بينهما ولا فجوة ، ودام في ربوع الهند الحكم الإنجليزي الثائر الموتور الحانق على هذا الشعب الذي تسلم منه مفاتيح البلاد ، وذاق من جرائه الثورة العارمة ، والحرب المسعورة قرناً كاملاً ، يحمل الروح الصليبية مع الروح الاستعمارية ، يرى في الشعب المسلم منافسه الحقيقي الدائم في كل زمان ومكان ، ويرى في الإسلام معسكراً يوازي معسكره على طول الخط ، وكل يدعي أنه يقود الحياة ويصوغ المجتمع ، ويشرع ويسن القوانين ، ويملأ الفراغ الذي لا بد أن يملأ ، فكان نصيب الشعب المسلم من لهيب هذه المعركة وخسائرها وغراماتها أكثر من نصيب أي شعب آخر ، وكان أكثر حساسية وأكثر حساباً لهذه المعركة من جميع الشعوب بطبيعة الحال ، وقد سجل التاريخ الأمين المنصف ، أنه كان أكثر صموداً ، وأكثر احتفاظاً بشخصيته ومعنوياته ، وأكثر تمرداً واستعصاء على حركة الإبادة الدقيقة الشاملة من أكثر الشعوب الإسلامية التي اكتوت بنار الاستعمار الأجنبي ووقعت تحت نيره .

هذا عدا حركة «التنصير» التي يسميها أصحابها حركة «التبشير» التي واجهها المسلمون في الهند على إثر استقرار الحكم الإنجليزي ، وقد كادت تكتسح البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وكانت مسلحة بأقوى الأسلحة وأشدها تأثيراً في الشعب المفتوح المهان ، وتتمتع بحماية الدولة التي تعتبر هذه البلاد منحة من السيد المسيح (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) والسيطرة على البلاد فرصة سانحة للدعوة إلى الدين المسيحي ، ترافق حركة التنصير حملة تشكيكية قوية ، تشكيك في كل ما يتصل بالدين الإسلامي من شريعة وحضارة وثقافة وتاريخ ، وقد قاوم علماء المسلمين كلتا الحركتين بقوة زائدة ، وقدرة فائقة ، وآثروا سياسة الهجوم والنقد العلمي على سياسة الدفاع والتماس العذر ، فانحسرت موجات الدعوة التبشيرية ، والحركة التشكيكية ، وتراجعت إلى الوراء ، وازداد المسلمون إيماناً وثقة بدينهم ، واعتزازاً بحضارتهم وثقافتهم ، واعتداداً بشخصيتهم وتاريخهم.

وأمَّ عدد كبير من الشباب المسلمين مراكز الثقافة الغربية في كبرى العواصم الأوربية ، وتخصصوا في علومها العصرية ، وحذقوا اللغة الإنجليزية كأبنائها ، وكان منهم أدباء ، وكتاب ، ومؤلفون، ومعلمون ، وإداريون ، شهد ببراعتهم وتفوقهم علماء الغرب ، ولكن كان منهم أكبر نقدة ، وأقوى ثائرين على الفلسفة

الغربية المادية ، والفكرة الغربية المتطرفة المتعصبة للمسيحية أحياناً ، والمتحللة الملحدة أحياناً كثيرة ، وتناولوا الحضارة الغربية ، والفلسفات الحديثة ، بنقد علمي عميق ، وتشريح جريء دقيق ، وتهكم لاذع رشيق ، كل على حسب أسلوبه الخاص ، وظروفه الخاصة ، وصدرت من أقلامهم أقوى كتابات في عرض الإسلام كدين كامل شامل ، ومهاجمة الحضارة الغربية في أسلوب مليء بالثقة والاعتزاز ، بعيد عن كل تأويل واعتذار ، وأنشؤوا جبهة علمية قوية أمام دعوة الفكر الغربية والحضارية ، شعارها إنكار إمامة الغرب ، وعصمته من كل خطأ ، وبراءته من كل ضعف ، والافتخار بالإسلام كرسالة إنسانية عالمية خالدة ، والإيمان بمحمد ﷺ كخاتم الرسل ، ومنير السبل، وإمام الكل.

ثم واجه الشعب المسلم الهندي تجربة جديدة ، ودخل في فترة كبيرة الأهمية ، هي تجربة ممارسة الحياة الحرة الاستقلالية ، التي كان من أول دعاتها ، ومن أكبر أبطالها ، والمضحين في سبيلها ، والتي يسهم فيها كأبناء البلاد ، وأفراد الشعب المواطن المناضل الحر الأبي الكريم ، فترة انتقال من الحكم الأجنبي إلى الحكم الذاتي ، تسن فيه قوانين جديدة ، ويصاغ فيه المجتمع صوغاً جديداً ، ويوضع للتربية والتعليم نظام جديد ، وتتحكم في حياة البلاد اتجاهات طائفية أحياناً ، عاطفية

وأعصابية أخرى ، قد حرص الحكم الإنجليزي على إضعافها وتأخيرها في ميدان الحياة ، تحيط بها هالات من رواسب الماضي ، ومن شبهات هي منها بريئة كل البراءة ، ومن تصرفات هي منها بعيدة كل البعد ، وكل ذلك يضخم مسؤوليتها ، ويضعف موقفها ، ويحرج مركزها ، وهي مع كل ذلك مصممة على البقاء في هذه البلاد ، مع الاحتفاظ التام بشعائر دينها ، وخصائص حضارتها ، وشخصيتها ، لا تتخلى عن شيء من ذلك ، فكانت محنة ذكاء ومحنة وفاء ، محنة عقيدة جازمة ، ومحنة وطنية صادقة ، محنة الشخصية القوية العبقرية ، ومحنة الروح الإيجابية البناءة ، محنة يقل نظيرها في التاريخ الإسلامي القديم ، فلا تمكن الاستنارة به في ذلك ، ويندر الحديث عنه في كتب الفقه والفتاوى ، ومتى وجد ستون مليوناً أو أكثر من المسلمين في أكثرية غير المسلمين ، في بلد يحكمه البرلمان ، ويسيطر عليه الدستور ، واتخذ العلمانية له شعاراً ، فلا سبيل إذاً في تخطيط الحياة اللائقة العملية الخاضعة لتعاليم الإسلام والحقائق الراهنة ، إلا الأصول الإسلامية الحكيمة ، الخالدة العالمية ، والذكاء الألمعي ، والشخصية القوية ، والعزم الصادق، والإيمان الراسخ ، وإيثار حياة الشرف والكرامة على حياة اللؤم والمهانة ، والاستشراف لتبوء مكان القيادة الخلقية الذي لا يزال منصبها شاغراً ، والظهور على منصة هذه

البلاد ومسرحها كداع مخلص رباني ، وقائد خلقي إنساني ، مجرد عن كل شهوة وأنانية ، وأغراض فردية وجماعية ، ينقذ هذه البلاد من الهوة السحيقة العميقة من الانحطاط الخلقي ، وتقديس المادة والتهالك عليها ، والانتهازية ، ونسيان فاطر الكون ، وذلك هو الطريق الوحيد الذي يرفع هذا الشعب من مستواه الشعبي العام إلى مستوى الرائد ، والقائد الرفيع السامق.

وقد عرف الشعب المسلم الهندي في تاريخه الطويل - ولا أزكي على الله أحداً ، إنما هو تحديث بالنعمة ، وتقرير الواقع التاريخي - بقوة عاطفته الدينية ، وحبه العميق ، المتغلغل في الأحشاء لرسول الله ﷺ ، وارتباطه بمهد الإسلام ومركزه ، وذلك الذي حماه من أن يذوب ويفقد شخصيته ، كما كان الشأن مع الشعوب التي دخلت في هذه البلاد في فترات مختلفة ، وأبدى اهتمامه الشديد بقضايا الإسلام والمسلمين في الزمن الأخير ، قد تبنى قضية الدفاع عن الخلافة العثمانية بحماس منقطع النظير ، ولا تزال «حركة الخلافة» التي كان لها فضل كبير في إثارة الوعي السياسي والوطني في شبه القارة الهندية ، كبرى حركات الهند الشعبية ، وموضع دهشة المستعمرين ، وموضوع المؤرخين والمؤلفين ، وكذلك أبدى اهتمامه الشديد بقضية فلسطين ، والمسجد الأقصى المبارك ، وكان مرهف الحس ،

رقيق الشعور ، شديد الانفعالية في كل ما يقلق المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

وقد تجلت قوة عاطفته الإسلامية ، وشدة تمسكه بالدين ، وتعاليمه وثقافته ، في شبكة المدارس الدينية والكتاتيب الإسلامية ، الدقيقة الواسعة ، التي قلما خلت منها قرية كبيرة فضلاً عن المدن والأمصار ، وقد أسسها المسلمون في طول الهند وعرضها ، بعد استقرار الحكم الإنجليزي ، وتملكه لزمام التربية والتعليم في القطر الهندي ، وهي تتجاوز المئات ، وتبلغ إلى الألوف ، ومنها عدد كبير يسمى «بالمدارس العربية» لعنايتها الزائدة بالعلوم الإسلامية التي ألفت كتبها في اللغة العربية ، وعنايتها بالقرآن والحديث اللذين هما بلغة العرب ، وهي تعني غالباً بتدريس الجامع الصحيح للبخاري بصفة خاصة ، وتدريس صحيح مسلم ، وجامع الترمذي ، وسنن أبي داود بصفة عامة ، وتكاد تكون هذه المدارس كلها شعبية يمولها ويكفلها الشعب المسلم ، ويعتبر ذلك سعادة وعبادة ، ويتنافس فيه ، وذلك سر وجود هذا العدد الكبير من العلماء المحتسبين ، والدعاة المتطوعين ، والمعلمين المخلصين في كل زمان ، الذين يعيشون على الكفاف ، وببلغة من العيش يتبلغون بها في نشر العلم ، والدعوة إلى الله ، وتعليم الناس دينهم .

ومن سمات العلماء والمتخرجين في هذه المدارس الدينية

البارزة ، أنهم كانوا في طليعة المناضلين لتحرير البلاد وإجلاء «المستعمرين» وفي مركز القيادة في هذه الحركة الشعبية القوية ، ومنهم انبثقت فكرة النضال ضد الاحتلال في الحقيقة ، وقد قاد كثير منهم حركات المقاومة الفعالة والثورات المسلحة بمقدرة وشجاعة ، فمنهم من قتل شهيداً ، ومنهم من شنق ، ومنهم من نفي إلى جزائر إندمان ، أو إلى منفى جزيرة مالطة ، ومنهم من قضى شطراً من حياته في السجون والمعتقلات في داخل البلاد ، وتاريخ حركة التحرير والاستقلال مقترن بتاريخ العلماء والشخصيات الدينية في الهند ، متداخل فيه ، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

ومن سماتهم البارزة أنهم قادوا الحركة الأدبية الإنشائية في شبه القارة الهندية ، وكانوا من الدعائم القوية السامقة التي قام عليها قصر الأدب الرفيع والنثر الفني بعد ثورة ١٨٥٧م ، وكان كل واحد منهم مؤسس مدرسة أدبية خاصة ، لا يزال لها أنصار وأتباع ومقلدون ، وكان كثير منهم رائد نشاط جديد في الإنشاء والتحرير ، والنقد وتاريخ الأدب والشعر ، ولا تزال مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل والعمدة في هذا الموضوع ،فلم يكن في الهند ذلك الفصام النكد بين علوم الدين والأدب العصري ولغة البلاد ، ولم تكن تلك الفجوة التي وقعت في بعض البلاد بين علماء الدين والشادين بالأدب والشعر ، والهائمين بهما ،

الفجوة التي جنت على الدين والأدب في وقت واحد.

وأصبح الشعب المسلم الهندي اليوم مكتفياً بالإسلام، يستمد قوته وصموده من منابع الإسلام الأصيلة، كالكتاب والسنة، وسلوك الرعيل الأول من المسلمين، وجهاده ووفائه وبطولاته، وسيرة السلف الصالحين الذي أحسنوا فقه الإسلام، وأساغوا تعاليمه، واستقاموا على الطريقة، قد ربط عقيدته ومصيره وسلوكه بالإسلام، ولم يربطه بالمسلمين عرباً كانوا أو عجماً، فليس «إمعة» يقول إن آمن الناس آمنا، وإن كفروا كفرنا، وإن استقاموا استقمنا، وإن انحرفوا انحرفنا، ولا يشترط لوفائه للإسلام، وفاء شعب من الشعوب الإسلامية للإسلام، بل يرى ذلك لزاماً عليه وشكراً لنعمة الإيمان التي لا نعمة أعظم منها، وهو يدعو الله أن يبقى متمسكاً بالجامعة الإسلامية، معتزاً بحضارة الإسلام وفلسفته، متمسكاً بالدين الإسلامي كدين كامل يقود الحياة كلها والأزمنة والمجتمعات كلها، حين تؤمن شعوب كثيرة بقومياتها وحضاراتها البائدة، وفلسفات عتيقة وحديثة، منافية للإسلام أو منافسة له، وأن يلهم الثبات على المبادىء والقيم، والمثل العليا، مهما كانت قيمته في الحياة المادية والفرص المواتية، حتى يستطيع أن يخاطب ربه وينشد:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب



شعب يُقرر ويعاهد الله

«نختم هذا الكتاب بالكلمة التي ألقاها المؤلف في مؤتمر التعليم الإسلامي (الذي انعقد في ٤ و٥ من يونيو عام ١٩٦١ في لكهنؤ تحت رئاسته) في جلسته الأخيرة ، وهي تحدد موقف المسلمين في الهند ومركزهم وتنير الطريق لهم ، وهي من خير ما يختم به هذا الكتاب» .

أيها السادة: نحن الآن في الجلسة الأخيرة من جلسات المؤتمر ، وسترجعون إلى بلادكم ومراكزكم ، وأحرص على أن لا ينفض هذا المجلس إلا وأنتم تحملون رسالة معكم ، ولا تقوموا من هذا المجلس إلا بعد ما عاهدتم الله ، وأخذتم من نفوسكم ميثاقاً ترتبطون به في حياتكم ، وإن مستقبلنا يتوقف على هذا الميثاق .

إن لهذا الميثاق جزءين: أولهما أن نؤمن بأن هذه البلاد ـ الهند ـ هي بلادنا ووطننا ، وسنعيش فيها كأبناء ، وحقنا على

هذه البلاد لا يقل عن حق أكبر مواطن وأقدم مولود فيها ، وليس لأعظم شخصية في ربوع الهند ـ سواء كان رئيس الجمهورية الهندية أو رئيس الوزراء ـ أن يدعي أن حقه على هذه البلاد يزيد على حقنا ، فهذا البلد حبيب إلى نفوسنا ، ونحن حرسة دستوره ، لا نسمح بخيانة فيه ، أو مؤامرة ضده ، إن كل شبر من أشبار هذه الأرض الواسعة الجميلة يحمل ذكرياتنا الخالدة ، ويشهد بعهدنا الجميل الزاهر ، ومواهبنا النادرة ، وإنتاجنا الضخم. لقد كانت هبتنا لهذه البلاد ونصيبنا في ترفيهها وترقيتها وتزيينها يفوق نصيب كل شعب حكم هذه البلاد ، لقد ولدت هذه البلاد في عهدنا ولادة جديدة ، ووصلت إلى أوج الحضارة والتمدن ، ومن أراد أن يعرف ما نقله المسلمون إلى هذه البلاد من ثمرات الحضارة ونتاج العقول وما أضافوا عليها من الجمال والكمال فلينظر إلى ما كانت عليه قبل دخول المسلمين ، ثم يقارن بين ذلك وبين ما تجملت به بعد ما استمر الحكم الإسلامي مدة من الزمان وما هي عليه الآن ، فهذه البلاد بلادنا ، إنه وكرنا الذي نأوي إليه ونطير منه ، وحقنا عليه حق الطائر على عشه ، وعلى روضته التي ولد وعاش فيها ، يتمتع بأنهارها وأشجارها ، ويتغنى بأزهارها وأثمارها ، يجلس على أي غصن شاء ، ويطير في الأجواء في حرية وانطلاق ، ومن غير خوف وإشفاق.

فوطنيتنا صادقة ، وحقوقنا المدنية لا تتحدى ولا تناقش ،

يجب أن تكون هذه عقيدتكم ، وأن تكونوا من ذلك على ثقة ووضوح ، لا يخالجكم في ذلك تردد واضطراب ، ولا يساوركم فيه خوف أو ارتياب ، نحن أبناء الهند ، وسنعيش فيها كأبناء وأصحاب البلد ، وسنسهم في تقدمها ورقيها ، وتحقيق مشاريعها العمرانية ورفع مكانتها السياسية ، بكل نشاط وحماسة ، وبكل رغبة وسرور ، وسنظل محافظين على كرامتها وشرفها وروح دستورها ، وسنقوم بواجبنا وإن تخلف عن أداء الواجب كل هندي وكل مواطن ، فنحن أبناء بررة وقوم أشراف ومواطنون أوفياء ، هذا هو الميثاق الذي أخذناه من نفوسنا ، ونريد أن نجدده في هذا المجلس .

والشطر الثاني من هذا الميثاق أننا عاهدنا أن نعيش في هذه البلاد بكل خصائصنا الملية ، وحضارتنا الإسلامية وشعائرنا الدينية ، وبأخلاقنا الاجتماعية وبشخصيتنا المسلمة ، لا نتخلى عن شعيرة من شعائرنا ، ولا نتنازل عن جزء من أجزائها ، يحرم علينا أن نعيش مجردين عن هذه الخصائص ، وعن هذه الحضارة وعن هذه الشخصية ، ولا لذة في الحياة ولا خير فيها بعد ذلك ، فإذا لم يكن لنا أن ننقل عقيدتنا وتراثنا الحضاري إلى أجيالنا وأولادنا ، وأن نعلمهم كما تفرضه علينا مبادئنا وعقائدنا الإسلامية ، وإذا لم يكن لنا كذلك أن نقر عيناً بإسلاميتهم ونشأتهم الدينية ، فليست هذه الحياة حياة الأشراف الأحرار

فضلا عن أن تكون حياة المسلمين الأبرار ، إنما هي حياة البهائم والسائمة ، حياة الثيران والحمير والكلاب ، إن الكلب يكفيه أن ينال راتبه من أكل وشرب ، وأن يكون مصوناً عن الأعداء ، وأن يكون حراً في الإنتاج ، وأن ينال شبعه وريه على يد سيده ، وكذلك يكفي الثور أن ينال علفه وأن يكون آمناً في مربطه أو حراً في غابته ، فإذا تم له ذلك طابت حياته ، وتحققت رغباته ، وكملت حريته ، ولا يفكر في تربية أولاده على أسلوب خاص ، ولا يفكر في عقيدة ينقلها إلى أولاده أو يأخذها بها ، حتى إذا منع من ذلك وحرم فرصه ووسائله ثار واضطرب وتكدر عيشه .

ولكن الإنسان يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فلا يكفيه أن يقطع له من الرزق ، أو يأتيه رزقه رغداً ، ويرتب له غذاؤه وقوته ، وما لا يعيش بغيره ، وأن يحفظ من الاعتداء على النفس والعرض والمال ، إنه يريد أن يضم إلى ذلك حرية تربية أولاده وتعليمهم ، وأن ينقل إليهم عقيدته وعقليته وثقافته وما يؤمن به من مبادىء ، ويتمسك به من أصول ، ويستميت في سبيله من دين ، وأن يرى أولاده وخلفاءه وأفلاذ كبده على الطريق الذي اختاره لنفسه وآثره على غيره ، لا تسلط عليه عقيدة يكفر بها ، ولا ثقافة يعارضها ، لا يملك من أولاده ومستقبلهم وسيرتهم شيئاً ، ويراهم يرتدون عن دينه، وينسلخون عن حضارته ، ويتجردون عن خصائصه ، فلنعاهد الله على أن نعيش عيش

الأشراف الأحرار ، عيش بني آدم الذين أكرمهم الله بالإنسانية ، ولا نعيش عيش البهائم الداجنة أو الكلاب المقتناة ، ولا نقتنع بحرية الأكل والشرب ، وضمانة الرواتب وتكافؤ الفرص ، في قضاء مأرب النفس وتربية الأجسام وتولي الوظائف فحسب ، إننا نرفض هذا الأسلوب من الحياة ، وهذا المنهج من التفكير ، وهذا النوع من الحرية ، وهذا القدر من الوطنية .

سادتي : إن في هذه البلاد منبوذين ينحدرون من الشعوب التي استعبدها الذين فتحوا هذه البلاد قبل آلاف من السنين ، واضطروهم إلى أن يعيشوا في ظلم وفقر وضعف وسخرية ، يتنجس الإنسان إذا مسهم ، ويعاب إذا جالسهم ، ويعاقب إذا واكلهم ، إن هؤلاء الأشقياء جنوا على أنفسهم يوم دخل هذه البلاد الفاتحون من أواسط آسيا جناية يحتملون جريرتها إلى هذا اليوم ، وسيتحملونها إلى قرون وآلاف من السنين ، كان ذلك أنهم آثروا حياة الذل على موت الشرف ، إن الشعوب تخطىء مرة وتعاقب لآلاف من السنين ، لا نريد أن نرتكب هذا الخطأ ، إننا نعاهد على أن نعيش في الهند حياة كريمة شريفة ، لا حياة الكلاب ولا حياة المنبوذين .

إننا لا نعيش فيها حياة العبيد ، إننا أبناء هذه البلاد ، لنا من الحقوق والحظوظ ما لغيرنا ، إننا بناة هذه البلاد ومن مؤسسي حضارتها ، وأصحاب الفضل عليها ، وليس لقوة في العالم

أن تسلبنا هذا الحق الطبيعي ، وهذا الحق الدستوري ، لقد انقضى عهد الاستعباد والاستعمار ، وليس لشعب أن يستعبد شعباً آخر ، وليس لحضارة أن تقتل حضارة أخرى ، وليس للغة أن تقضي على لغة أخرى ، ولقد أصبح العالم اليوم أسرة واحدة لا يخفي ظلم أو اضطهاد في قطعة أو بقعة ، لقد استيقظ الضمير العالمي ، فإذا ظلم السود في إفريقيا أو الملونون في أمريكا صرخ الضمير العالمي وثار الرأي العام ، إننا نحن المسلمين ـ بصفة خاصة ـ أسرة عالمية منتشرة في الأرض مرتبطة بالعقيدة والدين والأخوة الإسلامية ، لنا إخوان في جميع بقاع الأرض يتألمون بألمنا ، إننا سنحارب كل ظلم ، وكل ثورة على الدستور ، إننا أمة لا تزال تملك تلك المواهب العظيمة التي خدمت بها الإنسانية وهذه البلاد ، إننا لم نفلس في عقولنا وفي أخلاقنا ، إن سحابتنا التي هطلت على الأرض لم تصبح جهاماً ، إنها لاقحة غنية بالماء والخصب .

إننا أيها الأخوة في هذا الثلث الأخير من الليل الذي تنزل فيه رحمة الله ويجاب الدعاء وتصفو القلوب ، نعاهد بكل إخلاص أننا سنبقى في هذه البلاد بإسلاميتنا وإسلامية أجيالنا القادمة ، ونبذل في هذا السبيل كل رخيص وغال ، ونحتمل السراء والضراء ، ونكون من إحدى الطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في سورة الأحزاب .

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ .

* * *

فهرس الموضوعات

* * *

التعريف بمؤلف الكتاب

بقلم تلميذه السيد عبد الماجد الغوري

اسمه ونسبه وأسرته :

• علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمّد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أول من استَوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧ هـ) .

• أبوه العلاّمة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني الذي استحق بجدارة لقب « ابن خلكان الهند » لمؤلفه القيم « نزهة الخواطر » (في ثماني مجلدات ضخمة) عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » .

● أمّه ـ رحمها الله ـ كانت من السيّدات الفاضلات ، المربّيات النادرات ، المؤلّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته :

● أبصرَ النورَ في ٦ محرم ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م بقرية «تكية كلان» الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش) .

● بَدَأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دَخَلَ في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين (الأردوية والفارسية) .

● توفي أبوه عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرة ، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية سماحة الشيخ الندوي .

● بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّعَ فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين

الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠م .

• التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧ م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونالَ منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمة في اللغة العربية والأردوية ، ممّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتَعَلَّمَ الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

• التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩م وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلاّمة المفسر المشهور أحمد علي اللاّهوري في لاهور عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م ، وحَضَرَ دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

جهوده العلمية ونشاطاته الدعويّة :

• انخرَطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤م ، وعُيِّنَ أستاذاً

في دار العلوم ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب ، خلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلاّت العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين .

• قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩م ، تَعَرَّفَ فيها على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبَقِيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتَلَقَّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأَسَّى بالشيخ محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

• أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣ ، وأَسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١م ، والمجمع

الإسلامي العملي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩م .

• عُـيِّـنَ أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١ ، (ولا يزال يترأس أمانتها إلى يومنا هذا) .

• شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢ .

أهمّ مؤلفاتـه :

• نشِرَ له أول مقال بالعربية في مجلّة « المنار » للعلاّمة السيّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره ـ آنذاك ـ الأربعة عشر عاماً .

• ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧م يحمل اسمه « سيرة أحمد شهيد » ونَالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .

• بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَرَ أوّل كتاب فيها بعنوان « مختارات من أدب العرب » عام ١٩٤٠ ، و« قصص النبيين » للأطفال و« القراءة الراشدة » عام ١٩٤٤م .

وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية .

• ألَّفَ كتابه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » عام ١٩٤٤م .

• دعِيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦م ، وألْقىٰ محاضرات بعنوان « التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي » نُشِرتْ بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .

• ألَّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان « القادياني والقاديانية » عام ١٩٥٨ م ، وكتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية » عام ١٩٦٥ م وكتابه « الأركان الأربعة » عام ١٩٦٧ ، و«السيرة النبوية» عام ١٩٧٦ م ، و « العقيدة والعبادة والسلوك » عام ١٩٨٠ و « المرتضىٰ » في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨م .

• شارك في تحرير مجلة « الضياء » العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢ ومجلّة « الندوة » الأردوية الصـادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠ ، وأَصْدَرَ مجلّة باسم «تعميرحيات» في الأردوية عام ١٩٤٨م ، وكَتَبَ مقالات في الأدب والدعوة

والفكر في أمهات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ : « الرّسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيات و« الفتح » للأستاذ محب الدين الخطيب و « حضارة الإسلام » للدكتور مصطفىٰ السباعي و « المسلمون » للدكتور سعيد رمضان المصري .

• أشْرَفَ على إصدار جريدة « نداي ملّت » الأردوية عام ١٩٦٢م ، وهـو المشـرف العـام الآن علـى مجلّـة « البعـث الإسلامي » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥م وجريدة « الرائد » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩م ومجلة « تعميرحيات » الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م ، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند) .

رحلاتـه :

• سافَرَ إلى الشرق والغرب مرات داعيةً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابيّ البنَّاء في كل مجال ، جواباً للآفاق في سبيل الله ، محاضراً ، ومحدثاً ، ومحاوراً ، واعظاً وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيها[1] .

---

(١) انظر للاطلاع على رحلاته كتاب «رحلات العلامة أبي الحسن علي =

تقـديـر وتكـريـم :

• انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها .

• اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م .

• اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١م .

• اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠م ، لمؤلَّفه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

• منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م .

• اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣م .

• اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية

= الحسني الندوي». جمع وترتيب وتعليق مؤلف هذا الكتاب ، وقد صدر من دار ابن كثير دمشق ـ بيروت .

وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن) .

- اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤م .
- أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩م في إستانبول « تركيا » .
- اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقَدَّمَ إليه الجائزةَ ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

- لا يزال يتولّى سماحته الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (الّتي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتَفَوَّقَتْ على معظم جامعات العالم الّتي تَهْتَمّ بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند) .
رئيس مركز آكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .
رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند .
رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) .
عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .
عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة .
عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .
عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
عضو مجمع اللغة العربية الأردني .
عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن .
عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط .
عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان) .
عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند) .

● وعدا ذلك يتولّى سماحته الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربيـة في العالم الإسلامي وخارجه ، حفظـه الله ونَـفَـعَ بـه الإسلام والمسلمين[1] .

* * *

(١) انظر كتاب المؤلِّف « أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب».

للاطلاع على سيرة حياة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية ، ومآثره القيمة في مجال الأدب ، وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية ، وتعريف لأهمّ مؤلّفاته ، صَدَرَ من « دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩م » .